تصوير القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي

د. محمد رياض. ك

ديوان العرب للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: تصوير القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي

اسم المؤلف: د. محمد رياض .ك

رقم الإيداع: 20515 / 2023

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 998 - 755 - 2

التدقيق اللغوي:أمنة برواضي

تصميم الغلاف: زياد الهدوي

التنسيق الداخلي: زياد الهدوي

رقم الطبعة: الأولى

ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

المدير العام: فادية محمد هندومة

إميل الدار: dewanelarab1978@gmail.com

تليفون: 00201030502390

ترجمة المؤلف

الدكتور محمد رياض ك. من أفضل الأكاديميين الذين ساهموا مساهمات قيمة في نشأة الدراسات العربية في بلاد الهند وهو يعمل حاليا أستاذا مساعدا ورئيسا لقسم اللغة العربية بكلية ام. اي. يس، كي. وي. ام، والانجيري، كيرالا – الهند. وهو الآن يشرف على عدد من الدراسات والبحوث اللغوية والأدبية في مرحلة الدكتوراه. وقد شارك في عديد من المؤتمرات والندوات الوطنية والدولية وقدّم فيها أوراقا علمية. وله بحوث علمية ومنشورات أخرى في مختلف المجلات العربية. وهو عضو في هيئة الدراسات للبكالوريوس بجامعة كالكوت المشهورة. وكانت له عضوية في الاتحاد الدولي للغة العربية ببيروت. ونشر كتابين، أحدهما في المعلومات العامة والتالي في العربية التواصلية. وعقدت تحت رئاسته برامج ومبادرات ومؤتمرات لغوية في الكلية. وقد أكمل الماجستير في اللغة العربية وآدابها من الكلية الحكومية بي تي ام التابعة لجامعة كاليكوت وواصل دراسته وأكمل ما قبل الدكتوراه من قسم اللغة العربية، جامعة كيرالا. وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كاليكوت في عام ٢٠١٨ م.

المحتويات

تقديم.....٩
مقدمة.....١٣

الباب الأوّل : يوسف السباعي: رحلته الشخصية والأدبية.....٢٢
الفصل الأوّل: يوسف السباعي: منذ البداية إلى النهاية.....٢٥
الفصل الثاني: نشأة يوسف السباعي أديبا.....٣٢
كتاباته القصصية.....٣٧
القالب الروائي ليوسف السباعي.....٣٩
يوسف السباعي والمسرح.....٤١
مقالات يوسف السباعي.....٤١
الفصل الثالث: الوجود العملي ليوسف السباعي.....٤٣
السينما ويوسف السباعي.....٤٤

الباب الثاني : روايات يوسف السباعي: خصائصها الأدبية والفنية.....٤٦
الفصل الأول:أهمّ روايات يوسف السباعي بالإيجاز.....٤٩
"أرض النفاق".....٤٩
"السقا مات".....٥٠
"بين الأطلال".....٥٢
"إني راحلة".....٥٣
"فديتك يا ليلى".....٥٥
"رد قلبي".....٥٦
"طريق العودة".....٥٦
"ابتسامة على شفتيه".....٥٧

"نادية"..... ٥٩
"جفت الدموع"..... ٦١
"ليل له آخر"..... ٦٢
"نحن لا نزرع الشوك"..... ٦٣
"لست وحدك"..... ٦٦
"العمر لحظة"..... ٦٨
الفصل الثاني: خصائص روايات يوسف السباعي الأدبية والفنية..... ٧٠
الاتجاه التاريخي..... ٧٠
اتجاه الفانتازيا..... ٧٤
المبحث الأوّل: لغة يوسف السباعي الروائية..... ٧٨
المبحث الثاني: البناء الروائي عند يوسف السباعي..... ٨٣
الميتافيزيقية في البناء الروائي ليوسف السباعي..... ٨٥
المبحث الثالث: يوسف السباعي فارس الرومانسية..... ٩٢
المبحث الرابع: تقنيات السرد الروائي..... ٩٦
رسم الشخصيات (Characterization)..... ٩٧
الاسترجاع في روايات السباعي..... ١٠٢
الاستدلال للمعاني بالأبيات والأمثال..... ١٠٣
السخرية والفكاهة في روايات السباعي..... ١٠٤
الحوارات في روايات السباعي..... ١٠٨
الفصل الثالث: النقاد عن أدب يوسف السباعي..... ١١٠

الباب الثالث : تصوير القضايا الاجتماعية
والسياسية في روايات يوسف السباعي..... ١١٤
الفصل الأول: مكانة مجتمع يوسف السباعي في رواياته..... ١١٧
علاقات روايات السباعي مع المجتمع..... ١١٧
"نحن لا نزرع الشوك"..... ١١٧

الفصل الثاني: القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات ١١٩
النقد الاجتماعي والسياسي.....١١٩
المبحث الأوّل: النقد المتكوّن من ثلاثة أنواع الجدل.....١٢١
أولا: الجدل بين القدر والإنسان.....١٢١
ثانيا: الجدل بين الحرية والعبودية.....١٢٢
ثالثا: الجدل بين الموت والحياة.....١٢٣
الفصل الثالث:القضايا الاجتماعية في رواياته.....١٢٥
المبحث الأول: قضية المرأة ووضعها في المجتمع.....١٢٩
قضية الزواج.....١٣٥
المبحث الثاني: إني راحلة: رحلة نقدية - اجتماعية ليوسف السباعي.....١٤١
ثانيا: حبكة الرواية وقضاياها الاجتماعية.....١٤٥
المبحث الثالث: الاستغلال الاجتماعي.....١٤٩
قضية التفرقة.....١٥٠
قضية الرشوة والفساد.....١٥١
قضية النفاق والأنانية ١٥٣
تقسيم العمل وتضافر الجهود.....١٥٩
الفصل الرابع: القضايا السياسية في روايات السباعي.....١٦٢
المبحث الأول: قضية فلسطين والمقاومة.....١٦٤
رواية "طريق العودة".....١٦٥
رواية "ابتسامة على شفتيه".....١٦٥
رواية "نحن لا نزرع الشوك" ١٦٩
رواية "العمر لحظة".....١٦٩
المبحث الثاني: يوسف السباعي ضد الاستغلالات السياسية.....١٧٣
السباعي ضد الحيف والظلم.....١٧٣
يوسف السباعي ضد الحروب.....١٧٤
يوسف السباعي ضد الساسة المستبدين.....١٧٨

عدم الاتحاد والوحدة بين القوى العربية في قضايا الأمة.....١٨١
يوسف السباعي والتخصيص والتعميم.....١٨٢
المبحث الثالث: الوطنية والقومية في روايات السباعي.....١٨٤
خاتمة.....١٨٩
المصادروالمراجع.....١٩٤

تقديم

الحمد لله الذي له العزة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى والنعوت، القادر فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

في هذا الكتاب الموسوم ب "تصوير القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي"؛ نجد ثلاثة أبواب، قسّم كل باب إلى أربعة فصول، كما قسّم كل فصل إلى أربعة مباحث، تناول فيها الدكتور محمد رياض أعمال الأديب والكاتب يوسف السباعي:

أرض النفاق، والسقامات، وبين الأطلال، وإني راحلة، وفديتك ياليلى، وردّ قلبي، وطريق العودة، وابتسامة على شفتيه، ونادية، وجفت الدموع، وليل له آخر، ونحن لا نزرع الشوك، ولست وحدك، والعمر لحظة . . .

وهي على الشكل الآتي:

الباب الأول: يوسف السباعي رحلته الشخصية والأدبية؛

الباب الثاني: روايات يوسف السباعي خصائصها الأدبية والفنية؛

الباب الثالث: القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي

لقد اختار الباحث لكل لون أدبي بابا، فجزّأه إلى فصول وفي كل واحد من هذه الفصول، يلمس القارئ ذلك الجهد الذي بذله في البحث عن هذا اللون الأدبي، والتقصي عن المعلومة، وكل ما أبدعه في هذا المجال دون أن يغفل إبداء رأيه، وموقف النقاد في كل خطوة يخطوها؛ مدققا في كل كبيرة وصغيرة، دارسا الموضوع من كل الجوانب، بكل احترافية وتدقيق، كما هو الباحث والدارس المتمكن من المادة موضوع البحث.

لقد حاول جاهدا بخبرة متمرس، أن يكشف لنا الخصائص التي تتميز بها أعمال هذا الكاتب، الأدبية والفنية. وفي كل فصل، نجده يطرح مجموعة من التساؤلات التي تشغل باله، فيقوم بعرض مفصل، مع إبداء رأيه، معززا باستشهادات من الأعمال ذاتها، ومن آراء النقاد على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم كما قام بتتبع مسار الأديب خلال مراحل حياته الإبداعية، مبسطا القول فيما أنتجه هذا الهرم، نافذا بذوقه، مستعملا أسلوبا رصينا، يجمع بين الجدية والدقة في البحث، كما نفذ إلى تحليل الموضوعات التي تطرق لها الكاتب دون أن يغفل دراسة الروايات دراسة نقدية، فحاول أن يرسم بريشة الباحث الفنان شخصيات الروائي.

ويبدو جليا لقارئ هذا العمل، أن هذه النصوص جذبت الباحث؛ مما أفضى به إلى التعمق فيها مع العمل على التدقيق الشديد في الجمل والمعاني الموظفة، والأسلوب الذي اعتمده، والأبعاد المتوخاة منها. ولم يقف عند هذا، بل نلمسه قد تحول أحيانا محللا لأعماق النفس وأهوائها وسلوكها، وأحيانا أخرى يتعمق في جزئيات العالم الاجتماعي؛ فيحلل الظروف الاجتماعية التي أفرزت لنا هذه الشخصية أو تلك معززا كل ذلك بالشواهد المختلفة، حتى لا يبقى مجرد كلام، معتمدا على مجموعة من الدراسات والمراجع نذكر منها:

دراسة للكاتب غالي شكري؛ ومقالات لعميد الأدب العربي طه حسين ونجيب محفوظ، وأنيس منصور؛ وكتاب للدكتور عبد العزيز شرف: "الرؤية الإبداعية في الأدب ليوسف السباعي"؛ وكتاب ليوسف الشاروني: "الروائيون الثلاث"؛ ونبيل راغب: " فن الرواية عند يوسف السباعي"؛ وكتاب للناقد علاء الدين وحيد: " يوسف السباعي بين الأيام والليالي"

ولقد كتب محمد رياض عن يوسف السباعي باعتباره ثروة، ومرحلة مهمة من تاريخ الأدب العربي لما راكمه من إنتاجات كما برع إلى حد بعيد، في رسم معالم المجتمع المصري في تلك الحقبة من تاريخ مصر، معتمدا على ما خلفه الأديب يوسف السباعي، لكون الرواية سجلا تاريخيا يعتمد على الإبداع والخيال، وتكون دافعا للقارئ إلى معرفة تلك الحقبة التي تصورها أحداث الرواية ولذلك نجده يسهل على الباحث الوقوف عند الخصائص الفنية والجمالية التي أثث بها أعماله كما نلاحظ إسهابه في الباب الثالث، حيث اعتبره الباحث أهم باب في هذا الكتاب؛ لأنه خصصه لتحليل دقيق لروايات المؤلف، وللقضايا الاجتماعية والسياسية التي تعالجها؛ مصورا لنا يوسف السباعي في أعماله، متابعا وملازما لنبضات قلب المجتمع.

وللشهادة أقول هذا العمل القيم قيمة مضافة إلى المكتبة العربية على وجه العموم، لما يتضمنه من بحث ودراسة، تناولت شخصية أدبية وسياسية كان لها وضعها ومركزها في فترة مهمة من تاريخ مصر.

هذه الأطروحة ليست بالعمل السهل بل أخذت من جهد الباحث ووقته الشيء الكثير وأكيد، فقد لقيت تشجيعا من لدن الأساتذة المشرفين عليها، مما دفع بالباحث إلى التفكير في إخراج

العمل بين دفتي كتاب، ليكون في متناول طالب العلم وكل باحث ومهتم بالأدب العربي، وفي كل ما خلفه يوسف السباعي خلال مسيرته الإبداعية الحافلة بالعطاء، والتي تعتبر في الوقت نفسه سجلا تاريخيا لفترة من فترات بلاد مصر.

والغاية نفسها، أكتب هذا التقديم للعمل، راجية أن أكون قد وفقت إلى إعطاء صورة ولو مبسطة عن هذا العمل. والله ولي التوفيق.

الأستاذة أمنة برواضي
(كاتبة مغربية)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

إن الأدب العربي لا يزال يتعرض للتغييرات والتطورات منذ العقود. وهذه التغيرات تجعله ثريا ومثمرا في العالم الأدبي وتجري في عالم الأدب العربي دراسات وبحوث حول شخصيات بارزة. فليس بأمر جديد أن نختار من مجموعة الأدباء العرب الكرام أحدا فنجري الدراسة حوله. ولكن هذا الأديب يوسف السباعي من الأدباء الكبار الذين لم يجدوا لدى الأوساط الأدبية والنقدية قدر ما يستحق من الاهتمام والتقدير، على الرغم من أن إنتاجه الغزير أخذ بقلوب القراء من أنحاء العالم المختلفة. ويتجلى لي بوضوح، أن الروايات ليوسف السباعي من أفضل المصادر الأدبية التي تستحق دراسات عديدة مستقلة حول مضامينها ومن الجوانب المختلفة.

والكاتب هنا – مع الإيمان الكامل بأن هناك بين الأديب والمجتمع علاقة وثيقة إلى حد أنه لا يمكن للأوّل التواجد بدون الثاني – يقوم بالدراسة في روايات يوسف السباعي عبر المرور بسطورها. وهذه المطاردة أو المتابعة ستخرج من ضمن تلك الأعمال الرائعة جملة كبيرة من القضايا الاجتماعية والقضايا السياسية. والباحث يستمدّ من روايات يوسف السباعي على نطاق واسع ثم يصل إلى ملاحظاته البسيطة حول هذه الشخصية وعالمه الأدبي

الشاسع بناء على وجهة نظره الخالصة والمبنية على أراء النقاد والكتاب السابقة.

ومما لا شك فيه، أن الأدب العربي لم يبلغ القمة إلا لتناوله الوضع الاجتماعي والسياسي في الدول العربية. وبناء على ذلك، لجأ القراء إلى طيات الأدب العربي ليلاحظوا الواقع من خلال سطورها. وقد أصبح تناول العناصر الاجتماعية والسياسية عادة يلتزم بها الأدب عامة والأدب العربي خاصة. فما أجمل تصوير المجتمع المصري في أعمال د. طه حسين ونجيب محفوظ وغيرهم من الأدباء الكبار المصريين. ولا يمكن إبعاد أديب كبير مثل يوسف السباعي من هذه الزمرة الأدبية، لأنه جرّب في حيات نفسه تجريبات اجتماعية وسياسية حيث تولّى الوزارة في بعض الأيام من حياته. وقد قتل أخيرا لسوء الفهم من مواقفه السياسية. وبالإجمال، نحاول هنا لتجلية القضايا الاجتماعية والسياسية التي تتكوّن منها روايات الأديب المصري يوسف السباعي.

يمكننا أن نعرف القضية بأنها شيء من الأشياء التي تحتاج إلى التقضية، وبالتالي تثير صعوبات وتخلق تحديات. والأمر الاجتماعي هو كل شيء له علاقة وثيقة مع المجتمع. والأمر السياسي هو – بالرغم من أنه يندرج تحت الأمور الاجتماعية – إلا أنه تتجلى فيه علاقة متينة بالسياسة. أما القضايا الاجتماعية والسياسية فهي الأشياء أو الظروف أو الصعوبات أو التحديات السائدة في المجتمع أو السياسة على التوالي، نتيجة التفاعل بين أفراد المجتمع.

أما روايات يوسف السباعي، فهي الجزء المحوري لرحلته في عالم الأدب العربي. وقد أنتج هذا الأديب أكثر من خمسة عشر عملا من هذا اللون الإبداعي. وكل منها يعبّر عن جملة وافرة من القضايا الاجتماعية والسياسية الهامة. وهذه محاولة متواضعة بسيطة

لتسليط الضوء على تلك القضايا المهمة عن طريق تحليل أعماله الروائية. وأجري هنا عمليات تحليلية فيما بين سطورها حتى أكشف النقاب عن هذه القضايا بدقة وصحة.

ومن الملاحظ أن هناك عديدا من الدراسات القيمة يتناول جوانب مختلفة من العالم الأدبي للأديب المصري يوسف السباعي. ومن أهمها دراسة معنونة بـ"عالم يوسف السباعي" لعلاء الدين وحيد وهي تتناول حياة يوسف السباعي من البداية إلى النهاية، وتتعرّض فيه روايات السباعي مثل "أرض النفاق" و"البحث عن جسد" و"لست وحدك" و"ليل له آخر" لنقاشات مستقلة من جوانب مختلفة. إن المأساة الفلسطينة تجد مكانا مرموقا في نقاش هذا الكتاب الجاد.

ودراسة الكاتب المشهور غالي شكري بعنوان "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي" وفيها يعلن الكاتب "أن أدب يوسف السباعي في مجمله ظاهرة اجتماعية فمن هنا تنبع الأهمية القصوى في إصدار هذه النماذج بين دفتي كتاب حول أدب يوسف السباعي". وهذا الكتاب مجموعة مقالات لكبار الكتاب مثل طه حسين ونجيب محفوظ وأنيس منصور وغيرهم حول يوسف السباعي وأدبه. فجمعها وحررها الناقد الكبير غالي شكري.

وقد عالج الكاتب د. عبد العزيز شرف إبداع الأديب يوسف السباعي في عمله المعنون بـ "الرؤية الإبداعية في أدب يوسف السباعي" ومن الأعمال التي أولت اهتماما بليغا لمواقف هذا الأديب الكبير كتاب تناول قضية فلسطين على أساس أعمال يوسف السباعي. ومن الدراسات القيمة الأخرى بهذا الصدد، الكتاب الممتاز ليوسف الشاروني وقد عنونه بـ"الروائيون الثلاثة"، يعالج فيه ثلاثة من الروائيين الكبار تفصيلا – هم نجيب محفوظ ويوسف السباعي

ومحمد عبد الحليم عبد الله. وبالرغم من أنه يتناول هؤلاء الثلاثة بشكل جميل وملحوظ إلا أن مساحة الكتاب المقسمة فيما بينهم لا تكفي للإحاطة الشاملة بكل شخص على حدة، فضلا على أن جمع الأدباء الكبار في الصفحات المعدودة يبقى عملا صعبا دائما. وعلاوة على ذلك، لا ينكر إلا جاحد أن الكاتب يوسف الشاروني قد أتقن في تأليف هذا العمل. وقد ساعدنا هذا الكتاب كثيرا على إكمال هذا البحث وهو القائل عن يوسف السباعي"تلك الأحياء الشعبية التي شم (يوسف السباعي) رائحتها وتلمس مذاقها في كثير مما كتبه".

وقد كتب الكاتب الكبير نبيل راغب كتابا معنونا بـ "فن الرواية عند يوسف السباعي". وهو من أبرز الأعمال النقدية التي خصصت صفحاتها لتناول الفن الروائي عند السباعي. ولكن هذا أيضا من الجانب الفني فقط. وهناك دراسة جميلة في الفن الروائي لدى السباعي وهي رسالة ماجستير تم تقديمها إلى جامعة طنطا ولكن لم يحظ بالنشر. ود. طه وادي في كتابه "صورة المرأة في الرواية المعاصرة" يتناول ملاحظات السباعي في شأن المرأة. أما لوسي يعقوب، فيسلّط الضوء على رومانسية أعمال السباعي الأدبية في كتابه بعنوان "يوسف السباعي فارس الرومانيسة". والناقد علاء الدين وحيد ألف كتابا آخر عن الأديب يوسف السباعي بعنوان "يوسف السباعي بين الأيام والليالي" ولكن كتابه "عالم يوسف السباعي" هو أفضل بكثير من السابق، بالنسبة إلى تقديم هذا الأديب الكبير للجمهور.

ونجد فيما بين الكتب التي تتناول يوسف السباعي من جوانب مختلفة كتاب لعماد الدين عيسى بعنوان "يوسف السباعي فلسفة قلم وحياة" وبالرغم من أن هناك دراسات عديدة تتناول جوانب مختلفة لأدب يوسف السباعي، إلا أنها لا تأخذ القضايا الاجتماعية والسياسية التي تتناولها رواياته في الحساب بحيث تقدّم

دراسات قيمة مستقلة فيها. فنتمنى أن تكون دراستنا المتواضعة تقدّم شيئا هاما في ملء هذه الفرجة.

لا يتم أي دراسة عن الأدب العربي أو أدبائه إلا بالتعبير عن عالم الأدب المصري، لأن مصر من أهم الدول العربية التي أصبحت ترابا طيبا لنشأة الأدب العربي وأدبائه. وقد شهدت مصر كثيرا من النهضات الأدبية كما ازدهر تحت رعايتها عالم الأدب العربي الحديث الذي قاده كبار الأدباء والكتاب مثل محود سامي البارودي، وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وتوفيق الحكيم وطه حسين وعباس محود العقاد ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وغيرهم. وهذا الازدهار لم يكن متقطعا بل كان مستمرا إلى الآن. فمصر لا تزال تقدّم جيلا جديدا من الأدباء المقتدرين الذين لهم كفاءة كاملة في الأدب مثل علاء الأسواني ورضوى عاشور وغيرهما. وأما نحن في هذه الدراسة المتواضعة فنأخذ من هذه الثقافة العريقة والثرية شخصية بارزة، احتلت مكانا مرموقا في أوساط الأدب العربي وتناولت قضايا المجتمع العالمي وتحدثت في الأعمال عن مشاكل المجتمع وتحدياته – ألا هي الأديب المصري يوسف السباعي. ونتصفح في صفحات رواياته المهمة ونحاول أن نقف على القضايا الاجتماعية والسياسية التي هي ذاتها تكوّن تلك الروايات.

تتكون هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة أبواب تندرج تحتها فصول ومباحث. وهي كما يلي:

- الباب الأول : يوسف السباعي: رحلته الشخصية والأدبية
- الباب الثاني : روايات يوسف السباعي: خصائصها الأدبية والفنية

- الباب الثالث : القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي

أما الباب الأول فهو يساعدنا على التعرف الكامل على هذا الأديب المصري. ومن الملحوظ أن لهذا الأديب عالما واسعا يستحق الدراسة والتحقيق. وتطرّقنا إلى حياته العلمية والعملية يثير فينا رغبة وشوقا إلى قراءة أعماله الفنية والأدبية وإلى اطلاع على مواقفه الاجتماعية والسياسية. وفي الجزء الثاني من هذا الباب، نقدّم نظرة موجزة عن أعمال يوسف السباعي ليقف القراء على العالم الفني لهذا الأديب المشهور. وفي الفصل الاوّل المعنون "يوسف السباعي منذ البداية إلى النهاية" يتم تقديم شخصية يوسف السباعي بالإيجاز بداية من ولادته ونهاية في اغتياله المؤسف. أما التركيز في الفصل الثاني فهو على نشأته أديبا حيث يمكننا التجوال في عالمه الإبداعي الرائع. وعنون هذا الفصل بـ"نشأة يوسف السباعي أديبا". والفصل الثالث هو الأخير من فصول هذا الباب يتمحور حول أعمال الرئاسة وأشغالها ليوسف السباعي ونتمتع بذكريات أعماله السامية في المناصب المختلفة وأما العنوان فنقرأه "الوجود العملي ليوسف السباعي".

وفي الباب الثاني، نتقدم إلى العالم الروائي ليوسف السباعي بحيث نحاول فيه للكشف عن خصائص رواياته المهمة وبالتركيز الخاص على خصائصها الفنية والأدبية. ومن خلال هذه المحاولة، يتم تقدير أعماله الروائية، وبالتالي، يسهل للقراء أن ينتبهوا إلى العناصر الفنية التي تتكون منها تلك الروايات. وهذا لا يعني أبدا أن تعليقات الباحث تنحصر في مدح يوسف السباعي، بل بالعكس تنعكس نقدا شاملا للإيجابيات والسلبيات معا. والفصل الأول من هذا الباب يقدم نظرة بسيطة حول روايات يوسف السباعي المهمة تحت عنوان "أهم روايات يوسف السباعي بالإيجاز". ويهتم الباحث

في الفصل التالي المعنون بـ"خصائص روايات يوسف السباعي الأدبية والفنية" اهتماما بالغا بالسمات الرئيسية لروايات السباعي. والفصل الثالث من هذا الباب مخصص للملاحظات النقدية من قبل الأدباء والنقاد حول أدب يوسف السباعي. وتلك الملاحظات - بدون أية محالة – تعبئ في قلوبنا قوة وثقة لتناول أعمال السباعي الروائية. وعنوننا هذا الفصل بـ"النقاد عن أدب يوسف السباعي"

ومعظم أعماله الروائية يتسم بكثافة المعاني ورونق المعمار وسعة الخيال وجذابة التصوير ورومانطيقية الأفكار وتزيين حبكة القصة بالأشعار. وعلى الرغم من هذه الصفات المميزة لتلك الروايات، إلا أن كاتبها لم يحقق النجاح المرجوّ في توظيف التقنيات الحديثة مثل الاسترجاع. وعلاوة على ذلك، أن الأحداث في بعض رواياته تسير عادة كما يتوقع القارئ بدون لحظات المفاجأة والمصادفة فيها وهذه طبعا تشين في جدارتها وجذابتها.

والباب الثالث هو الجوهر الرئيسي لهذه الدراسة، لأننا نحلّل فيه رواياته المهمة وبالتالي نتصوّر القضايا الاجتماعية والسياسية التي تعالجها هذه الروايات ثم نرسمها في سطور هذا الباب. ونتضح من سطور هذه الروايات، نقد الروائي عالم النفاق والتقاليد الاجتماعية التي تخلق مشاكل وصعوبات في مضي المجتمع قدما. ويتجلى لنا أن يوسف السباعي كان يلازم ويتابع نبضات المجتمع وذبذباته طول حياته وهو الذي في الواقع أصبح ذخرا لكتاباته الجميلة.

يتناول الفصل الأول من هذا الباب أهمية مجتمع السباعي في روايته. وهذا يدلّ بصراحة على تأثير مجتمعه الذي عاشه وعاش فيه على أعماله الروائية والعنوان لهذا الفصل "مكانة مجتمع يوسف السباعي في رواياته". ثم نتطرّق إلى عالم روايات السباعي مرّة أخرى

ليس لنفس الهدف الذي كان نستهدفه في الباب الأخير بل لإمعان النظر إليها من جانب معالجتها القضايا الاجتماعية والسياسية تحت العنوان "القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي" والتركيزفي الفصل الثالث يقع على القضايا الاجتماعية في رواياته تحت عنوان "القضايا الاجتماعية في رواياته" وهذا الفصل يسلط الضوء على أهمّ القضايا الاجتماعية التي تندمج في سطور رواياته. والفصل الأخير من هذا الباب الأخير يتميز بتناوله القضايا السياسية المهمّة التي تم تقديمها فنيا وأدبيا في روايات السباعي الرائعة والعنوان نقرأه "القضايا السياسية في روايات السباعي".

وفي الخاتمة، يقدّم الباحث نتائج البحث باختصار وإيجاز. وتشتمل الخاتمة على ملاحظات الباحث وتعليقاته التي تصورت في ذهنه خلال قراءة روايات يوسف السباعي وتحليلها. والاستنتاجات التي وصلنا إليها عبر هذه الدراسة نرجو أن تساعد الباحثين والدارسين الذين يريدون معرفة المزيد من الطرق والآفاق لهذا الأديب الكبير. ونرجو أن تمهّد دراستنا دربا للذين يتابعون الدراسة عن عالم يوسف السباعي الأدبي. وهذه الدراسة تضيف إلى قالبها المصادر والمراجع التي تقدّم التوجيهات للباحثين والقراء على السواء.

د. محمد رياض بن حمزة. ك
(أستاذ مساعد ورئيس قسم اللغة العربية،
كلية ام. اي. يس، كي. وي. يم. بـ ولانجيري، كيرالا- الهند)

الباب الأوّل

يوسف السباعي: رحلته الشخصية والأدبية

هذا الباب يساعدنا على التعرف الكامل على الأديب المصري الكبير يوسف السباعي. ومن الملحوظ أن لهذا الأديب عالما واسعا يستحق الدراسة والتحقيق. وتطرّقنا إلى حياته العلمية والعملية وهو يثير فينا رغبة وشوقا إلى قراءة أعماله الفنية والأدبية وإلى الاطلاع على مواقفه الاجتماعية والسياسية. وفي الجزء الثاني من هذا الباب، يقدّم الباحث نظرة موجزة عن أعمال يوسف السباعي ليقف القراء على العالم الفني لهذا الأديب المشهور. ولم يكن يوسف السباعي أديبا متميزا فحسب بل كان سياسيا حاذقا على درجة عالية من الذكاء والحنكة والرؤية.

وكان السباعي شخصية ممتازة ذات بنية رائعة خاصة تطلب مجهودا كبيرا للإلمام بجميع مناحي حياتها. وكان يوسف السباعي الأديب دائم الابتسامة كما كان يقول دوما في ترحيب بأحد "أهلا ... أهلا". وكان ملتزما بصفتي التسامح والتواضع في حياته فأصبح محبوبا حتى لدى أعدائه ونتمنى أن يلقي هذا الباب الضوء على حياة حافلة لواحد من أهم الأدباء المصريين. وهو القائل في كتابه المعنون بـ"أيام من عمري" "الأديب مواطن قبل كل شيء، وانفعالاته من انفعالات مواطنيه ... ومشاعره من مشاعرهم ... بل هو بحكم موهبته أشد الناس حساسية، وأكثرهم انفعالا."[١]

نقدم هنا رحلة السباعي الشخصية منذ ولادته إلى اغتياله

١ علاء الدين وحيد، عالم يوسف السباعي، ص 335

المأساوي بالإيجاز. ثم نضع التركيز على نشأتها الأدبية السامية ونتعرّف عن طريق هذا التركيز على عالمه الإبداعي الواسع بما فيه رواياته وقصصه ومقالاته وغيرها من مبادراته الأدبية. ونتناول في الجزء الأخير من هذا الباب كيانه العملي الذي برز من خلال المناصب العالية التي تولاها في حياته الحافلة بالأعمال القيمة.

أما عالم إنتاجه الفني فهو يتمتع باثنين وعشرين مجموعة قصصية، وستة عشر رواية، وأربع مسرحيات وثماني مجموعات من المقالات في النقد والاجتماع، وكتاب في أدب الرحلة بالإضافة إلى ما كتبه في الصحف والمجلات من المقالات. ومن هذه الخزانة الأدبية ليوسف السباعي مجموعاته القصصية مثل "يا أمة ضحكت" و"بين أبو الريش وجنينة ناميش" و"الشيخ زعرب وآخرون". فمهما علا شأن الأديب يوسف السباعي، لم يتمكن أبدا أن ينسى طفولته والبيئة التي قضاها فيها وما شاهد وعاني من الفقر والعوز في الفترة التي فقده والده مخلفا إياه بدود أي مصدر ملحوظ للدخل. فأعماله بالرغم من أنها متعددة الجوانب ومختلفة الأنواع، تعكس جميع هذه الظواهر المذكورة.

وقد عمل يوسف السباعي على أساس فلسفته في الحياة – هي "لا يغلبن جهل الناس بك علمك بنفسك". وجعل شعاره فيما يكتب الحديث الشريف "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" – قد أعرب عن هذا الشعار في إحدى مقابلاته. وهناك جملة من الأعمال تناولت يوسف السباعي وأدبه ومن أهمها ثلاث مقالات للناقد الكبير علاء الدين وحيد، أولاها تعالج مسرحيته "أقوى من الزمن" والثانية تتناول المأساة الفلسطينية بين رويتي "طريق العودة" و"ابتسامة على شفتيه". أما الثالثة فهي معنونة بـ الكون والإنسان واكتشاف الفضاء في رواية "لست وحدك". فلم يخطأ الدكتور مندور عندما لاحظ أن يوسف السباعي "لا يقبع

في برج عاجي بل ينزل إلى السوق ويضرب في الأزقة والدروب". وهذا صحيح تماما كما يدل عليه أدبه الغزير. ومن فلسفات الأديب يوسف السباعي ما قاله في عمله نائب عزرائيل "فإني أكره الانتقاد ... لأننا كثيرا ما ننتقد الناس مر الانتقاد فلا تكاد الظروف تضعنا في مواضعهم حتى تصبح شرا منهم ونفعل شرا مما فعلوا". يجب أن نفكر عن أنفسنا قبل أن نتقدم بالنقد على أحد - ماذا يكون مصيرنا لو وضعنا في مكانه. فنهم أن ليس بخير أن ننتقد أحدا. ولا نجده في أعماله ينقد فردا خاصا، بل بدلا من ذلك ينقد نقدا عاما يمكن تطبيقه على طبقات مختلفة من المجتمع مثل الحكام والوزراء والزعماء والكتاب والأدب والشيوخ.

الفصل الأوّل:

يوسف السباعي: منذ البداية إلى النهاية

إن الفقرات التالية تحت هذا العنوان محاولة بسيطة وجيزة لتقديم الأديب يوسف السباعي بالإيجاز عن طريق السير السطحي على سيرته المكتظة منذ الولادة إلى النهاية.

ولد الأديب المصري يوسف محمد محمد عبد الوهاب السباعي، الذي تتراوح فترة نتاجه الفني المهم بين أربعينات وسبعينات من القرن العشرين، بحارة الروم بحي الدرب الأحمر بالقاهرة في ١٠ يونيو ١٩١٧ ونشأ في الطبقة المتوسطة وكان أبوه الأديب محمد السباعي أحد رواد النهضة الحديثة في مصر. وهذه الخلفية العلمية الأدبية أثرت في شخصيته بحيث ظهرت موهبته الأدبية في مرحلة مبكرة من حياته٢ وتخرج من الكلية الحربية في عام ١٩٣٧ ضابطا في الجيش المصري ثم أصبح مدرسا لمادة التاريخ العسكري في الكلية الحربية عام ١٩٤٢ وقد تزوج يوسف السباعي دولت طه السباعي – ابنة عمه – بعد قصة حب طويلة بدأت في طفولتهم وكان يسميها بـ"مخضوضة هانم" لخوفها الشديد عليه. وجمع يوسف السباعي ما بين عالم الأدب والحياة العسكرية ويرجع الفضل في إنشاء سلاح المدرعات إلى هذا الأديب الجندي الكبير.

وبعد ذلك بدأ يتولى مناصب عالية متعددة مثل منصب

---

٢ علاء الدين وحيد، عالم يوسف السباعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٩٧٩١ ص١٠.

سكرتير عام المحكمة العليا للفنون والسكرتير العام لمؤتمر ١٩٥٩ الوحدة الآفروآسيوية وفي عام ١٩٦٦ عين عضوا متفرغا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وزير وقد ترأس إدارة دار الهلال ومن أهم المناصب التي تولاها في نهاية حياته وزارة الإعلام في الفترة من ١٨ أغسطس ١٩٧٥ إلى ٢٧ أكتوبر ١٩٧٥ تحت رئاسة أنور السادات وحصل خلال هذه المدة جوائز وأوسمة مختلفة مثل جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٧٣ ولكنه لم يستلمها بوصفه وزيرا للثقافة في ذلك الحين وحصل على وسام الاستحقاق الإيطالي من طبقة فارس وقد حاز جائزة لينين للسلام عام ١٩٧٠.

ومسيرته عبر المناصب العالية في الوزارات والمؤسسات الثقافية استمرت إلى نهاية حياته. فتولى تارة رئاسة مؤسسة الأهرام وأصبح مرة نقيب الصحفيين وكان رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال في عام ١٩٧١م. ومن أهم المجلات التي ترأس تحريرها "الرسالة الجديدة" و"آخر ساعة" و"المصور". كان متعدد الجوانب حتى في المجال الأدبي بحيث اتسمت كتاباته بأحد الاتجاهات الأدبية من الرومانسية والواقعية والكوميديا، والفانتازيا. وقد تم عرض سيرته الذاتية عبر مسلسل تلفزيوني بعنوان "فارس الرومانسية" وهو من إنتاجات الدكتورة أميرة أبو الفتوح.

وكثير من أعماله الأدبية تحولت إلى أفلام مصرية مثل "رد قلبي" و"جميلة الجزائرية" و"أرض النفاق" و"بين الأطلال" و"إني راحلة". ولا بد أن نتذكر أن يوسف السباعي لم يندرج في ألعاب السياسة الملتوية وبذل قصارى جهده أن يخدم الثقافة وأن يسمو بالعقل والنفس الإنسانية التي تفيد الأمة فترة توليه المناصب العالية في الوزارات والمؤسسات كما مهّد دربا لنشر "ثلاثيات" لنجيب محفوظ.

أما هذه الحياة اللامعة فهي بلغت نهايتها في نيقوسيا عاصمة قبرص حيث اغتاله فيها رجلان فلسطينيان بثلاثة رصاصات حين كان يحضر مؤتمرا آسيويا أفريقيا في ١٨ فبراير ١٩٧٨ لتأييده مبادرة أنور السادات في عقد السلام مع إسرائيل وكان على رأس وفد مصري للمشاركة في مؤتمر التضامن الأفروآسيوي السادس الذي كان تعقده منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية وكان أمينا عاما للمنظمة منذ تأسسها ولم تكن بلاد قبرص ذات إمكانات كافية لعقد مثل هذا المؤتمر الدولي.

وبينما كان يقف أمام كشك صغير لبيع الصحف، أطلق مسلحان فلسطينيان الرصاص عليه وكان المسلحون الفلسطينيون يتربصون له منذ زيارته للقدس مع الرئيس السادات. وهما كانا ينتميان إلى منظمة أبو نضال الفلسطينية وهي حركة منشقة عن منظمة فتح وكان ذلك للانتقام من تأييده للتطبيع مع الكيان الصهيوني. قد واجه نقله من قبرص مشاكل كبيرة حتى اضطر أنور سادات أن يرسل طائرة حربية تتوفر فيها معدات عسكرية مع فرقة صاعقة لتحرير الرهائن والقبض على المجرمين ومن أهم التعليمات التي قدمها الرئيس المصري السابق السادات إجراء الرد بالعنف على مقتل يوسف السباعي. وعندما انطلق أفراد الصاعقة المصرية تجاه طائرة الجناة، وأطلقوا النار في كل الاتجاهات، أعطى الرئيس القبرصي تعليماته لقوات حرسه بالرد عليهم حتى حدثت المعركة بينهما وقتل فيها ١٥ جندي مصري وأصيب ٨٠ من الطرفين. ثم هدأت المعركة خرج الجناة من الطائرة مستسلمين. ونتيجة لذلك، أنهت مصر العلاقات الثنائية مع قبرص.

ويوسف السباعي هو القائل خلال حديثه مع الموت "بيني وبين الموت خطوة سأخطوها إليه أو سيخطوها إلي ... فما أظن جسدي الواهن بقادر على أن يخطو إليه ... أيها الموت العزيز اقترب

... فقد طالت إليك لهفتي وطال إليك اشتياقي " ونجد يوسف السباعي يحاور الموت مرات عديدة عبر أعماله الأدبية. والواقع أنه كان جاهزا للترحيب بمصيره أو لقبول موته قلبا وقالبا حيث عبر عن استعداده لذلك في نهاية إهداء رواية "نائب عزرائيل" فقال "وإنني يا سيدي في انتظار اللقاء ... إما على صفحات كتاب آخر أو في السماء ... ما بي من خشية ولا رهبة فالحياة عندي والموت سواء! ..."[٣] ورحل يوسف السباعي إلى عالم جديد، مخلّفا وراءه عددا كبيرا من الأعمال الأدبية بما فيها المقالات والقصص والروايات والمسرحيات.

ومن الأفكار الرئيسية التي حاول الكاتب أن تسلط الضوء عليها في أعماله الروائية أن الموت لا يحب من يفهمه ويكره من يدركه حتى ينتقم ممن لا يخشاه. وكان يوسف السباعي نفسه ممن لا يخاف الموت وهو لم يحب الحراسة والجنود حوله بالرغم من أنه شغل مناصب عالية في مجالات السياسة والثقافة. وقد تم تعيينه في عام ١٩٥٢م مديرا للمتحف الحربي وتدرج في المناصب حتى وصل إلى رتبة عميد وفضلا عن ذلك كله، كان دائم التبسم والحب للجميع ولكن الموت لم يهمله بل قبض عليه ولم يمهله بل سارع إليه بأنياب لا ترحم وقلب لا يشفق. فتعليق من التعليقات على نهايته المأساوية يبدو صادقا مائة في المائة حيث تقرأ "برصاصة غادرة، أطفأت يا موت وإلى ألأبد ... ابتسامة يوسف السباعي! لكنه لم يكن يخشاك أو يخافك ... أو يهابك" وبدأ يعد من ذلك اليوم شهيدا من شهداء السياسة والثقافة والوطنية والقومية والنظرية والسلامة.

ولسوء الحظ، يهطل هذا الاستشهاد على قلوبنا أمطار الحزن والألم، لأن هذه الشخصية البارزة لم تُضِع لحظة بدون الدفاع عن قضية قاتليه – هي قضية فلسطين. فكان ينادي في جميع المحافل الدولية بحرية بلاد فلسطين، مؤمنا بأنها قضية

---

٣ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٥

كل مواطن عربي. ولكن لقي السباعي حتفه برصاص فلسطيني عربي ظالم، لجهالة القتلة أنه يجب أن يكون كفاحهم الحقيقي في داخل إسرائيل ذاتها وأن يكون رصاصهم موجها إلى العدو اللدود الحقيقي. وكيف لا نستغرب ولا نتألم إذا لقي هذه النهاية المأساوية العظمى شخص عظيم مخلص وهو القائل في شأن فلسطين وأهلها "لقد سلبتم أرضنا بالقوة، ولن تعيدها إلينا إلا القوة. إن الحرب عملية سخيفة، ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولا إبادتك فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه وتحرير أرضك واسترداد حقك"[٤] وهو لا يفضل الحرب أبدا بل في شأن فلسطين هي الطريقة الوحيدة لتحريرها.

وعالم إنتاجه الفني يتمتع باثنين وعشرين مجموعة قصصية، وستة عشر رواية، وأربع مسرحيات، وثماني مجموعات من المقالات في النقد والاجتماع، وكتاب في أدب الرحلة بالإضافة إلى ما كتبه في الصحف والمجلات من المقالات. ومن هذه الخزانة لهذا الأديب الاجتماعي نتذكر في هذه السطور المحدودة رواياته "نائب عزرائيل" و"أرض النفاق" و"إني راحلة" و"السقا مات" ومجموعاته القصصية "يا أمة ضحكت" و"بين أبو الريش وجنينة ناميش" و"الشيخ زعرب وآخرون". ولا ننسى في هذا الصدد تعليق الدكتور محمد مندور خلال كلامه عن الرواية "السقا مات" أن يوسف السباعي أديب من أدباء الحياة بل من أدباء السوق التي تعج بالحياة والأحياء وتزدحم بالأشخاص والمهن. ولا نجد نقصا ولا عيبا فيما ناداه الروائي نجيب محفوظ من "جبرتي العصر" حيث تضمنت أعمالها الأدبية أحداث الثورة منذ اندلاعها حتى بشائر النصر في حرب أكتوبر. وقد انتهى المسرحي المصري توفيق الحكيم إلى نتيجة أن أسلوب السباعي سهل عذب باسم ساخروكان يوسف

٤ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، مكتبة مصر، القاهرة، ص ٥

السباعي تواقا لقراءة والمطالعة منذ حديث سنه وكان يقدر الوقت قائلا "لا تضق هما بأمس وغد ... أمس ولى وغد لم يولد ... ويلتا إن ضاع يومي من يدي".

ونلخص شخصية يوسف السباعي البارزة مقتبسا بعض العبارات من المقالة المعنونة بـ"يوسف السباعي ... فارس الرومانسية على الشاشة الفضية" أن الكاتب الراحل يوسف السباعي "نبض الثورة وقلمها الرسمي سينما وكتابة وأدبا وفكرا وحارسها الأمين شهيد فلسطين الذي استشهد فوق ساحة الحب دفاعا عن الحق الفلسطيني المفقود والحق العربي الضائع في يوم المولد النبوي الشريف بساحة الفندق بقبرص بعد زيارة الرئيس محمد أنور السادات للقدس". فكانت شخصيته شاملة ولامعة لدى الجمهور والقراء على نطاق واسع.

ولم يكن السباعي يثير المعارك بين زملائه بل بالعكس كان يفضل السلام ويدافع عنه ومرة في أحد اجتماعات اتحاد الكتاب العرب طلب أحد المندوبين عزل يوسف السباعي. ولم يلبث أن يسمع السباعي هذا حتى تقدم باستقالته وانسحب إلى غرفته. وعلى الفور حضر إليه جملة من المندوبين وأشعروه بأن ذلك العضو تم فصله من الحزب. وطالبوه بالعودة إلى الاجتماع فرجع السباعي معهم إلى الاجتماع. وكان من عادة السباعي أن يعرض فلسفته للحياة وأفكاره عن الإنسان خلال أعماله المختلفة وهو القائل "أشياء كثيرة يمكن أن تستقر واضحة في نفوسنا ... ولكنها تتعثر عندما تحاول أن تجد طريقها إلى الشفاه"[٥] وهذه الفكرة يمكن تطبيقها على جميع أنواع الإنسان. وإلى جانب ذلك، يقوم يوسف السباعي بتشخيص التركيبة الإنسانية وهي دقيقة وبسيطة. وهذا التشخيص ليس بعلمي وتقنيتي بل هو ملاحظة اجتماعية سيكولوجية دقيقة ويتحدث

٥ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٥٦

القاص عن شخصية عبد اللطيف "فقد كان أعلم بالتركيب المعقد للإنسان. أعلم بخليط الحب والكره والطيبة والحقد والسذاجة والمكر الذي يشكل التركيبة الإنسانية وكان يعتقد أن لكل إنسان في تركيبه المعنوي أو الخلقي وجها وظهرا كما أن لشكله وجها وظهرا، وأن عليه عندما يتعامل مع الناس أن يواجه ما أمكن وجوههم المعنوية ويتجنب ما أمكن أقفيتهم الخلقية، لكي يلقى منهم أطيب ما فيهم ويكون أقدر على حبهم"[٦]

٦ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ١٦

الفصل الثاني:
نشأة يوسف السباعي أديبا

ومما لا شك فيه أن كل أديب من الأدباء يتأثر كثيرا بالبيئة التي ينشأ ويترعرع فيها، فأديبنا المصري يوسف السباعي لا يختلف كثيرا من الآخرين في هذا الجانب – جانب التكوين الأدبي، إضافة إلى موهبته الطبيعية. وكانت شخصيته تتكوّن عبر اطلاعه على شخصية أبيه – الأديب الكبير محمد السباعي، حيث تناول منه كل شيء من العلم والعمل والأدب والعادة وشغف بقراءة أبيه الفاضل بحيث أصبحت شخصية أبيه في داخل يوسف السباعي – على حد تعبير نفسه – الرصيد المعبأ الذي ساعده على إخراج ذخيرته الحقيقية للإنتاج الأدبي. فنجد والده محمد السباعي أول كاتب أثر عليه، وهذا التأثير جلي في محاولاته الأولى من ناحية اللغة المنمقة التي لا تطابق طبيعته، ومن ناحية الأسلوب في التزامه بالسخرية والفكاهة.

وفقدانه لوالده وهو في الرابعة عشرة من عمره ترك بصمات الشجاعة والقوة على شخصيته بحيث واجه شبح الموت في باكورة سنّه. وكان من الطبيعي أن تكون هذه التجربة المريرة تترك بصماتها على أعمال يوسف السباعي لدرجة أنه رسم مناقب أبيه ومحامده أكثر من مرة ضمن شخصياته الروائية. فعلى سبيل المثال في رواية في رواية "نحن لا نزرع الشوك" وفوق ذلك كله، كان يوسف السباعي مولعا بمطالعة الأدب الغربي فقرأ شكسبير وتشيكوف وأناتول فرانس وتولستوي وغيرهم من الأدباء الغربيين. وهو القائل

كنت أحب أبي وآراءه بإعجاب، وانعكس هذا بدوره على ولعي بالأدب عامة. وتأثره العميق بأبيه واضح في رواياته مثل "السقا مات" و"نحن لا نزرع الشوك" و"نائب عزرائيل". وإلى جانب ذلك، صرح الكاتب نفسه هذه الصلة الوثيقة النفسية بينه وبين أبيه الفاضل حيث قال "كان لموت أبي تأثير لا حدود له علي وأنا الصبي، ابن الرابعة عشر. كانت هذه أول مرة أرى فيها الموت! وما زلت رغم السنين أذكر الصورة جيدا".

ومع ذلك، ازداد عشقه للأدب العربي، فواظب على قراءة نصوص الأدب العربي بما فيه كتاب "كليلة ودمنة" وعدد كبير من القصائد للشعراء العرب والقصص الشعبية المشهورة مثل ألف ليلة وليلة وكان من جملة ما قرأ بهمة قصائد أمير الشعراء أحمد شوقي ومسرحياته. ولم يبخل في قراءة الآثار الأدبية للدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد ومحمد حسين هيكل وغيرهم من أدباء العرب الكبار. ومما قرأ، اصطفى الأديب يوسف السباعي الأسلوب الساذج لتوفيق الحكيم فقدّر أسلوب الأخير بتعليله لاختيار أسلوبه بسهولة أسلوبه وخفة دمه وذكائه وعمق تفكيره وسعة أفقه.

والجدير بالذكر هنا أن بيئة يوسف السباعي الواسعة التي نشأ فيها قد أثرت في كتابته إلى حد كبير حيث استمد منها جوّ كثير من رواياته وقصصه فجولته مع عائلته من حارة الروم بالقاهرة – مسقط رأسه – إلى حي السيدة زينب جهزت المواد لأعماله الروائية والقصصية كما لاحظ الكاتب يوسف الشاروني في كتابه "الروائيون الثلاثة" فقال "تلك الأحياء الشعبية التي شم (يوسف السباعي) رائحتها وتلمس مذاقها في كثير مما كتبه"[٧]

وفي نفس الوقت لا تختلف نشأة الأديب يوسف السباعي

٧ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٧

من نشأة أي أديب آخر، لأن الآثار الأدبية للأدباء لم ترنورا إلا بعد ما نالوا الكفاءة والنضج عبر قراءتهم الواسعة. وقد بدأ يوسف السباعي محاولة الكتابة على هذا المنوال المذكور أعلاه. وكانت محاولاته الأولى والابتدائية محاولات شعرية وزجلية وقصصية. واحتلت هذه المحاولات فسحات المجلات التي كان يحررها ويرسمها ويجلدها. ثم قويت موهبته الكتابية تدريجيا وخطوة بعد خطوة. وفي مدرسة شبرا برقت موهبته وتبلورت وهو الذي كتب نشيد هذه المدرسة.

ومن هذا النطاق المدرسي انتقل إلى النطاق الصحفي الممتاز، بغض النظر عن كونه في سن مبكرة. وإذا أمعنا النظر في رحلة يوسف السباعي الشخصية والأدبية لا نتعجب في تلقي أكبر المجلات الأدبية الموجودة حينذاك مثل "مجلتي" محاولاته الأدبية للنشر فيها وهو في السابعة عشرة من عمره. وشرعت أعماله تنشر في مجلات مثل "مجلتي" لأحمد الصاوي ومحمود كامل و"المجلة" لسلامة موسى و"جماعة أبولو" لأحمد زكي أبو شادي و"السياسة الأسبوعية" لمحمد حسين هيكل. بينما كانت أعمال نجيب محفوظ تصدر بغزارة حتى منتصف الخمسينيات، كانت أعمال الأديب المصري الآخر يوسف السباعي الأعلى توزيعا، وذلك إلى جانب تحويلها مباشرة إلى أفلام تعد أكثر أهمية من رواياته نفسها. ومما يعجبنا كثيرا التنوع الذي يمتلكه يوسف السباعي. وإلى جانب أن أدبه الثري يتضمن القصص والروايات والمسرحيات والمقالات وغيرها من أنواع الأدب الفني، يسع عالمه الأدبي للروايات التي تسلط الضوء على ما يمتلك الكاتب من خفة الدم ورشاقة القلم مثل رواية "أرض النفاق" ورواية "إني راحلة" وللروايات التي يمكن أن توصف بروايات مأساوية مثل "نحن لا نزرع الشوك" و"السقا مات" التي تتناول آلام الطبقات المختلفة من المجتمع المصري.

أما آثاره الأدبية فبدأت تتألق في عديد من الدول العالمية. وذاع صيته كاتبا وضابطا ووزيرا في وقت واحد فأصبح من قلائل الأدباء الذين تحلوا بمزايا أو مناصب مختلفة تماما في آن واحد. وبالرغم من تجاربه القوية في الجيش المصري إلا أنه كان صاحب قلب سليم رقيق ولذا أصبح قادرا على إنتاج الأعمال الاجتماعية والأدبية القيمة. وقد تحولت أعماله المهمة إلى الإطار السينمائي الذي نال من الجمهور قبولا حسنا وحفاوة بالغة. ولعب فيها عديد من النجوم المتميزين دورا كبيرا.

ومما تنبغي الإشارة إليه هنا، أن الكتابة كانت – بالنسبة إلى الأديب يوسف السباعي – عملية الحبس والاعتكاف كما لاحظ هو نفسه في بعض مقدمات رواياته. فإذا بدأ كتابة عمل يحاول قدر الإمكان أن يعتكف عليه بشكل منتظم حتى يخرج في النهاية متماسكا ومتناسقا وربما بسرعة عجيبة تسبب بعض الأخطاء اللغوية. وهو يتمتع بالمشاكل والمشاغل الشاقة وقت كتابته ولا يفضل الرفاهة ولا الاستراحة في ذلك الحين وهو يقدم إلينا روتينيات كتابته في مقدمة روايته "بين الأطلال" بعد تحدث عن الكاتب الكبير الأستاذ بديع خيري "ويبدو لي أني من نوع الأستاذ بديع ... أعني كاتب غير مرفّه ... لا أحتاج قط إلى نسيم عليل وماء سلسبيل ... فأنا عندما أبدأ الكتابة أصبح كالمحكوم عليه بالكتابة مع الأشغال الشاقة ... فأنا آخذ نفسي بغير رفق ولا هوادة ولا راحة ... بل أحبس نفسي في حجرة ... وأظل أكتب، وأكتب بلا توقف ... كأني أخشى أن تفر مني القصة، ويدخلني إحساس بأني لو لم أكتب القصة في نفس واحد، وكتبتها على فترات أعطي نفسي في خلالها الراحة الكافية لخرجت القصة غير متماسكة ولا متناسقة ... بل مرقعة مهلهلة"[٨]

وقد تحدّثَ يوسف السباعي عن الفلسفة التي كان يطبقها

٨ يوسف السباعي، بين الأطلال، ص ٨

على عالمه الإبداعي وتلك الفلسفة مبنية على الحديث الشريف "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" ومن الطبيعي أن تتبلور ملامح تلك الفلسفة في تحركات أعماله الروائية وتطوراتها من حين إلى حين. وهنا في رواية ابتسامة على شفتيه نرى القاص يتقدم ببيان فلسفته مع العرض الصريح لأهميتها قائلا "وهو من وجهة نظره على حق. وإيمانه بالحديث الشريف الذي لا يفتأ يردده: <إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه> يحتم عليه أن يتقن عمل التجارة. لأن هذا هو عمله. فهو لم يفلح حتى الآن في أداء غيره."[٩]

وكان الكاتب يوسف السباعي يتابع – كما هو الواجب على جميع الكتاب والأدباء – المجتمع وما يتعرض له من المستجدات والتطورات حتى الثورات فيه. ولهذا قويت قوته لتلقي الأشياء ودراستها وملاحظتها من عمقها. وهو يستنتج من تجاربه مع الأشخاص في المجتمع أن فرط التباين والتناقض بين الاثنين من المجتمع قد يجعل العلاقة بينهما متينة والصلة بينهما وثيقة وهذا ما نرى بين عبد الراضي والأستاذ عبد اللطيف هما شخصيتان محوريتان في رواية "لست وحدك" والروائي يتحدث عن العلاقة بينهما "وتوثقت أواصر الصلة بين الاثنين على فرط التباين والتناقض بينهما حتى لم يعد لأحدهما غنى عن الآخر. وبات الأستاذ يشعر بأن شيئا ينقصه في غياب عبد الراضي، وأصبح عبد الراضي لا يكاد يتصور كيف يكون العمل في المجلة بغير وجود الأستاذ عبد اللطيف؟"[١٠] يعني أن أواصر الصلة لا تتوثق ولا تتجذر بمجرد مضيها إلى الأمام دون أية مشاجرة وملاطمة بل تحتاج لتوثيقها وتمتينها إلى بعض المواجهات والمعارضات. هذه هي الحياة بكل ما فيها من المعارضات والاعتراضات والشجارات ثم المسالمات والتسلية والتصفية. ومن الفلسفات

٩ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٤٠.

١٠ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٤٢

الهامة التي يتقدم بها الأديب يوسف السباعي "أن معظم سمات الشر في البشر هي مظهر طبعي لصراع من أجل الوجود والتطور. إنها نتيجة حتمية لحب البقاء ورغبة التكاثر ولهفة الطموح التي لا بد منها لاستمرار الحياة وتقدمها"[١١] ويتجلى في هذه الكلمات أهم صفات الإنسان السلبية التي لا يتخلى منها أحد.

ويمكن أن نلامس مشاعر السباعي والتزامه الاجتماعي من خلال قراءة أعماله الأدبية. ويبدو من ذلك أنه يقف دائما مع المحتاجين من المساكين والفقراء والمظلومين والمنبوذين ويشعر بأحزانهم وآلامهم ويحاول أن يلبي باحتياجاتهم قدر الإمكان. فصفحات أعماله الأدبية مكثفة بالأفكار والتساؤلات والفلسفات التي ترتبط القضية الاجتماعية الخالصة كما يتحدث على لسان عبد الراضي في الصفحات الأخيرة من رواية "لست وحدك" "يجب أن نعود إلى الأرض لعلنا نستطيع أن نفعل شيئا ... أي شيء من أجل ملايين التعساء الذين يقاسون من الجوع والمرض، والخوف على ظهر الأرض، في وقت نجح فيه الأنسان في الانطلاق إلى الفضاء والوصول إلى القمر"[١٢] وهذه فكرة نبيلة إنسانية عالمية. وفيها نقد اجتماعي حول التطورات والثورات الصناعية التي لا تخلف شيئا مفيدا للإنسان الأصلي.

كتاباته القصصية

وقد وجدنا أن معظم الأدباء في هذه الفترة كانوا متعدد المواهب ولم يحدّدوا محاولاتهم الفنية ضمن فن واحد بل جرّبوا جميع الإمكانات كما نرى ذلك في شأن الأديب الكبير يوسف السباعي فقد جرّب الغناء والرسم إلا أنه لم يطمئن إليهما بل

---

١١ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٨٣.

١٢ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٣٣٤

استمر على طريقة التعبير بالكلمة المكتوبة. بدأ بالشعر في حالات الانفعال ثم انحصر تركيزه على كتابة القصة القصيرة حيث فضلها على الكتابة الروائية في المرحلة البدائية لرحلته الأدبية لكون الأولى أسهل نشرا وأسرع تأثيرا كما أنها لا تشكل جهدا ضخما ضائعا. وكان السباعي يستمد المواد لقصصه من علاقات الناس العادية وأحداثهم المألوفة ما أمكنه ذلك، وتكون تلك المواد في النهاية عبر تنويعات مختلفة صورة متكاملة تستجمع خطواتها كل ألوان طيف يوجد في هذا العالم بانعكاساته على الناس. وكان الراوي يلعب دورا كبيرا في قصص السباعي عن عالم الأشباح.

ويمكن أن نعد عمله القصصي "فوق الأنواء" أول قصة قصيرة له وقد نشرت في عام ١٩٣٤ وهو في السادسة عشرة من عمره وتشملها مجموعته القصصية "أطياف" ونشرت قصته الأخرى "تبت يدا أبي لهب وتب" في عام ١٩٣٥. وعمله الأدبي "البحث عن جسد" يعالج مشكلة اليأس فبطل الرواية يجد نفسه نائبا لعزرائيل ويدرك أنه لا يخاف الموت. يل في الواقع هو ينتظره كل يوم ويرى أنه أهدى أمره إلى ملك الموت عزرائيل عن طيب خاطر والحياة في منظوره لا تختلف عن الموت كثيرا هما متساويان. بالرغم من أن هذه القصة تتناول أمرا عظيما – هو الموت، إلا أن بها طابع فكاهي زائد وهي مثيرة بشكل جذاب. أما الفكرة التي تتناول القصة والحبكة التي تتطور على أساسها فهما يفيد هذا العمل القصصي طرافة وجدّة. والاتجاه الذي انتحى الكاتب عليه من وقوع عزرائيل – ملك الموت – في الحب، تثير فنا مشاعر غرابة لعدم توقعنا ذلك.

والجدير بالذكر هنا أن يوسف السباعي ضمّن في أعماله الأدبية ما له من قول ورأي وفلسفة حول الحياة، والإنسان والأدب والمرأة والطبيعة والملاحظات التي يقوم بها في إبداعاته الرائعة تعجبنا من جوانب مختلفة مثل قوة اللغة وصدق الاهتمام

بالواقع، وسعة القلب وخيال الأدب وروح النقد. ها هو ذا نسمعه يقدر الشعر الحديث ويقدم نقده فيه على لسان عبد اللطيف حين يقول:

"- على أية حال هي خير في نظري من كثير من القصائد التقليدية أو العمودية التي هي مجرد رص كلمات ... والتي أسميها هذيانا موزونا مقفى. وهي خير أيضا من كثير من قصائد الشعر الحديث التي لا معنى لها، ولا وزن ولا قافية."[١٣]

وبينما يعلّق الكاتب على لسان عبد اللطيف، على ما كتبتها شهيرة من كتابة أدبية، تلوح حقا شخصية ذاتية للكاتب نفسه لأنه كان يشجع الصغار والكبار على الإبداع ويساعدهم على نشر منتوجاتهم الأدبية طيلة حياته كما أعلن به الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ. وقد حظي عدد من الأدباء والكتاب عنده بحيث تم نشر أعمالهم الفنية. والسباعي يقول على لسان عبد اللطيف بعد قراءة كراسة شهيرة جوابا لسؤاله "أتقول هذا مجاملة؟" " بل أعنيه، فهي على الأقل ... صورة متكاملة، تعبر عن شعور، وتحمل معنى، وتبدولي أنك يمكن أن تكوني قصاصة جيدة"[١٤] وهذه الكلمات تشجيعية حقا. والكاتب على يقين أن مثل هذه الكلمات تقوي المواهب وتخرجها من أصحابها حين تنتج أعمالا فنية أدبية.

القالب الروائي ليوسف السباعي

عقبت مرحلة القصة القصيرة مرحلة كتابة الرواية الطويلة. وروايته "نائب عزرائيل" التي نشرت في عام ١٩٤٧ تعد أولى محاولاته الروائية. وهذه الرحلة الأدبية الروائية استمرت فنشر العمل الروائي التالي "إني راحلة" ولقد انتاب هذا الأديب -كما هو العادة

١٣ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٢٦١

١٤ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٢٦١

للأدباء كلهم – الإحساس بالقلق ثم الشعور بالمغامرة. واكتشف خلال جهوده الفنية المستميتة أن الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية مناسبة وملاءمة لإظهار موهبته الأدبية. وتحلت أعماله الروائي إطلاقا بالحوار والسرد والوصف والمونولوج. وهذا الازدهار الروائي لم يلحّه على هجر كتابة القصة القصيرة أبدا.

كان يوسف السباعي من أدبائنا القلائل الذين تمكنوا أن يقاوموا روح الهزيمة والخيبة وأن يروا بصيص الأمل والنور الذي ينادي بطلوع الفجر رغم قتامة الظلام وحلكته. وهذا الدور اللامع كان أبرز في روايته الأخيرة التي رأت النور قبل معارك أكتوبر عام ١٩٧٣. وهذه الرواية تدل على الحدس الفني للسباعي، وهو الذي كان يدفعه إلى الغوص بحثا عما وراء السطح مستلهما روح الشعب الأصيلة، روح المقاومة التي ترفض الخزي والهوان. ومن خلال الاطلاع على هذه الرواية "العمر لحظة" يدرك العدو والصديق على وجه التساوي أن روح الشعب المصري لم تمت، كما يفيده عنوان الرواية نفسه ضمنيا. وقد وصف كاتب مصري أعماله بأنها واقعية ورمزية. إن آثار الشخصية الجندية للكاتب يوسف السباعي تتجلى في أعماله كما نرى في رواية "ابتسامة على شفتيه" ويمثل الصفات الجندية عبد الكريم شخصية الرواية وهو يقول "- حاولت أن أحصل على إجازة. ولكنني لم أستطع ... فقد كانت كتيبتي مشتركة في المناورة."[١٥]

وقد جعل يوسف السباعي الأدب مهمته الأولى في الحياة كما جعل كل تجاربه في الحياة زادا لقلمه الفني. فعن طريق تجاربه العاطفية والوظيفية حتى الهامشية ازدهر أدبه وفنه. وندرك بمجرّد تصفح رواياته مثل "أرض النفاق" و"ابتسامة على شفتيه" أنه كان يذوق ما يضطرم به باطن المجتمع المصري وأنه وجد إلى درجة

١٥ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، مكتبة مصر، ص ٢١

الغليان التي لا بد أن يقع بعدها الانفجار. وقد نشر معظم رواياته مسلسلا في الصحافة ثم نشر في صورة كتاب.

ونخلص الكلام عن روايات السباعي بأن الأوضاع الداخلية تم التعبير عنها في روايتي "رد قلبي" و"نادية" وتتناول رواية "طريق العودة" الأوضاع العربية المرتبطة بفلسطين بينما تتناول روايتا "جفت الدموع" و"ليل له آخر" الأحوال المتصلة بالاتحاد المصري – والسوري ومن هذا المنطلق يجري جميع أعمال السباعي الروائية على الموضوعات المختارة من حياة الشعب.

يوسف السباعي والمسرح

واصل الكاتب يوسف السباعي محاولاته ومغامراته الفنية فنجمت عنها مسرحياته ومسرحيته "أم رتيبة" هي الأولى من هذا النوع من الكتابة الأدبية وهذه المسرحية رأت النور في عام ١٩٥١ ثم تم تمثيلها على المسرح. وله مسرحية جميلة سماها بـ"أم رتيبة". وكان معظم مسرحياته تتصف بالكوميديا الساخرة. وقد وجد يوسف السباعي المسرح أفضل وسيلة للتعبير الساخر بتوظيف الشخصيات التي تتسم بالسخرية العفوية أو السخرية بالفطرة. وقد استخدم السباعي المسرح لنقد الأحزاب والصحافة الحزبية كما نرى في مسرحيته الثانية بعنوان "وراء الستار" التي نشرت عام ١٩٥٢م. أما مسرحيته "جمعية قتل الزوجات" التي أصدرها في نفس العام ردا على النقاد الذين اتهموه بالإسفاف والتهريج، وقد أهداها إليهم قائلا بسخرية ثورية "اهدي مزيدا من الإسفاف والتهريج".

مقالات يوسف السباعي

إن الأديب ليس بإمكانه أن يصمت نحو الواقع، وألاّ يحرّك قلمه فيه ولا عنه وكان يوسف السباعي يتابع الواقع من جميع

جوانبه وزواياه وهذه المتابعة الدقيقة للأديب أدى إلى توظيف جميع أنواع الأدب في التعبير عنه فتعدّد مقالات يوسف السباعي في موضوعات مختلفة بما فيها القضايا السياسية والقضايا الاجتماعية وإلى جانب هذا كلّه ترك الكاتب يوسف السباعي بصماته على أدب الرحلة أيضا. ولا يخفى علينا أن هذا الأديب متعدد الجهات فكتب القصة أو السيناريو والحوار لخمسة عشر فيلما. وظهر عدد ملحوظ من رواياته ومسرحياته أفلاما للجمهور، وبعضها قدمت على الإذاعة والتليفزيون.

الفصل الثالث:
الوجود العملي ليوسف السباعي

إن فيما بين أدباء العرب عددا ملحوظا لم يكتف بما كتبه بقلمه بل دخل إلى الميدان العملي وأسهم فيه إسهامات بارزة مثل الدكتور طه حسين فقد ثبّت وجوده بالجمع بين القلم والعمل في النصف الأول من القرن العشرين. أما أديبنا يوسف السباعي فنجده يجعل وجوده ومنصبه في خدمة الأدب والكتاب عن طريق تأسيس نادي القصة في مطلع الخمسينات ثم جمعية الأدباء واتحاد كتاب آسيا وإفريقيا وعن طريق التبرع بمكان لاتحاد كتاب فلسطين وجمعية الدراما. وأنشأ اتحاد الكتاب في عهده وزيرا للثقافة. وقام بالإشراف عليها وتدبير تمويلها. وتقدم بمجلات أدبية.

وكان وراء إنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وهذا فتح الأبواب لمنح جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية في الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. وهذه المسيرة استمرّت لمدة طويلة عبر إطلاق مشروع الكتاب الأول للشبان الأدباء، وإجراء المسابقات الدورية للقصة القصيرة والرواية، وإرسال الرسائل يدعو فيها الأدباء والمفكرين والساسة إلى عقد المؤتمرات والندوات والملتقيات العلمية والأدبية. وكان الروائي يوسف السباعي يعلن بشعاره معظم أوقاته هو – لا يغلبن جهل الناس بك علمك بنفسك – يعني يجب ألا يهمك جهل الآخرين بك

فلتبق على العمل الجاد بغض النظر إلى الجهل القاتم بك للآخرين. فأنت مستقل تجري حسب متطلبات وجودك. إن العمل مع القلم أفضل بكثير من القلم بدون العمل. وهذا درس تتبادله قصة يوسف السباعي الشخصية والأدبية. وعقد يوسف السباعي عددا كبيرا من مسابقات القصة القصيرة والرواية وقد عمل ملحقا أدبيا لمجلة الهلال الشهرية. ويعجبنا أن نقول إنه كانت ليوسف السباعي نشاطات رياضية أيضا، مثلما كان رئيس فريق الهوكي في مدرسته ونافلة القول أنه تخرج في الكلية الحربية ضابطا بسلاح الفرسان عام ١٩٣٧.

السينما ويوسف السباعي

لا يتم تناول شخصية يوسف السباعي إذا لم نخصص بعض السطور للحديث عن دوره في مجال السينما. ويظهر الأديب السباعي اسما مضيئا في أرشيف السينما. ولقدرته وعمقه في تشخيص الأشياء والأمور السياسية والاجتماعية تلقت رؤاه قبولا حسنا لدى الجالية السينمائية فقد ظهر اسمه على شاشة السينما أكثر من ٣٣ مرة تارة بوصفه كاتبا للسيناريو وتارة بصفته صاحب القصة الأصلية للأفلام. ومما يدل على إبداعه السينمائي الممتاز أنه تم إدراج أربعة من هذه الأفلام في قائمة أفضل مائة فيلم في تاريخ السينما المصرية. وفي نفس الوقت، نلاحظ أن أفلامه لم تحز اهتماما نقديا يستحقه. وقد تحول معظم رواياته إلى الأفلام. وإلى جانب ذلك، كان بعض رواياته الأولى يتم إذاعتها أولا على الشاشة حلقة بعد حلقة ثم نشرت في صورة الكتب ثانية. ولهذه الظاهرة إيجابيات وسلبيات. وإذا أعجبت الجمهور الحلقات فإذا يقدمون على شراء الرواية وقراءتها. وبالعكس، يعرضون عنها بتا، بدون النظر إلى ما تتضمنه الرواية في شاكلتها الكاملة من المزايا.

وحاز فيلم "رد قلبي" المركز الثالث عشرة في القائمة المذكورة أعلاه وهو يعد من أهم الأفلام التي سجلت ثورة يوليو ١٩٥٢. وقد أنتجه آسيا داغر بينما كان مخرجه محمود ذو الفقار. وكان شكري سرحان ومريم فخر الدين بطلي الفيلم. أما فيلم الناصر صلاح الدين الذي احتل المركز الحادي عشر في القائمة فكانت قصته وحوار من قلم يوسف السباعي. وتستهل أحداث الفيلم بإصرار قائد الصليبيين على مواصلة قتال العرب ليهزم في موقعة حطين. وفيه تحدث المعارك والخيانة. و"بين الأطلال" أصبح فيلما على السيناريو والحوار اللذين كتبهما عز الدين ذو الفقار. أما "السقا مات" فقد سعى المخرج الراحل صلاح أبو سيف أن تحولها من عمل روائي إلى عمل سينمائي في السبعينيات ولكن هذه الجهود لم تحظ بالقبول من قبل المنتجين حيث وجدوها مغامرة لما كان فيلم يتحدث عن الموت. ثم تم تغيير نهايتها وعقب ذلك، أصبح فيلما. ومن أعمال السباعي الروائية التي تحولت إلى أفلام "نحن لا نزرع الشوك" و"نادية" و"أرض النفاق" و"إني راحلة" وقد شارك في أفلام يوسف السباعي عدد من المخرجين الكبار في عصره مثل عز الدين ذو الفقار فطين عبد الوهاب وأحمد بدرخان وهنري بركات وغيرهم. وحاز في عام ١٩٧٦ جائزة وزارة الثقافة والإرشاد القومي عن أحسن قصة لفيلمي "رد قلبي" و"جميلة الجزائرية" وأحسن حوار لفيلم "رد قلبي" وأحسن سيناريو لفيلم "الليل الأخيرة".

وقد حاولنا في الصفحات السابقة أن ندخل إلى عالم يوسف السباعي من ناحيتين – ناحية شخصية وناحية أدبية. وتقدمنا فيها بعرض حياته للجمهور بالإيجاز. وركزنا في الصفحات المعدودة من هذا الباب على عالمه الإبداعي الممتاز الذي يتكوّن من آثاره القصصية والروائية والمسرحية ومقالاته الاجتماعية والسياسية. وأخيرا قمنا بالرحلة الوجيزة في عالم الرئاسة الذي تحلّى به في مجالات مختلفة بما فيها المجال الثقافي والمجال الأدبي والمجال السياسي.

الباب الثاني
روايات يوسف السباعي:
خصائصها الأدبية والفنية

نتقدم إلى العالم الروائي ليوسف السباعي بحيث نحاول فيه للكشف عن خصائص رواياته المهمة وبالتركيز الخاص على خصائصها الفنية والأدبية. ومن خلال هذه المحاولة، يتم تقدير أعماله الروائية، وبالتالي، يسهل للقراء والمطلعين أن ينتبهوا إلى العناصر الفنية التي تتكون منها تلك الروايات. وهذا لا يعني أبدا أن تعليقات الباحث تنحصر في مدح يوسف السباعي، بل بالعكس تنعكس نقدا شاملا للإيجابيات والسلبيات التي تتجلى في آثاره أيضا. وقد كتب يوسف السباعي روايات عديدة ومن أهمها "أرض النفاق" و"إني راحلة" و"ابتسامة على شفتيه" و"السقا مات" وما عداها. وكل من هذه الروايات تتميز بسمات خاصة وتشارك فيما بينها في بعض الصفات المهمة.

ومعظم أعماله الروائية يتسم بكثافة المعاني ورونق المعمار وسعة الخيال وجذابة التصوير ورومانتيكية الأفكار وتزيين حبكة القصة بالأشعار والأمثال. وعلى الرغم من هذه الصفات المميزة لتلك الروايات، إلا أن كاتبها لم يتحقق النجاح المرجوّ في توظيف التقنيات الإبداعية الحديثة مثل الاسترجاع. وعلاوة على ذلك، أن الأحداث في بعض رواياته تسير عادة كما يتوقع القارئ بدون لحظات المفاجأة

والمصادفة فيها وهذه طبعا تشين في جدارتها وجاذبيتها. وكان يكتب أعماله الأدبية لنفسه أوّلا ثم يتركه لرضا القراء كما تحدث عنه في مقدمة روايته "إني راحلة".

وكان يوسف السباعي يقدّر تقديراتِ قرائه المخلصة والحارة والخالية من النفاق والرياء التي – بناء على تعبيره – لا ترجو ثمنا ولا تطلب ردًا. وقد تناول الدكتور طه حسين أدب يوسف السباعي ثم قدّره جيدا حيث قال "وأشهد أني رضيت حين رأيتني أفرغ من قراءة الصفحة الحادية عشرة بعد المائتين والألف وكنت أقدر أني لن أبلغها"[١٦] وكان يعجبه كثيرا أدب يوسف السباعي. ومن أهم ما قال طه حسين عن هذا الأدب للسباعي بعد أن انتقد الأخير على أخطائه اللغوية، معربا عن إعجابه بجاذبية أسلوب السباعي ومعلقا على رواية "ليل له آخر" – هو "وأشهد أن طول القصة بل إسرافها في الطول لم يزدني إلا حبا لهما وإعجابا بها حتى قرأتها مرتين ولا أستبعد أني سأقرؤها مرة ثالثة"[١٧]

وفوق ذلك كله، أن هناك من نقد يوسف السباعي نقدا لاذعا مثلما أخذ عليه الناقد أنور المعداري أنه ليس لدى يوسف السباعي من الوقت ما يحتشد فيه لفنه الاحتشاد الذي يرضيه كقارئ. وأضاف إليه أنور المعداري نفسه أن السرعة جناية على الفن والفنان وإرهاق للملكة القاصة يجعل منها آلة يفسدها العمل المتواصل. ولكن الناقد عباس خضر يأخذ موقفا معاكسا ويعلن أن السباعي عندما يبدأ الكتابة كأنه يتحدث مع صديق بدون أية كلفة ولا تصنع في حديثه وهو يكتب متفرغا من الحدود والقيود التي يتبناها كثير

١٦ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ١٤١

١٧ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٢٤١

من الأدباء الآخرين. وهو لذلك ينتج كثيرا إلا أن هناك رأيا لبعض النقاد فيشكون من هذه الغزارة من المنتوجات الأدبية ويقولون لو تمهل لكان إنتاجه أحسن. وهذا لا يبدو معقول، لأن لكل من الأدباء طريقا خاصا به والسرعة تكون من طبيعته فالتمهل لا يفيده كثيرا بل ربما يضرّه حتى في بعض الأحيان يسبّب توقفه عن الكتابة. فالأفضل بالنسبة إلينا أن تلقى أعمال يوسف السباعي الأدبية بسرور إذا أرضتنا وأقنعتنا، أو أن نعرض عنها إذا لم تعجبنا ولم تذهلنا ... ونترك صاحبها على سبيله. وهو لا يقبل آراء النقاد على حساب أسلوبه ولغته وبدلا من ذلك، يريد السباعي أن يغير اللغة لتكون كما يكتب وينطلق.

وهناك فيما بين الجاليات الأدبية ادعاء بأن النقد العربي لم يهتم بيوسف السباعي ومنتوجاته الأدبية جيدا. وهذا ليس بصحيح، لأن هناك دراسات عديدة تتناوله وأدبه على نطاق واسع مثل "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي" التي تتضمن مجموعة من المقالات النقدية بقلم أمثال طه حسين وعلاء الدين وحيد وأنيس منصور وقد أشرف على تقديم هذا الكتاب وإعداده الكاتب الكبير غالي شكري.

الفصل الأول:
أهمّ روايات يوسف السباعي بالإيجاز

"أرض النفاق"

وقد تناول الناقد عبد العزيز الدسوقي هذه الرواية وأَبْرزَ في تعليقه عليها أن يوسف السباعي يمتلك منذ سن مبكرة رؤية ثورية محددة وهذه الموهبة جلية في هذه الرواية وشبهت هذه الرواية بالمقامة في الأدب العربي القديم وبعض النقاد لاحظوا أن هذه الرواية تسبح على الأقل في الطريق الذي كانت تسبح به الروايات الحديثة التي نسجت على منوال المقامة العربية مثل حديث عيسى بن هشام. ويمكن أن نسميها بالمقامة الثورية. وهذه الرواية مثل نائب "عزرائيل" تسلط الضوء على مشكلات العامية والفصحى، والمباشرة والتقريرية، والفوضى والحرية، والفرد والمجتمع، والتخطيط والعشوائية، والمادية والمثالية. ومن أفضل الدلائل لنجاح هذه الرواية والقبول الواسع لها عند الجمهور أنه تم تحويلها إلى عمل سينمائي بطله الفنان المصري فؤاد المهندس.

وهذه الرواية قصة النفاق والمنافقين التي امتزجت بالخيال والشطط وهي - كما تحاول روايات السباعي الأخرى - تحاول أن تزيح سلبيات المجتمع وتزكيها من سيطرتها. فالنفاق من أهم القضايا الاجتماعية والسيكولوجية التي رسخت في صميم الإنسان. وتنجم عن ذلك مشاكل أخرى. وهذه القصة تلقي الضوء على مختلف الألوان للاستغلال الاجتماعي. ويقول الكاتب متمرد على النظام

النفاق الجاري في المؤسسات والمكتبات "يا أهل النفاق!! تلك هي أرضكم ... وذلك هو غرسكم ... ما فعلت سوى أن طفت بها وعرضت على سبيل العينة بعض ما بها ... فإن رأيتموه قبيحا مشوها، فلا تلومني بل لوموا أنفسكم ... لوموا الأصل ولا تلوموا المرآة. أيها المنافقون!! هذه قصتكم، ومن كان منكم بلا نفاق فليرجمني بحجر" فالكاتب يجد النفاق مرضا مصيبا جميع البشر. وقد أهدى السباعي هذه الرواية نفسه قائلا "لو لم أفعل ذلك لكنت شيخ المنافقين ... أود أكرّم نفسي وهي على قيد الحياة فأشد ما أخشى ألا يكرمني الناس إلا بعد الوفاة". وندرك من هذه العبارات روح الكاتب الثوري وتمرّده على ما رسخ في طبيعة المجتمع من العادات النفاقية. ويقول في إهدائه "ولو قلت غير هذا لكنت شيخ المنافقين من أرض النفاق!!" أما يوسف السباعي فهو من قلائل الأدباء الذين تجرؤوا أن يخلع رداء النفاق عن أنفسهم في إهداء كتبهم وفي كتابة مضمونها. وفي ضمنها لم يخجل الكاتب السباعي أن تبدي حقيقة الأنانية الراسخة في ضمير كما هو الأمر في جميع الإنسان والإنسان لا يعرضها إلا خفيا، ومنكرا إياها.

"السقا مات"

إن هذه القصة حدثت حوالي عام ١٩٢١ في حي الحسينية. وحبكة هذه الرواية تتطور على أساس بطلها الذي يدعى السقا لهروبه من ذكرى وفاة زوجته الشابة التي تشوش أفكاره، وتؤذي عقله. وتتطور الحبكة مع تطور العلاقة بين البطل وبين شخص قد أنقذه من الضرب في أحد المطاعم. وهذه العلاقة تصبح متينة ووطيدة بدون معرفته أن هذا الشخص يعمل في دفن الموتى. وبالتالي يصبح هذا الشخص سببا في تغيير نظرة السقا للموت وإيمانه بالقضاء والقدر. نجد الروائي يوسف السباعي في هذه الرواية يصور الطبقات

الشعبية ويعرض حياة الكادحين بشكل بليغ. إن في رواية "السقا مات" يتجه الأديب يوسف السباعي من عالم الرومانسية إلى أرض الأدب الواقعي. واحتلت هذه الرواية مكانة في مرموقة في القائمة النهائية التي أصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ٢٠٠٢م، عن أفضل ١٠٥ رواية عربية. وهذا يدلّ على التقدير العظيم الذي تلقته أعمال يوسف السباعي الروائية من الأوساط الأدبية.

تعد هذه الرواية من أفضل ما كتبه السباعي من حيث معالجته لفلسفة الحياة والموت وقد نجحت هذه الرواية إلى حد كبير في تصوير معالم مدينة القاهرة القديمة ومظاهر حياة المجتمع المصري بكل ما بها من أماكن ومصطلحات وشخصيات. وهذه الرواية تحيط بظاهرة الموت بكل ما فيه من حزن وألم وفكر وعمق. وهي مواجهة مباشرة مع الموت الحقيقي. وعلى الرغم من أن كلنا على يقين أن الموت يصل إلينا يوما، ولكن لا يمكننا استقبال الموت بمرح وفرح، يعني موت أحد أقربائنا أو أصدقائنا. والمجتمع المصري – أهله متمسكون بالصلة المتينة بين أفراده وفقدان فرد واحد يبدو لهم انفصال حلقة عن سلسلة متصلة. ورواية "السقا مات" تعالج الحياة والنفس البشرية بأسلوب جميل وممتزج بالنمط الفلسفي فالأفكار الفلسفية للسباعي تسيل على ألسنة شخصياتها وهذه البنية الرائعة تشكل في قلوب القراء متعة وتسلية وأفكاره الفلسفية تحمل في طياتها نقدا اجتماعيا وسياسيا مثل ما نرى في التعبير التالي: "فما من بشر يحس بحاجة غيره ... وما من بشر يحس بالفائض عن حاجته ... فهو أبدا في حاجة، وغيره في غير حاجة"[١٨] وهذا يدل بصراحة على جشع الإنسان وإعراضه عن المحتاجين.

والتمرد من قبل الشخصية المحورية على حقيقة الموت لا يستمر طويلا، بل الموت يقبضه في موعده المهم حين أخذه في أوج اللحظات

١٨ يوسف السباعي، السقا مات

التي كان يحاول أن يقضيها في الاستمتاع بكل ما في الحياة معلنا ثورته ضد حقيقة الموت، فقد جهز نفسه لقضاء ليلة حمراء مع المومس الشهيرة عزيزة نوفل بحيث أحضر من الطعام ما يحلو له لزيادة قدرته الجنسية في هذه الليلة مع ما يكفيه من المخدرات. ولكن الموت لم يخطئ في عمله ولا في موعده فقبض شحاتة بدون تأخر من الموعد حتى بلحظة واحدة وقضى على جميع ما كان يتمتع به من المتع الدنيوية. وهذه أيضا نهاية لا ترجى إلا أنها نهاية لا بد منها لكل إنسان. وعلاوة على ذلك، تفضل شخصيات روايات السباعي أن تنادي بالكلمات التالية "تعال أيها الموت وأرحنا من سخافات الحياة ... أنت نومة لا أكثر ولا أقل ... أنت لا شيء ... سوى فاصل بين إحساس ولا إحساس ... أقبل علينا يا موت فأنت منجينا حتى من خوفنا منك".

"بين الأطلال"

هذه الرواية كتبها يوسف السباعي في شهر رمضان عام ١٣٧٠هـ إذ وجد الصيام يوفر له وقتا كافيا متواصلا لكتابة عمل أدبي فني بلا توقف وقد أكمل هذه الرواية بمجرد عشرين يوما. وهي ثلاثية تتكون من ثلاثة أجزاء بدون التشابه بينها والأجزاء في ضمن كتاب واحد تحمل عناوين تالية على التوالي، هي "سوط على قلب" و"القصة الأخيرة" و"شمس غاربة". وهي تشتمل على ثلاث شخصيات محورية هي سامية وأنور وكمال والأوليان طالبان بينما الأخير أستاذهما. سامية خريجة كلية الآداب وتحب الفلسفة وتمثل المرأة المتحررة وتحب النقاش والجدال. وأنور خريج كلية الحقوق محامي يريد أن يدرس الإعلام والصحافة للحصول على المؤهلات العليا في نفس المعهد الذي التحقت به سامية. وهو ينتمي إلى أسرة ثرية من حي من الأحياء الراقية بجاردن سيتي. أما كمال فهو أستاذهما للمادة

الإنجليزية وهو حديث السن.

ولرغبتها الشديدة في الجدال والنقاش الجاد، قررت أن تعلم الأستاذ درسا شديدا لئلا يرتدي حلة الأستاذ الكبير ولكن حدث الأمر بالعكس فلم تنجح خطة سامية بل درسها الأستاذ درسا ... وهذا انتهى إلى حبها له، إلا أن الأخير كان يحب فتاة إنجليزية كما كان أنور يحب سامية. وكمال سيرسل في طلبها ليتزوجها ... هكذا تتطور حبكة الرواية والرواية لا محالة متشابكة الأحداث. فالسرعة أو الوقت القصير الذي قضاه الكاتب في كتابتها، لم تساعده إلا على إتقانها وإجادتها.

"إني راحلة"

هذه الرواية تجد حبكتها من قصة امرأة هجرت زوجها وهربت مع عشيقها هو عشيقها منذ باكورة شبابها ولكن الظروف والتقاليد الإجبارية عرقلت زواجهما. وهذه المرأة، اسمها عايده، تقص الرواية من البداية إلى النهاية وتبقى حية وديناميكية عبر كل حركة وسكون لحروفها حتى تبدو للقراء بطلا للرواية، لأن شخصيات رئيسية أخرى مثل عشيقها أحمد وأخيها علي ومثل أبيها وجدتها تختفي وتظهر فينة وأخرى. والنصف الأول من الرواية كما يرى النقاد سيرة لزوجة يوسف السباعي المحبوبة إليه، إسمها دولت طه السباعي وقد أهدى الكاتب هذه الرواية

– إلى أحب من وفى ....

وأوفى من أحب

إلى الحبيبة الأولى: أم "بيسا" و"اسماعيل"[١٩]

هذه الرواية من أحسن أعمال يوسف السباعي لما تتسم من كثافة

١٩ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ١

المعاني ورونق المعمار وسعة الخيال وجذابة التصوير ورومانطيقة الأفكار وتزين حبكة القصة بالأشعار. فصفة كثافة المعاني تتكون من كثرة آراء فلسفية يقدمها الكاتب حول مواضيع عديدة وخاصة عن الحب مثلما نسمع "إن شر ما في الحب أن المحب يخلق لنفسه أحزانا لأشياء لا وجود لها" ونقرأ الكاتب على لسان بطل الرواية عايده حيث تتحدث عن شربها الخمر لأول مرة ثم تعودها عليه "إن العادة تسهل لنا كل أمر وتذلل كل صعب" ونفهم ملاحظته عن أنانية المرأة على لسان عايده نفسها "ليس من السهل على المرأة أن تعترف بجمال امرأة أخرى" وتتجدد فلسفة الحياة في منظور الروائي على لسان شخصياتها مثل أحمد وعايده وهنا الأخيرة تكرر كلام أحمد ببعض التحويلات الطفيفية الضرورية نحوا أو لغة "لا سعيدة ولا شقية ... أكل، وشرب، ونوم، ومتاعب، ووقت يمر. ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من ذلك؟" ويبدو موقف الكاتب بعض الأحيان قويا وفخما مثلما نجده يقول ".. إن الكلاب المسعورة لا تطلق هكذا بلا قيد"[٢٠] ويتسائل بجلالة وفخامة "هل يسأل الظامئ الذي كاد يقتله الظمأ .. عن مورد الماء وكيف أتى؟ أم يندفع إليه ليهدئ من حرارته ويطفئ ظمأه؟" وفلسفة الموت التي يقدمها الكاتب تزدخر بالمعاني السنية بدون ألفاظ كثيرة "ما من أحد إلا ويعيش أبدا .. إن حياتنا تبدو بلا نهاية، حتى ولو كنا من النهاية قاب قوسين أو أدنى"[٢١]

والصفات مثل رونق المعمار وسعة الخيال وجذابة التصوير ملاحظات إجمالية عن هذا العمل الروائي لأن القارئ يتصور بسهولة كلما تتبادله سطور الرواية من الخيال وتصويرات، أليس من السهل للقارئ أن يتصور ما تقول القاصة عايده "وحمدت للخادم قوله، وانتظرت الإجابة، وأنا أرهف السمع ويداي منهمكتان

٢٠ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة، ص ٥٣٢

٢١ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة، ص ٦٩٢

في تصفيف شعري، وعيناي مثبتتان في المرآة" ولا يحتاج أحد إلى جهد كبير للوقوف على عشق العاشقين وشوقهما مما يصوره خيال السباعي في الألفاظ القصيرة التالية على لسان عايده"ووقفنا في الحديقة على باب الدار، ومددت يدي إليه مودعة .. وأحسست بيده تضغط على يدي ضغطتها الرقيقة الخفيفة ذات المعاني .." ألا يرى اليأس في قمته في التعبيرات التالية من الرواية ". . . وقد كنت أشبه بإنسان رفعوه إلى هام السحب، ثم تركوه يهوى إلى قرارة الأرض فتناثر حطاما"[٢٢] وهذا الطريق الجميل من التصوير يجر انتباهنا عندما يستعد أحمد للسباحة في البحر فالقاصة تلتقط هذه الصورة بكلامها قائلا"ثم بدأ في خلع ملابسه بسرعة .. ولف نصفه الأسفل بمنشفة ... وانطلق يعدو إلى البحر في مرح الأطفال وهو يصيح بي"[٢٣] وهذا الخيال القوي الذي يوظفه الكاتب عبر سطور الرواية يجسد الحبكة ويلحنها "... وكانت الظلمة دامسة، إلا من لمحات البرق، تنير الكون برهة ثم تتركه أشد حلكة"

"فديتك يا ليلى"

إن أحداث هذه الرواية تدور حول بطلها الموسيقار الكبير إبراهيم محسن وقد تمكن له أن يستميل قلوب محبي الموسيقى كلهم بحيث تعجبهم موسيقاه. وعلاوة على ذلك، جعل أذواق الناس تتكيف موسيقاه التي أحيا بها الموسيقى الشرقية وتَقدّم إبراهيم محسن بالموسيقى الغربية على الجمهور المستمعين، كان فنانا بكل معنى الكلمة. بل كان من مثالبه أنه كان شديد الحساسية. فكان يشعر بتأنيب الضمير لمجرد أسباب تافهة. وقد شهدت حياته بعض مواقف مؤلمة أثرت في حركاته تأثيرا عميقا ومنها وفاة والديه وخطبته وانفصاله عن خطيبته وذاك تسبب لفقدان ذاكرته

٢٢ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٢٥١

٢٣ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ١٧٢

وتركيزه وأخيرا نقصت رغبته في التفاعل مع الآخرين. وهذه التغيرات الغريبة بسرعة عجيبة حيرت زملاءه جميعا كما تحير أمام وضعه المفجع حتى الأطباء. وفي النهاية قررت صديقته الذهاب به إلى عيادة الطبيب النفسي الذي استطاع أن يشخصه جيدا فكشف عن حقيقة حالته التي استعصى فهمها المقربين منه.

"رد قلبي"

تعد هذه الرواية من أجمل وأفضل روايات الأديب يوسف السباعي فنالت قبولا حسنا من جاليات القراء. وقد وزعت أحداث هذه الرواية على عدة مستويات بحيث يزداد فيها عدد الأبطال. واستمدت هذه الرواية من تجارب السباعي في الجيش المصري حين تجري أحداثها في عصر الثورة وما قبلها. "علي" من أبطال هذه الرواية وهو ضابط في الجيش المصري، تصل جذور إلى عائلة فقيرة متواضعة فكان والده يعمل بستانيا في قصر الباشا ... وخلال عمل أبه في القصر، أخذ بضميره جمال بنت الأمير هي إنجي الرقيقة. وشرعا يتحابان حبا جما. كانا في انتظار لقاءهما الغرامي في عشهما المستقل الذي طالما تمنيا ولم يلبث أن يطلع يوم لقاءهما حتى قامت الثورة وتساوت الرؤوس. وهذا من أفضل روايات السباعي الرومانسية. وقد تحول إلى فيلم سينمائي. ويقال إنه كان الفيلم أكثر روعة من نسختها الروائية الرائعة.

"طريق العودة"

هذه الرواية ترتدي ثياب المعركة فينة بعد فينة. وتدور أحداثها في ميدان القتال والعمليات الفدائية وما يحيط به من المخيمات والمنازل للجيش. وتتجلى فيها قضية فلسطين. ومن أبطالها الرئيسية المهندس إبراهيم هو مهندس معماري ويمتلك حسا كبيرا. وفي أوائل النصف الأخير من القرن العشرين، التحق إبراهيم بالخدمة

العسكرية الإجبارية في الجيش المصري. وكانت تلك الفترة أكثر فتراته صخبا وتعقيدا حين كان الجيش يستغله في تصميم وحدات المجندين بصفته فنانا ماهرا في رسم الخرائط المعمارية. وبعد أن أكمل خدمته العسكرية أصبح مشهورا في مجال التصميم المعماري حيث كان تركيزه بكامله في الفن وحده.

ولكن في المرحلة الثانية انتقل إلى التنفيذ ولم يكتف بالتصميم فاستغل بأعمال المقاولات معا وهذا بدا خطأ كبيرا من قبله. فالمقاولات لا تناسب الفنان كثيرا وهي تحتاج إلى رجل يتابع الواقع ويتفاعل معه. أما الفنان فيكفيه الخيال. وهذا العمل لم يؤد إلى نجاحه ولا إلى سعادته بل إلى خسارته، فأخذ يخسر حتى بدأ ينفق على أعماله بدلا من أن يكسب منها. وأدى هذا الوضع المؤسف إلى كراهيته للحياة ومللله من أهله بما فيه زوجته وبنته – كانتا تشعران بشدة الضيق بالواقع. وترك إبراهيم كل هذا ورحل. وهذه قصة حقيقية تعرضت لبعض التعديلات الفنية من قبل الأديب يوسف السباعي. وصديقه هو صاحب القصة.

"ابتسامة على شفتيه"

وفي هذه الرواية التي تدور أحداثها في فلسطين، يعبر يوسف السباعي عن المأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني والتي نجمت عن الاحتلال الإسرائيلي لأرضهم. وهو يلفت انتباههم إلى توحيد الصفوف حتى تتحقق أحلامهم وأمانيهم في الخلاص من احتلال المستعمر الإسرائيلي وفي تحرير هذه الأرض المقدسة من قبضة العدو اللدود.

ومما يعجبنا في هذه الرواية الحبكة وتصميم القصة ففكرة الحب تبدأ تتسلط على هذه الرواية بطريق ممتاز– مزيج من أفكار قضية فلسطين ثم مع سؤال جميل من أميرة لمي "هل تحبينه؟" وقد تم

تصوير هذا الموقف تدريجيا، وهو يبدأ منذ أن رسمت مي صورة عمار في لوحة بشكل تلوح على شفتيه ابتسامة لم يمكن أن نراها في مسيرة حياته. وتلك اللوحة هي التي تعرض محبة مي لعمار كما تصبح جوابا لسؤال أميرة لمي "مي هل تحبينه؟" والقصة تتطور على التالي:

تقول أميرة "- أنت عجيبة يا مي! هل هناك أحد في ذهنك؟

وصمتت مي، وبدت الحيرة على أميرة.

ووقع بصرها على الخطوط فوق اللوحة، وبدا كأن الخطوط تلقي على المشكلة المحيرة شعاعا من ضوء، وهتفت أميرة متسائلة وهي تنظر إلى اللوحة

مي. هل تحبينه؟"[٢٤]

وعلاوة على ذلك، نجد في الرواية بعض المواقف للكاتب التي تستحق نقدا مثل المفاجأة التي يخلقها الكاتب – المفاجأة بإدراك مي سبب تجهم عمار بدون أن جرى بينهم حوار حوله وتلك المفاجأة لم تكن جميلة، بالرغم من أن كلمات الكاتب في هذا الصدد تحمل في طياته القضية المحورية – قضية فلسطين. تقول مي في شأن أفكار الآخرين عن عمار بصوت تنطلق فيه الانفعال القوية والأفكار الثورية ملتهبة:

"- إنكم تظلمونه جميعا، إنه يحمل هموم جيله الضائع، جيله اللاجئ يا خالتي. ولكنه يعيش حياة مستقرة. ولقد استطاع أبوه أن يستعيد مركزه من جديد. وأن يكتسب ثقة التجار والناس. ومتجره يسير من حسن إلى أحسن.

ليس مركز أبيه وتجارته هي التي تشغله، ولكن مركز بلده ومصيبة

---

٢٤ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٨٥

وطنه هي التي تملأ ذهنه"[٢٥]

وهذه الكلمات تدل دلالا واضحا على أن مي بطلة الرواية ليست بمجرّد عاشقة لعمار بل هي مناضلة تؤيد المناضل في سبيل الوطن هو عمار فآلامها وأحزانها في أمر الوطن تطابق آلام عمار وأحزانه في أمره.

"نادية"

هذه الرواية تتكون من جزأين وهي تحكي أحداثا شهدتها بلاد مصر في الفترة الحديثة المليئة بالأمور الهامة. والكاتب يستهدف بكتابة هذه الرواية أن يؤدي مسئوليته مرّة أخرى. وهو يقول في مقدمة هذه الرواية "مرة أخرى أشعر بمسئوليتي ككاتب يعيش في فترة مليئة بالأحداث التي تغير مجرى التاريخ في وطنه"[٢٦] وهو يلاحظ أن كتابته لرواية "رد قلبي" كانت بشكل عاجل دون اهتمام بالغ بالبعد الزمني الذي يعرض لنا الحوادث بشكل أوضح وأعم. أما في هذه الرواية فقد اهتم بالبعد الزمني إلى حد ما.

والقصة في الرواية تتمحور حول شخصية رئيسية "نادية" وهي وأختها منى توأم من عائلة متوسطة. وكان أبوها مدرسا بالجامعة بينما كانت أمها من أصل أجنبي. ونادية تستسلم للحب مع الدكتور مدحت إلا أنه لا يعرف بحبها. وبعد وفاة أبيها تضطر للسفر مع أسرتها إلى بلاد أمها وللعيش هناك. أما حقيقة الموت فهي من أهم الشخصيات التي تلعب دورا هاما في تطوير الحبكة الروائية مثل موت أبيها. وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يتوقعون موته، إلا أنهم لا يقرون بها – ولا بفكرة الموت. وبدلا من ذلك، كانوا يصرخون ويأنون أمام الميت – هو أبو نادية الذي لم يتجرأ ولم يقدر على مواجهة

٢٥ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٦٦

٢٦ يوسف السباعي، نادية، ص ٧

الموت. هذا هو إحساس عام للإنسان -تورثناه عن السابقين الأولين.

وكل من يزور بيت المريض طريح السرير، يشعر بوجود شبح الموت الحائم حول فراشه كأنه قد صار قاب قوسين أو أدنى منه. وهذه من المشاعر الهامة التي تلتهب في ذاكرة بطلة الرواية نادية. يقص الراوي تلك المشاعر لنادية "كانت الدهشة تجثم على الدار، وإحساس بالخوف يرسب في أعماق "نادية" ... كانت ترتجف لك صوت ... وتجزع من كل حركة ... كانت تتوقع أن يعود الصراخ الحاد ليشق أجواء الفضاء مرة أخرى، وكما تجسد العين أشباحا للمذعور. كانت أذنا "نادية" تجسدان لها الصراخ في كل صوت، بل في كل سكون ... كانت تنتقض بين آونة وأخرى ... من الأصوات الموهومة التي تنطلق من داخل البيت"[٢٧]

وتقع منى أخت نادية فريسة للموت حينما كانت مع أسرتها في باريس. أما نادية فهي ترتعش من الصمت الذي كاد يغطي حجرة رحيل أختها منى، وتصرخ بصوت واضح جاد سائلة "لماذا لا يصرخون؟؟ ... لماذا لا يولولون ويضجون؟؟ ... إن في ضجة الصراخ ... أنسا من وحشة الموت ... وتمويها لصمته المخيف. لماذا يتركونها هكذا ... بمثل هذه السكينة القاتلة![٢٨]" وهي تجد في الصمت ما يخيفها بينما ترى في الصراخ والبكاء ما يريحها ويعزيها. لحظة الموت لأحد أقربائنا أو أصدقائنا هي لحظة من أكثر لحظات العمر هولا وخوفا، إنها أكثر فزعا من لحظة موت أنفسنا، كما يلاحظ الكاتب يوسف السباعي.

وبالإيجاز ينقل الكاتب صورة حية عاشها وكان يعيشها منذ طفولته إلى نهاية وجوده في هذا العالم المادي. فمثل هذه المواقف بصدد الموت ليست غريبة بل عامة في جميع المجتمعات وخاصة في المجتمع المصري – والموت لا ينجو من قبضته أحد وهو حيوان مفترس ينتظر

٢٧ يوسف السباعي، نادية، جـ١ ص ٢٥١

٢٨ يوسف السباعي، نادية، جـ٢ ص ١٣٥

فريسة في كل حين من الأحيان. هذه الفكرة لم تزل تسيطر على عبقرية الأديب يوسف السباعي منذ أن شهد وفاة أبيه وهو في سنه المبكرة. وقد عرض يوسف السباعي الصورة المصرية الصميمة بكل ما فيها من تراث إنساني لمفهوم الموت.

"جفت الدموع"

إن هذه الرواية تدلّ على استمرار ما طبق الكاتب على رواية "رد قلبي" من تسجيل أحداث التاريخ. ويوسف السباعي من الأدباء الذين اهتموا بالتاريخ اهتماما بالغا إلى حد أن استمدوا منه أعمالهم الأدبية. والأديب السباعي على تمام اليقين والمعرفة بأن الكاتب أو الأديب لا يتخلص من مسؤوليته التي تولاها حيث نشأ وترعرع في بيئة خاصة. وإلى جانب ذلك، إن الفترة التي عاشها السباعي مكتظة بالأحداث التاريخية فلا بد أن يدونها الكتاب في جميع ألوان كتاباتهم، بما فيها الرواية والمسرحية ولمقالة والشعر. وكيف يمكن للكاتب أن يقف بمعزل عنها؟ والكاتب في الواقع مرآة تنعكس منها صور الوقائع والأحداث على الأجيال التالية. ويشرح الكاتب يوسف السباعي رأيه في تسجيل العمل القصصي وقائع وأحداث فيقول "ومفهوم بداهة أن القصة لا تؤرخ ولا تسجل وقائع، وإنما هي تعكس أحداثا كبارا من خلال حياة أبطال القصة، وأنها تعرض قطاعا من حياة ناس يشعرون ويحبون ويعيشون في تلك الفترة كما يعيش البشر"[٢٩]. ومن السهل أن نطبق هذه الملاحظة على الأعمال الروائية ليوسف السباعي فالسباعي في رواية "جفت الدموع"، يجري على هذا المنوال مع التاريخ المصري. وهو يهدي هذه الرواية إلى القلوب النابضة التي تدفق منها الحب في سوريا ومصر فجرف السدود وحطم الحوائل وجعل من البلدين وطنا واحدا.

---

٢٩ يوسف السباعي، جفت الدموع، ص ٦

وفي الرواية المذكورة آنفا "رد قلبي"، تناول السباعي الثورة التي غيرت تاريخ مصر، بينما خصّص رواية "نادية" لعرض أحداث تأميم القناة. أما الرواية التي نحن بصددها فتعالج قضية أخرى هي – الوحدة الكبرى بين مصر وسوريا. هذه الوحدة من أهم أحلام الشعبين المصري والسوري. إذًا تدور أحداث الرواية حول هذا المحور الهام. إن هذه الوحدة تثير في قلوب الناس من البلدين العربيين – مصر وسوريا – انفعالا جليلا وقادرا على تجاوز كل الحواجز والعراقيل.

"ليل له آخر"

هذه – كما يرى الكاتب نفسه – رواية رابعة من رواياته التي تتابع أحداث التاريخ وتدونها بجلاء فني ووضوح روائي ولم يكتبها أصليا التزاما بمسؤوليته في كتابة تلك الأحداث بل كتبها أساسيا انفعالا بتلك الأحداث التي مرت به في التاريخ الحديث. فقد استمد روح الرواية من ذلك التاريخ الحافل بالأحداث الكبرى. وسلسلة رواياته التي تسجل التاريخ الفاخر تبدأ من رواية "رد قلبي" وتستمر مع روايتيه "نادية" و"جفت الدموع" حتى تمرّ رابعة برواية "ليل له آخر" – التي نحن الآن بصدد الحديث عنها.

هذه الرواية تتكون من حركات العشاق الأربعة هم "سهير" بطلة الرواية وابنة أحد الأغنياء السوريين، التي تتعرض للعمليات الجراحية في لندن علاجا لمرض شلل الأطفال و"حمدي" الضابط المصري الشاب الذي التقى بسهير في لندن أثناء بقاءه هناك في بعثة عسكرية و"نادية" أخت حمدي التي رحلت إلى دمشق للمشاركة في مؤتمر الأدباء العرب وبالصدفة التقت بسهير وتتصادقان و"حسان" ابن خالة سهير الذي نبع الحب بينه وبين نادية فيما بعد. وتتمحور أحداث الرواية حول اللقاءات المصادفة بين هؤلاء الشخصيات

الأربعة. والعملية الجراحية الثالثة التي تتعرض لها سهير في لندن، تنتهي بنجاح بحيث يختفي العرج منها تماما وتسير على ساقين سليمتين مرة ثانية. وهذه العلاقات خارج الحدود تخلق عالما يمزج الشعب السوري والشعب المصري. وجريان هذه الرواية على هذا المنوال يلقي الضوء على أهمية الوحدة بين هذين الشعبين وضروريتها. وتنتهي هذه الرواية بوقوع الانفصال.

أما هذه الرواية "ليل له آخر" فتسلط الضوء فنيا على نكسة الانفصال التي شهده السباعي حيث كان يعيش في دمشق. وهي تعبر عن تجارب ابنه "إسماعيل" الذي حبس داخل البيت لمدة عام كامل في فترة نكسة الانفصال. وهذه النكسة كانت بالنسبة إليه تجربة إنسانية أخرى، تثير فيه انفعالا شديدا بأحداثها الكبار. وقد أهداها الكاتب إلى اثنين فالأول صديقه النقيب سمير الذي يعده قارئا منحه تقديرا يصدقه ويخلصه والثاني واحد من المقاتلين المصريين الذين خاضوا أشرف المعارك وأنبلها.

وتقوم بالقص في هذه الرواية بطلة الرواية سهير نفسها. وهي تكتب هذه القصة الطويلة إلى عشيقها حمدي، متفائلة ونافضة عنها اليأس والخيبة التي تحاول أن تقضي على الأحلام المزدهرة سواء في النطاق القومي والوطني أو الشخصي والذاتي، واثقة أن كل ليل له آخر حقا. ويتحدث عن هذه الرواية الناقد الكبير علاء الدين وحيد في كتابه "عالم يوسف السباعي" "ولكن تغير الأمر في [ليل له آخر] وتحققت نبوءة الإعلان القديم وتحولت الرواية إلى تاريخ والسباعي إلى مؤرخ، لا يهمه إلا إيراد الأحداث والوقائع التاريخية وتسجيلها والعناية بها"[٣٠] فهذه رواية تاريخية بالضبط.

---

٣٠ علاء الدين وحيد، عالم ليس لنا، ص ٨٣٣

"نحن لا نزرع الشوك"

إن هذه الرواية تعد من أشهر روايات يوسف السباعي وقد حظيت بالتحول للعديد من الأعمال الفنية. وهي تتضمن جملة من القضايا الاجتماعية وعلى رأسها الفروق الطبقية وزواج المصلحة. وقدم السباعي فلسفته عن الموت أثناء حديثه في هذه الرواية الرائعة. وأمكن له أن يتقن هذا التقديم الفلسفي من خلال رسمه الشخصية المحورية "سيدة جابر". ويبدو من اطلاع هذه الرواية أن قدرها منحصر في الظلام والعذاب والعقاب حيث واجهت منذ الطفولة إلى النهاية تحديات كبيرة. كانت تعيش في البداية مع زوجة والدها بعد أن توفي والدها وهي طفلة صغيرة فكانت عرضة لظلم الأولى. وكانت تعمل خادمة ثم عاهرة ولم ينته عذابها حتى بعد زواجها ثم انتهى عذابها أخيرا حيث انتهت حياتها في هذه الدنيا الظالمة.

وفي هذه الرواية، يرسم يوسف السباعي أباه محمد السباعي في شخصية محمد السمدوني بكل ما يتميز به من قوة وعنفوان وتحد للحياة والسخرية منها. وهذه الشخصية تمثل في الرواية حياة شاملة بمظاهرها وقوتها حين كان يغني ويرقص عاريا معلنا ثورته على جميع ما يمكنه كبح جماح الإنسان. ولم تقر هذه الشخصية بتحكم الموت وسلطته على نفسه، بل يجابهه بجراءة وقوة.

ومن أهم الموضوعات التي تتناولها هذه الرواية الموت والحياة. أما الموت فله وجهان والوجه الأول هو وجه السكينة والهدوء والوداعة والسلامة، هذا هو الوجه المشرق للموت والوجه الثاني هو وجه قاتم أغبر بشع يتكون من صرخات الأحياء وخدودهم الملطومة وثيابهم المشقوقة وآهاتهم المكتومة فكلها تنجم عن موت أحد الأقرباء أو الأصدقاء. فما أجمل كلام الروائي حيث قال "طرف يمضي ... دون أن يشعر أن هناك من يودعه ... وآخر يتمنى لو فقد الحياة قبل

أن يودعه" وقال أيضا "وجيعة الموت يا سيده ... ليست لصاحبه ... ولكن الوجيعة لمن يحبونه"[٣١] وقد عنون الكاتب بابا من أبواب هذه الرواية بـ "وجهان للموت!". وترى بطلة الرواية سيدة جابر لحظة موتها خيرا لها، هي لا تتحدى ولا تقاوم الموت الآن كما كانت سابقا عندما كان يقترب الموت ممن تحب. وهي ترحب بنهايتها لأنها تصبح على ما تعتقد سلامة وخلاصا لها من عذاب الدنيا وبلاءها. فقد قويت لأن تتلقى الموت مباشرة. والقصة تقترب إلى نهايتها عبر الكلمات التالية "وفجأة ... رواح الألم ... ولم تعد سيدة تحس بشيء ... ملكت حريتك، أخيرا يا سيدة ... ولم تعودي بعد عبدة حاجتك ولا مشاعرك ولا أحزانك ولا آلامك ... انطلقت متحررة من كل متاعب الحياة ... ومواجعها"[٣٢]

تتمحور الحبكة حول شخصية سيدة جابر التي مات والدها في طفولتها. كفلها صديق لوالدها. أما زوجة هذا الصديق فلم تزل تؤذيها وتعذبها بالأعمال الشاقة في البيت فلم تشعر بالراحة والحرية داخل هذا الحبس القاسي. وكان لديهما طفل صغير كان يستغلها لتسرق وتعطيه. ولكن في يوم من الأيام تم القبض عليها وهي تسرق. وأنقذها من هذا الوضع المؤسف للغاية حبيبها حمدي الذي كان تلميذا في الجامعة حين طلبها أن تعمل خادمة في بيتهم. فعاشت هناك سنين وخلال تلك الفترة عملها حمدي القراءة والكتابة. وفي ذلك الحين تقدم لخطبتها بائع المثلجات وتم تزويجها له. ولسوء قدرها، لم تفلت من الحياة المأساوية حيث كانت والدة زوجها تعذبها وتؤذيها أيضا. وجعلت على عاتقها أعمالا كثيرة بينما لم يتدخل زوجها في هذا الشأن بشيء. وحصلت على الطلاق بصعوبة كبيرة وخرجت للشارع بدون أن تعرف أين هي ذاهبة. ووقعت أخيرا أمام صاحب سيارة من السيارات فأحبها وتزوجها وعاشت معه في

٣١ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، ص ٦٧٢

٣٢ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، ص

هناء وسلام، بغض النظر عن كونه كبيرا.

"لست وحدك"

إن هذه الرواية رواية طريفة من زوايا مختلفة بما فيها حبكتها وفكرتها ولغتها وما عداها من مقوماتها الروائية. وتتطور حبكتها عن طريقة الرحلة إلى الفضاء. وتشارك في هذه الرحلة جملة من شخصياتها المحورية مثل عبد الراضي هو فراش بسيط في مجلة الزمان وعبد اللطيف هو أديب وشاعر وكاتب هما يعملان في نفس المجلة وكان صديقين حميمين بحيث يحيا مع بعضهما ويعد كل منهما الآخر نصفه الذي لا يمكن العيش بدونه. وفي نفس الوقت يتميز كل منهما بأوصافه وأفكاره الخاصة به. أما أحداث الرواية فتدور حول مغامرات رحلتهما في الكوكب الآخر حين يقرر عبد اللطيف أن يصطحب معه عبد الراضي ليتم تسجيل الأمور والأشياء من منظور إنسان عادي. وعن طريق هذه الرواية نقوم برحلة فضائية مع يوسف السباعي ثم ننظر إلى الأرض من بعيد.

وإذا أخذنا عنوان الرواية للنقاش، ندرك ما يعنى به جيدا فالمعنى كما نتأكد عبر تصفحنا في صفحات الرواية هو أيها الإنسان لست وحدك في الكون، هناك أشياء عديدة تملأ الفضاء والأرض. فلا تتكبر ولا تفتخر. "والإنسان يملأ رحابها ... يمشي عليها مرحا كأنه في الكون وحده. كم يبدو ضئيلا بكرته اللامعة في بحر الكون المتلاطم في السماء الفسيحة"[٣٣] ويتناول الكاتب المشاكل والنزاعات الداخلية التي لا تزال تجري بين رؤساء المؤسسات على سلطاتهم فيها. ويدعو الناس إلى المعاملة الإنسانية بدلا من العجلة والاستغلال الاجتماعي ويعبر عن هذا على لسان الأستاذ عبد اللطيف "- حقيقة أن الأصول هي الأصول. وأن كل إنسان يجب أن يوضع في موضعه حسب

---

٣٣ يوسف السباعي، لست وحدك، مكتبة مصر، ص ٥

التنظيم. ولكن لماذا كل هذه العجلة؟ لماذا لا نتصرف بإنسانية؟"[٣٤]

والمحاولات التي يقوم بها أعضاء بعثة الرحلة إلى الفضاء، لتحويل عالم الشجر إلى عالم بشري تبدو مبالغة شديدة – فضلا عن كونها تخل بحبكة الرواية. ولا ننكر في نفس الوقت أنها تمثل طموحات الإنسان وشهواته الذاتي التي لا نجد لها حدودا ولا قيودا. وينقد الكاتب الوضع الحالي للإنسان حين يقص "وهتفت شهيرة وهي ترقب الصراع البدائي من أجل اللقمة

شيء فظيع.

وتمتم عبد اللطيف: إنه أبسط مظاهر الصراع. صورة بدائية لما يحدث في عالمنا المتحضر

يأكل بعضهم بعضا؟

ولكي يجد طعامه من أجل أن يحيا.

ويموت الآخرون؟

لأجل بقاء غيرهم."[٣٥]

إن هذا الحوار البسيط يحمل في طياته أمورا مهمة جدا. وعلى رأسها، أن هناك في العالم قوات تخلق المشاكل بين أظهر الناس وتشاهدونها بأبصارهم وتتمتعون بمشاهدتها وأن هناك أناسا يعيشون جوعا ويُقتَلون جوعا ويقاتلون جوعا فالقتال عندهم للقمة يحيون بها. ويلاحظ الكاتب من خلال الحوار "بقاء البعض مستمد من فناء البعض الآخر. أسوب بشع للبقاء". وتمتلئ هذه الرواية بجملة كبيرة من مثل هذه الأفكار القيمة والآراء النبيلة والملاحظات القوية ليوسف السباعي الكاتب الكبيروالروائي العزيز.

---

٣٤ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٤٤

٣٥ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٩٨٢

إن نهاية هذه الرواية مكثفة بالإرشادات والرسائل وهي تبدو خطبة توعوية قيمة. أما رحاب رسالة الرواية لا ينحصر في عالم العرب فحسب بل في العالم أجمعه، بغض النظر عن الحدود المتواجدة بين البلاد والأوطان المختلفة وهذه السعة الإنسانية واضحة في تمتمات عبد الخير "العناصر المضادة للبشرية ليست هينة. ويجب أن نواجهها كوحدة. إن الجراثيم والأوبئة والزلازل، والسيول، والجوع وكل وسائل التدمير الكبرى التي تواجه البشر في الأرض ... يجب أن يتكاتف البشر لمواجهتها، وأن تسأل البشرية كوحدة عن كل فرد في كل مكان. عندما يموت إنسان جوعا في الهند، يجب أن يسأل عنه الإنسان في أمريكا وفي روسيا. عندما تفتك الزلازل بالبشر في تركيا، يجب أن يواجهها البشر في كل مكان. يجب أن تتحمل البشرية كلها مسئولية كل فرد فيها"[٣٦] ويتجلى في هذه الكلمات ما كان يعني الكاتب من كتابة هذا العمل الروائي الممتازوهو يريدها حل مشاكل الإنسان النفسية والبدنية وتزكية المجتمع من الأمراض النفسية مثل الأنانية والنفاق والفساد وغيرها وإصلاحه من التقاليد والعادات التي تضر وجود الكائنات فيه. وفي هذه الرواية يتحلى الكاتب بشخصيته الدينية حينا وحينا كما يتحدث على لسان عبد الراضي "الأمل في أشياء كثيرة، أكبرها أن الله موجود"، كأنه يريد أن يثبت أن إسلاميته لا تضعف وتفقده أبدا.

وتنتهي الرواية حيث تنطلق السفينة عودة إلى الأرض تحمل بضعة من البشر ... مجرد بشر. ما زال أصحابها – رغم كل شيء – يملأ نفوسهم أمل في البشرية بكل ما تملكه من إيمان بالله وإحساس بالحب، ورغبة في الخير، وثقة في العلم.

"العمر لحظة"

هذه الرواية من أهم روايات السباعي وآخرها أيضا. ومن ضمنها

---

٣٦ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٥٣٤

يحاول الكاتب أن يلخص كل ما عانى وواجه في حياته من الآلام والأحلام والأحزان وكل ما تكدّس في ضميره من الأفكار والفلسفات والنظريات. والرواية تتضمن عددا كبيرا من الفكر السياسي والتاريخي. إن الرواية تستمد أحداثها من الفترة المعروفة بحرب الاستنزاف.

وعلى أساس تجاربه في الجيش ومعرفته الواسعة بالأمم ومتابعته الدقيقة للأمور يتنبأ الروائي في هذه الرواية ببعض ما وقع في حرب أكتوبر ١٩٧٣م. بينما كان الآخرون يرون في هذا الوقت حلكة الهزيمة، أمكن للكاتب عبر هذه الرواية أن تكشف عن بصيص النور فيه كما أمكن له أن يمعن النظر في النار التي لا تزال تومض بغض النظر عن تكثف الرماد فوقها. ومما يدل على دقة يوسف السباعي في قراءة الأشياء وعمقه في الموضوعات السياسية والاجتماعية إعلانه العجيب من خلال هذا العمل الأدبي الرائع بأن روح القتال لدى الشعب المصري لم تمت بعد، وأنها لا تتوارى إلا لتتحفز وتنتقم. وبهذه الكمية من الملامح الفنية، أصبحت هذه الرواية من أفضل أعمال السباعي الروائية. وفي ميدان القتال، لا يشعر الجندي ولا المناضل بخوف الموت والانتحار خلافا للمناسبات الأخرى، لأن الموت وقت القتال من إحدى الضروريات القتالية فلا مجال للحيرة ولا للفزع. وليس الأمر كذلك في المناسبات الأخرى مثل المرض لأن المريض يعرف أنه سيموت قريبا ولا يملك ما يفعله حيال ذلك. والمناضل أو الجندي لا يكترث بنهايته وقت النضال. وفي ميدان النضال أو القتال يلوح الموت حقيقة واحدة باقية أبدية في حين يصبح العمر مجرد لحظة مقارنة بالموت وتصير الروح بلا ثمن مقارنة بالحقيقة المطلقة. والرواية تقص ميدان القتال ووضع الجند فيه "هنا نفكر في أرواحنا، إن عمرنا هنا لحظة، نكسبه فيها، أو نخسره".

الفصل الثاني:
خصائص روايات يوسف السباعي الأدبية والفنية

إذا دققنا النظر في الجانب الشكلي لروايات يوسف السباعي، نستنتج أنها تتميز على الوجه العام باتجاهين أساسيين -اتجاه الفانتازيا والاتجاه التاريخي كما يعبّر يوسف الشاروني[٣٧] خلال كلامه عن الشكل الروائي ليوسف السباعي. ولكن لا يمكن لنا غض البصر عن الاتجاه الثالث الذي تتسم به رواياته مثل "السقا مات" و"نحن لا نزرع الشوك".

الاتجاه التاريخي

إن جملة كبيرة من أعمال يوسف السباعي الروائية تلتزم بالاتجاه التاريخي، ريثما تستمد من أهم الأحداث التي وقعت منذ عام ١٩٥٢. ويجب الانتباه إلى أن الكاتب يوسف السباعي أوضح سبب اهتمامه بالاتجاه التاريخي في مقدمة أولى رواياته من هذه السلسلة – هي رواية "ردّ قلبي" ذلك أنه يجد نفسه أقدر الكتاب على تسجيل أحداث تلك الفترة بحكم خدمته في الجيش المصري واطلاعه على المشاعر التي أدت إلى وقوع هذه الأحداث وهو يقول "ويبدو لي سبب اهتمامي بهذه القصة ... هو يقيني بضرورة تسجيل الأحداث الخطيرة التي حدثت في تاريخنا المعاصر. وثقتي بأني – بصفتي العسكرية

٣٧ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٤٧

– أقدر الكتّاب على تسجيلها بحكم خدمتي في الجيش وإحساسي بالمشاعر التي أدت إلى حدوث هذه الأحداث التي غيّرت وجه التاريخ في مصر"[٣٨]

ثم يصارح الكاتب بإجهاده في إتمام هذا العمل الروائي قائلا "ولقد حاولت قدر ما أستطيع أن أدمج قصتي هذه في قصة الأحداث الواقعية التي حدثت فعلا ... حتى تبدو القصة كتلة واحدة"[٣٩] وكان يرى أن عدم التعبير عن تجربته الشخصية هو في الواقع التخلي عن مسؤوليته الحقيقية. وكان على دراية كاملة عن الثورة من كل جانب. وكان يستهدف من خلال كتابة الروايات التاريخية تضمين الأدب العربي القصصي واقعا من الممكن أن يغفل ويهمل.

ويشكل الروائي يوسف السباعي الواقع في قالبه الروائي المتكامل. وليس هذا بتجلية الفكرة "الفن للفن" بل من خلال هذا التصوير، يؤدي الكاتب واجبه التي بقي لمدة على عاتقه أو على عاتق أي كاتب من كتاب عصره. ويدرك الكاتب مهمته الأساسية هي تقديم الجوانب الإيجابية خلال هذا الصراع التاريخي. وينجم عن هذا الإدراك التام قيامه بمهمته التنبئية. وهذه المهمة تتجلى في جميع أجزاء الرواية وحركاتها منذ البداية. أما رواية "طريق العودة" التي نشرت في عام ١٩٥٦ فهي تعالج قضية فلسطين وتصوّرها ببساطة واقعية وصورة نضالية وإن العودة المنشودة كما نرى في العنوان توحي بعودة العرب إلى هذه الأرض المقدسة حيث تتنبأ بها.

ورواية "نادية" التي نشرت في عام ١٩٦٠ تتعرض للعدوان على بورسعيد عام ١٩٥٦ ومقاومته. و"جفت الدموع" تدور حوادثها في إطار الوحدة بين مصر وسوريا، بينما رواية "ليل له آخر" (١٩٦٣) تبدأ حوادثها قبل الانفصال وتنتهي بعده وتتنبأ بأن هذا الانفصال

٣٨ يوسف السباعي، رد قلبي، مكتبة مصر، ج ١، ص ٨

٣٩ يوسف السباعي، رد قلبي، مكتبة مصر، ج ١، ص ٨

أشبه بالليل الذي لا بد له من نهاية.[٤٠] تعد روايته "العمر لحظة" التي نشرت في عام ١٩٧٣ آخر ما نشر يوسف السباعي في هذا الاتجاه. وقد نجح هذا الأديب الكبير من خلال معالجته الفنية في تصوير حرب الاستنزاف التي وقعت في أواخر عام ١٩٦٩ وأوائل عام ١٩٧٠، وتنبأ فيها بما وقع خلال معارك أكتوبر ١٩٧٣. ولا بد أن نلاحظ هنا أنه أمكن ليوسف السباعي أن يكتشف بصيص النور في وقت لم ير فيه أحد غيره إلا نداء الهزيمة وجعلته سعة رؤيته السامية طويلة المدى قويا لأن يصارح بأن روح القتال لدى الشعب المصري لم تخمد وأنها لا تغيب إلا لتحيا من جديد وتنتقم من العدو اللدود.

إذا أمعننا النظر إلى روايات يوسف السباعي التاريخية نكشف أن الهدف منها ليس مجرد عرض الأحداث التاريخية في شكل روائي بل إن غرضها الرئيسي هو الكشف عن الجوانب الإيجابية خلال هذه السلسلة من الصراع التاريخي. وهذه المهمة تبتدئ منذ اختيار عناوينها. فرواية "رد قلبي" تتناول صراع الشعب في مواجهة الحكم المنحرف والملكية الفاسدة. ويحكي الروائي يوسف السباعي عن طريق قص قصة الحب، الأحداث التي تكاتفت لاقتلاع الملكية. فصحيح أن نقول إن لهذه الرواية دلالة مزدوجة – دلالة عاطفية ودلالة قومية ووطنية. ورواية "طريق العودة" تعالج قضية فلسطين وتنادي بتحريرها من القبضة الصهيونية وتتنبأ بعودة العرب إلى أرضها المقدسة. أما رواية "نادية" فتناقش العدوان على بورسعيد عام ١٩٥٦ ومقاومته. ورسالة رواية "جفت الدموع" هي الدعوة إلى الوحدة بين مصر وسوريا فتدور حبكتها في إطار هذه الوحدة الضرورية. وهنا أيضا نجد العنوان مزدوج الدلالة كما وجدنا في عنوان "رد قلبي"، فالدموع التي جفت يمكن أن تكون للمحبين

٤٠ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٥٧

ويمكن أن تكون للشعبين المصري والسوري حين تتحقق وحدة قلوب هذين الشعبين.

ويتنبأ يوسف السباعي في روايته "ليل له آخر" بأن الانفصال الذي شهده العالم العربي لا بد أن يكون له من آخر – يعني النهاية. وقد شبه الروائي الكبير هذا الانفصال باليل فالليل لا يستمرّ بل يمضي بعد وقت ... هذا هو المرجو في قضية هذا الانفصال، كما لا بد من أن يأتي الفجر بعد الليل. ورواية "ابتسامة على شفتيها" تتناول معركة الكرامة التي جرت بين القوات الفدائية والصهيونية في الأردن عام ١٩٦٨. وبطلها عمّار يستشهد خلال عملية فدائية أثناء المعركة بل تبقى ابتسامة على شفتيه. لا يهمّ الفدائيين مصير الأفراد، وبالنسبة إليهم ليس الموت بنهاية ولا هزيمة بل هو ثمن لا بد من دفعهم لتحقيق غايتهم. نحن في حاجة ماسة إلى تضحية أرواحنا لإثبات وجودنا في هذه الأرض. وهذا هو الرأي للفدائيين عامة.

والرواية الأخيرة ليوسف السباعي – العمر لحظة – تتراوح أحداثها بين عام ١٩٦٩ وأوائل ١٩٧٠ خلال الفترة المعروفة باسم حرب الاستنزاف. وقد شهدت هذه الفترة أروع وأقوى بطولات الجندي المصري. ومعارك هذه الفترة تتضمن معركة جزيرة شدوان وهي تعدّ دليلا على لصلابة الجندي المصري وشجاعته وتضحيته. ويقول يوسف السباعي في مقدمة هذه الرواية "لقد أحسست بضمير الكاتب أن تلك الفترة المشرقة في تاريخنا لا يمكن لأدبنا أن يعبرها في صمت. وحاولت من خلال الرواية أن أقول شيئا أنصف الجندي المصري والأدب المصري أمام التاريخ"[٤١] فقد أعلن الكاتب أنه كان في مصر خلال هذه الفترة أدباء تناولوا الموضوع بتفاؤل، رغم من كانوا يواجهون القضية بتشاؤم. فالأديب هنا أيضا أدّى واجبه – هو تسجيل الأحداث الخطيرة التي حدثت في تاريخ مصر المعاصر،

٤١ يوسف السباعي، العمر لحظة، مقدمة، ص

واثقا بأنه الأحق لذلك بصفته خادما في الجيش. وهو يقدم منهجه الروائي فيقول "ولقد حاولت قدر ما أستطيع أن أدمج قصتي هذه في قصة الأحداث الدامية التي حدثت فعلا حتى تبدو القصة كتلة واحدة"[٤٢]

ويلوح لنا بعد أن نكمل قراءة هذه الرواية، أنها لا تتناول لحظات حرب الاستنزاف المشرفة فحسب بل تتقدّم وتتنبأ باللحظات المقبلة من معارك أكتوبر ١٩٧٣ التي شهدت عرض الجراءة والفخامة للفدائيين المخلصين.

اتجاه الفانتازيا

إن اتجاه الفانتازيا يقدّم للكاتب حرية كاملة للإتيان في عمله بكل ما هو خارق للعادة في مزيج من الدهشة والفكاهة أو السخرية وهذا اللون من الاتجاهات الأدبية ليس بجديد في الأدب العربي فقد وجدنا الأديب المويلحي يلتزم بهذا الاتجاه في عمله الإبداعي المشهور الذي يعد من بواكير الأعمال الروائية الفنية "عيسى بن هشام" حين جعل الباشا بعد بعثه من الموت، يتجول بين الأحياء ويرحل إلى فرنسا ليقارن بين زمني الماضي والحاضر ويقوم بنقد الحاضر على ضوء الماضي. وهذا الاتجاه يكاد يغلب على النزعات الفنية ليوسف السباعي. وقد اعتبره الناقد غالي شكري رائدا لهذا الاتجاه في الأدب العربي المعاصر.

وكان هذا الاتجاه لدى يوسف السباعي ثورة شاملة تتضمن ثورته على المألوف وفكرته الثورية في البناء اللغوي والمحتوى العاطفي وما عداها من الأشكال والتراكيب كما يرى غالي شكري في كتابه "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي" وهو القائل "إن الفانتازيا عند يوسف السباعي ليست مجرد ثورة على المألوف والعادي لمجرد

---

٤٢ يوسف السباعي، العمر لحظة، مقدمة، ص

الإدهاش وجذب القارئ فقط، بل إنها لديه ثورة في البناء اللغوي والمحتوى العاطفي والتركيب النفسي والهيكل الفكري"[٤٣]

ولبيان تطبيق هذا الاتجاه عند يوسف السباعي، يجب أن ندرك مسبقا، أن الوفاة المفاجأة لوالده الحنون محمد السباعي الذي كان يحيط به من كل جانب وكان له مرشدا وصديقا ومشجعا ومسليا، في سن مبكرة، سبّب له صدمة نفسية عميقة الأثر. ولم يكن بإمكان يوسف السباعي أن يصدق فراق والده وأصبح من المفروض له أن يتجاوز هذا الحزن بإحساسه أن الفرقة لم تحدث بعد. وبهذه المناسبة قويت روحه وأطلق خياله في سبيله وعن طريق هذا الخيال الجليل، ظل يتخيل أباه حيا، لا يراه في منامه فقط بل يتمثله في يقظته، طارحا عليه أسئلة تخص بشؤون الدنيا وأسئلة تحيط بشؤون الآخرة. وهذا ما يتجلى في رواية "البحث عن جسد" ليوسف السباعي. وقد سلّط السيد خضر عباس الضوء على قوة هذا الخيال العميق ليوسف السباعي فقال "إن استغراقه في هذا الخيال جعل صور الموت والحساب وعزرائيل والجنة تستكين في أعماقه حتى أوحت إليه شكلا جديدا في القصص".[٤٤]

وفي هذا الإطار من الفانتازيا لروايات يوسف السباعي، تختفي الفوارق بين عالم الواقع وبين عالم الخيال. وهذا يكون أكثروضوحا في أعماله قصصية مثل البحث عن جسد ونائب عزرائيل بحيث يتحرك الأبطال بين الأرض والسماء بحرية وسهولة. "ففي الأولى تخيل الراوية نفسه روحا صعد بها عزرائيل إلى السماء، وقد حدث عجز في المستجدين بالحياة، إذ زاد عدد المواليد المطلوب إنزالهم إلى الأرض عن الأرواح التي تحل في أجسامهم، فاقترح عزرائيل على روح الكاتب أن تعود إلى الحياة الدنيا في جسد من أجساد أولئك

٤٣ غالي شكري، الفكروالفن في أدب يوسف السباعي، دار الفكر، ص ٩٥١

٤٤ عباس خضر، كتابنا في طفولتهم، كتب ثقافية، رقم ٩٨، ٠٦٩١، ص ١٠٠-١٠١

المستجدين، وترددت الروح بين الرفض والقبول. وبينما عزرائيل يغريه بما لقيه من أزهار في حياته حتى يقبل العودة إلى الحياة، كان هو يرفض معددا ما لقيه من أشواك في هذه الحياة."[٤٥]

وقد جرت روايته "أرض النفاق" أيضا على هذا المنوال. وهناك توجد الحركة بين عالمي الواقع والحلم، فالراوي يزور تاجر أخلاق بالجملة والقطاعي، ويقدم له صنفا من أصنافه البائرة – ذاك صنف الشجاعة والجراءة. وعندما تناوله جعلته الجراءة يقوم بأفعال لا يستطيع الآخرون تحملها لاستمرارهم في النفاق التقليدي. فلم يلبث أن ينزل البطل بهم حتى تورّط في خطر كبير وتعرّض لهجوم المجتمع عليه واضطهاده إياه. فالتعارض في الواقع ليس بينهما بل هو بين عين الحكمة وعين الجنون. وسرعان ما أعطاه تاجر الأخلاق جرعة مروءة بدلا من جرعة الشجاعة فعادت الأمور إلى نصابها. وفي هذه الرواية نرى عديدا من الصور التي تمثل الفانتازيا بحيث لا يمكننا القول أين الحلم وأين الحقيقة.

أما رواية "لست وحدك" فهي تحطم الفواصل بين عالم الأرض وبين عالم الفضاء. ويجري معظم أحداث الرواية في مركبة فضائية تحمل ستة أشخاص – عبد اللطيف الصحفي وعبد الراضي الساعي بالدار الصحفية نفسها وشهيرة مذيعة التليفزيون ووالدها عبد الخبير العالم المشهور وعبد القادر قائد السفينة وعبد المهيمن مهندسها. بعدما تعطلت السفينة تظل المركبة تدور حول الكواكب التي توجد لأهلها طبيعة نباتية على ما اكتشف عبد الخبير العالم المشهور وتجري حوارات ونقاشات بكثافة داخل المركبة حول نفاد الطعام والشراب والخيال يقودنا إلى مشاهدة تدخل الحاكم وقرار القائد والمهندس الخروج من المركبة.

---

٤٥ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٧٧

ورواية "لست وحدك" تستهدف نقد المذاهب السياسية السائدة في حضارة المجتمع المعاصر من ناحية، وتقدّم مدينة فاضلة من ناحية أخرى. وفي هذه المدينة الفاضلة تسيطر الكائنات النباتية التي تمثل شعبا بلا مشاكل، تضرب جذوره في الأرض لتجمع قوتها بلا عناء كما ينشر فروعه في الهواء ليلتقط ما يشتهيه بلا صعوبة. وفي هذا العالم الخيالي – الواقعي، لا يأخذ الجنس مأخذ الجد بحيث لا يثير أية مشكلات لأن النسيم يحمل حبوب اللقاح من الذكر والأنثى فتتلقاها بلا حياء ولا عيب لتخصب وتنجب. وهذا العالم السليم ذو السلام والأمان يدعو انتباه القرّاء بأسلوب جميل. وقد قارن هذه الرواية الناقد علاء وحيد بمسرحية "أشواك السلام" لتوفيق الحكيم ورواية "الساخن والبارد" لفتحي غانم. ثم يعلق الناقد على أسلوب السباعي في هذه الرواية واصفا بأنه "روح مضيئة تتمشى في عصب الكلمات، تتشكل من مرح وتفاؤل وحب للإنسان، لذلك فإن القتامة لا تلحق بما يكتبه قاصنا حتى والمأساة تبلغ ذروتها، وأداة قاصنا إلى هذا الأسلوب هو المزاج الشعبي الذي يعكس في المقام الأول تكوين يوسف السباعي".[٤٦]

٤٦ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٨٤١

المبحث الأوّل:
لغة يوسف السباعي الروائية

وفي مستهلّ حديثنا عن لغة يوسف السباعي، يكون من الأفضل أن نقتبس كلمات الكاتب غالي شكري في مقدمة كتابه "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي" وهو يقول إن لغة أدب يوسف السباعي "من عناصر الجذب التي تفسر لنا وجها من وجوه الرواج الذي تناله مؤلفاته، والرواج بين الشباب بصفة خاصة. فهي لغة شابة، تهمس ولا تصرخ، تأسر ولا تأخذ بالخناق، فتخلق إحساسا مغريا بأنك قارئ ممتاز بالتهامك الصفحات – الألف أحيانا – في نفس واحد، أي في ليلة أو ليلتين لأنها تستجيب لمقتضيات العصر وتنفذ إلى أعماق الجيل الذي تعبير عنه"[٤٧] إن الفكرة الصريحة في هذا المقتبس – أن لغة أدب يوسف السباعي ولا سيما لغته الروائية ذات التوازن التام بحيث يتجلى فيها الشباب والهمس والصراخ وهي تدعو انتباه القراء ليس إلى جسدها الظاهر فحسب بل مضمونها الداخل أيضا، إلى معانيها المكثفة معا. إن الوضوح والبساطة من أهم الصفات التي تلتزم بها روايات يوسف السباعي وحاول السباعي دائما أن يكون تعبيره باللغة العربية السهلة رغم تفضيله في بعض المواقف اللهجة العامية لحوار شخصياته حسب مستواهم. ونفضل هنا أن نقدّم بعض العبارات من مختلف رواياته حتى تصبح الفكرة مقنعة.

نقتبس أوّلا من رواية "ابتسامة على شفتيه" فالباب السادس

٤٧ غالي شكري، الفكر والفن في أدب يوسف السباعي، ص ١١

بعنوان "آه في الفجر" يبدأ بالعبارات التالية "وقف عمار بباب حجرة أبيه ينظر إليه في جزع وقد تلاحقت أنفاسه. ووجد أباه قد انحنى في الفراش ممسكا ساقه اليسرى بكلتا يديه وقد بدت على وجهه معالم ألم قاس يعتصره وقد وقفت أمه بجواره تتحسسه في ارتياح وهي مستمرّة في صياحها: ماذا بك يا عبد السلام؟ أخبرني ماذا حدث؟"[٤٨] ونشعر هنا بالسكينة والصراخ من خلال العبارات. ومما يدلّ على جمال لغته الروائية وقوتها الجلية وكثافتها المعنوية ما نرى من العبارة في هذه الرواية والكاتب يقص "ومرت السنون ... وطوى الزمن كل شيء في ماضيهم"[٤٩]

ونقرأ من الجزء الثاني لرواية "جفت الدموع" كلمات بسيطة واقعية يمكن للقارئ تلقي الفكرة بتصويرها في ذاكرته "ومرت بها فترة وهي تستعيد في ذهنها كل ما حدث. وأحست أنها تود لو استطاعت الفرار من المهمة التي اندفعت إليها"[٥٠] وفي هذه التعابير رسم لأفكار كثيفة في مجموعة من المفردات المعدودة. وعلاوة على ذلك، تتضح الفكرة بدون خفاء ولا تفكك.

وفي الحوار الذي يجري بين شخصيتين رئيسيتين – إبراهيم وليلى إبراهيم - في رواية "طريق العودة" التي تتغمد قضية فلسطين، ندرك اقتراب الكاتب للمجتمع الذي يمثله ويخاطبه فيقص:

"وسألت ليلى إبراهيم:

أهو جميل حقا كما وصفه لي؟

وأجاب إبراهيم:

أظنه سيعجبك، أو على الأقل سيكون مرضيا بالنسبة لغيره من

٤٨ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، دار مصر للطباعة، ص ٢٩

٤٩ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٢٣

٥٠ يوسف السباعي، جفت الدموع، دار مصر للطباعة، ج ٢، ص ١٦١

بيوت المنطقة[٥١]"

وفي هذا الحديث، يبدو كل شيء واضحا مثل الظهيرة.

أما في الرواية التي تتميز بالرحلة الفضائية والاكتشافات العلمية ألا هي – لست وحدك – فنجد لغتها توحي وتغري ألحان الشباب والهمس والصراخ نفسها. والحوار يغلب ويسيطر على عوامل لغتها كما نسمع عبد الخبير في حوار من حواراته يقول "ربما لا يعرفون، ولكنهم يحسون أن هناك شيئا فوقهم أقدر منهم، بنفوسهم لهفة على أن يحملوه – في كثير من الأحيان – مسئولية أنفسهم ومتاعبهم وخطاباهم، ويفزعون إليه في الضيق، يسألونه وقت الحاجة ... قد يتمثلونه في حجر أو في نجم."[٥٢]

وإلى جانب أن يوسف السباعي يلتزم بأسلوب روائي تمتزج فيه صفتا الفكاهة والجذب، يستمد هذا الكاتب الروائي تسهيلا لتشكيل أسلوبه الممتاز وتقديما للجمهور عمله الروائي، من أسلوب الحياة الشعبية. ففي رواية "السقا مات" مثلا، لا يلحّ الكاتب شخصيات الرواية البسطاء على استخدام أسلوبه الخص بل يطلقهم لاستخدام ما يناسبهم من اللغة في حواراتهم ونقاشتهم الجادة والعامة وهذا ما يلاحظه الدكتور محمد مندور قائلا "لم يحاول (يوسف السباعي) أن يفرض أسلوبه الخاص على أشخاصه البسطاء بل تركهم يتحدثون بلغتهم الخاصة مكتفيا بأن يدون ما استطاع أن يتسقطه من أحاديثهم الذي جاء طبيعيا حيا شيقا، مفصحا خير إفصاح عن عقليتهم ومشكلاتهم ومسراتهم وأتراحهم وما يعتزون به من تقاليد"[٥٣] وهذا اللون من اللغة يدلّ ضمنيا على العلاقة الوطيدة بين الأديب يوسف السباعي ومجتمعه، لأن الأديب

٥١ يوسف السباعي، طريق العودة، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ص ٧٧

٥٢ يوسف السباعي، لست وحدك، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ص ٢٣٣

٥٣ غالي شكري، الفن والفكر في أدب يوسف السباعي، دار الفكر، ص ٤٦-٥٦

الذي يبتعد عن مجتمعه لا يمكنه تطبيق اللغة على أشخاص رواياته حسب هوياتهم المختلفة. وقد تابع يوسف السباعي في حياته حركات مجتمعه من الألف إلى الياء، فأتت هذه المتابعة المستمرة والدقيقة بأكلها في لغة رواياته المتعددة الجوانب.

والحديث عن لغة الروايات ليوسف السباعي لا ينتهي بدون الإشارة إلى بعض الانتقادات التي تعرضت لها فقد تناول الناقد الكبير أنور المعداوي لغة يوسف السباعي في رواياته مدعيا "أنه لا يحتشد للغته الاحتشاد الذي يرضيه كقارئ حتى يقول إن السرعة جناية على الفن والفنان وإرهاق للكلمة القاصة يجعل منها آلة يفسدها العمل المتواصل"[٥٤] ولكن عارض عباس خضر هذا الرأي فأكد أن أسلوب يوسف السباعي انطلاق على السجية، وأنه عندما ينطلق في الكتابة فكأنه يحدث صديقا لا كلفة بينه وبينه، فهو يتحرّر من القيود التي يتقيد بها كثير من الكتاب. ويمكن أن نستنتج من هذه المجموعة من الملاحظات التعليقات أن اللغة الروائية ممتازة تلقائية مبنية على السجية وهي لا تتصف بالتصنع والحوارات والمناقشات في الرواية تنطلق حسب مستويات الشخصيات الروائية بدلا من فرض الروائي لغة خاصة عليهم. وهذه اللغة تلامس المجتمع من جميع جوانبه.

ولا نستغرب أن يوسف السباعي لم يرجع إلى المصحح اللغوي لتصحيح أخطائه اللغوية وإزالة مخالفات اللغة لأنه فضّل تقديم ما كتبه بدون التصنّع إلى قرائه وجمهوره مباشرة. وفي نفس الوقت لا بدّ أن نوافق على تواجد أخطاء لغوية في روايات يوسف السباعي كما تحدثت عنها بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن بعد اطلاعها على رواية "أرض النفاق" إلا أنها اضطرت إلى تغيير رأيها حين قرأت

---

٥٤ غالي شكري، الفن والفكر في أدب يوسف السباعي، دار الفكر، ص ٧٩

الرواية المذكورة. وهي تقول "فقد فرض الكتاب نفسه علي وانتزع استجابتي على الرغم مني، فاندمجت شيئا فشيئا في عالمه، ورحت أتابع الكتاب وهو يكشف أثواب الرياء واحدا في إثر آخر، عن أبطال الملعب الكبير في أرض النفاق".

المبحث الثاني:
البناء الروائي عند يوسف السباعي

إن من أهم الميزات التي تتحلى بها روايات يوسف السباعي تماسكه بشكل يبدو هندسيا إلى حد كبير. فالشخصيات لا تنفصل في باكورة العمل الروائي إلا لتلتقي وتلتحق بعد ذلك على مستويات جديدة بعد أن مضت الأيام وتقدمت الأعوام بكل منها. وهكذا تتشابك خيوط حبكة الرواية وتتبلور حول الشخصية أو الحدث الرئيسي. وقد أقرّ بهذا يوسف السباعي نفسه حيث قارن بين روايتيه "السقا مات" التي رأت النور في عام ١٩٥٢ و"نحن لا نزرع الشوك" التي ظهرت أمام القراء في عام ١٩٦٨، وقال "إننا إذا قارنا بين هاتين الروايتين نجد "أنني وضعت في "السقا مات" أحداثا وأوصافا قد تبدو زوائد ولكني شعرت أنني يجب أن أضعها في الرواية، أما في "نحن لا نزرع الشوك" فهي من ناحية الهندسة القصصية أكثر إحكاما، ليس فيها زيادات مما لا تتطلبه حاجة القصة". والجديد بالذكر هنا، أننا نجد يوسف السباعي يجعل نهاية معظم رواياته في طريقة محبوبة إليه حيث يجمع في النهاية الخيوط التي تفرقت أثناء تطوّر الحبكة عبر الأحداث والشخصيات. فهو يفضل أن يقدم للأمور خاتمة بدلا من أن يتركها مفتوحة أمام خيال القراء. وهو الملتزم بهندسة البناء الروائي، والمؤمن بأن كل بداية لا بد لها من نهاية.

ومن الملاحظ أن يوسف السباعي ركز على تسلسل أحداث روايته

زمنيا، وتشكيل إيقاعها منتظما، وجعل أفكار شخصياته وأحاديثهم واضحة معقولة لبقائهم في صحوة تامة بحيث لا يحلمون ولا يهذون حتى في أشد حالات أزمتهم. وقد احتذى يوسف السباعي اتجاها ظهر بعد عام ١٩٥٢ في الأدب المصري المعاصر، ذلك – اختيار الكتاب الأماكن خارج مصر لوقوع أحداث رواياتهم. ونافلة القول، أن هذا الاتجاه الفني يدلّ على مدى اهتمام كتاب العرب بالعالم الخارجي واختلاطهم بدوله وأهله. وقد أصبح هذا تجارب جديدة للأدباء الفضلاء. ورواية "نادية" ليوسف السباعي تقع أحداثها في فرنسا، بينما تقع أحداث رواية "جفت الدموع" في سوريا. وهناك روايات تقع أحداثها في دولتين مثل "ليل له آخر" فسوريا وإنجلترا تشهدان لأحداثها بينما فلسطين والأردن تشهدان أحداث "ابتسامة على شفتيه". وهذا البناء الروائي يضيف إلى جودة الروايات وسعتها ورحابتها وتزيدها زينة وجاذبية.

يمكن أن نجد صلة متينة بين رويتي "السقا مات" و"نحن لا نزرع الشوك" في الشكل الروائي المحكم الذي تتصف به هاتان الروايتان بصورة أكثر تألق من روايات يوسف السباعي الأخرى، إلى جانب علاقتهما في تقديم فكرة الموت تكرارا. ومما يأخذ بقلوبنا أكثر في هاتين الروايتين التماسك المعماري الذي يبدو هندسيا إلى حد كبير حين تتشابك جميع خيوطهما من البداية إلى النهاية. أما الشخصيات الرئيسية في كلتا الروايتين فقد تم اختيارهم من أدنى السلم الاجتماعي. والحوار فيهما يجري بلغة عامية في معظم الأحيان وتبقى بعض الكلمات المستخدمة في السرد عامية. والصدفة في هاتين الروايتين أنهما تتضمنان ثلاث وفيات فجائية.

والجدير بالذكر هنا أن البطولة في روية "السقا مات" لا تنفرد بها شخصية وحيدة خلافا لروية "نحن لا نزرع الشوك" التي تتكون حبكتها من حركات وتنقلات شخصيتها المحورية – سيدة جابر.

فأولاهما أقرب خطوة إلى الاتجاهات الروائية المعاصرة في الأدب الغربي حين يوجد في رواية واحدة أكثر من شخصية لتتحلى البطولة فيها. ومما يفرّق بين هاتين الروايتين، أن رواية "نحن لا نزرع الشوك" تتسم بتداخل أسلوب المخاطب من حين لآخر. وبالإجمال، فإن أسلوب رواية "نحن لا نزرع الشوك" واضح منطقي، يؤثر التفصيل. إن الإيقاع والتسلسل الزمني منتظمان ومرتبطان لكون شخصيات الرواية يبقون في حالة يقظة دائمة ولا يحلمون ولا يهذون. أما الزمن فيتم التعبير عنه بالإضافة إلى تطور الشخصيات وتقدمهم في السن وموتهم، خلفية تاريخية تتواجد في الرواية من حين إلى حين في صورة كلمة هنا وهناك. وهذه التطورات الزمنية جلية في صفارات إنذار الحرب العالمية الثانية وفي التعليقات التي تتناول حرب فلسطين عام ١٩٤٨وفي الحديث عن قيام الثورة وحرب السويس والسد العالي.

ويقول الكاتب يوسف الشاروني تلخيصا لحديثه عن رواية "نحن لا نزرع الشوك" وتقديرا لها بأنها "ثمرة تضافر جهد وموهبة وخبرة روائية لا شك فيها – وتثبت من جديد أن كل عمل فني يعبر دائما عن هذا الجدل بين أعمال الفنان السابقة ومحاولته تقديم جديد يضيف إليها ويتجاوزها فلا هو منفصل عنها ولا هو تكرار لها. إنه كالوليد الجديد مشابه لإخوته ومتميز عنهم، وهذا هو الذي يهبه وجوده الفني الخاص به ويمنحه مذاقه ونكهته"[٥٥]

الميتافيزيقية في البناء الروائي ليوسف السباعي

ومن الجدير بالذكر هنا، أن البناء الروائي ليوسف السباعي يتميز في بعض الأحيان بتطور حبكته الميتافيزيقي ففي رواية "نحن لا

---

٥٥ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٧٠١

نزرع الشوك" هذا الأمر يكون أكثر وضوحا. إن تطوّر الحبكة فيها مبني على أساس عيشة غريبة لبطلة الرواية هي – سيدة جابر، فالتغيرات التي تتعرّض لها حياة هذه البطلة تساعد الرواية على تقدّمها وتطوّرها حتى تكتمل بشكل روائي جميل. إن رحلتها من أدنى درجات السلم الاجتماعي إلى أعلى درجاتها ثم سقوطها مرّة أخرى تشبه بطلا من الأبطال التي توجد في الأساطير الإغريقية الذين يبذلون قصارى جهدهم للتخلص مما أطّرت لهم الآلهة من مصير، ولكن تبوء تلك الجهد بفشل تام. ومثل ذلك، يحدث مع سيدة جابر، وبالرغم من تمرّدها على النظام الظالم وعلى الظروف الاجتماعية المستغلة، يلعب القدر دورا هاما في حياتها حين تنتهي جهودها ومغامراتها في نقطة بدأتها منها. وهي تتورّط في الخطر كما تورّطت فيه أبطال مأساوية أخرى.

وزواجها مرتين من شخصين مختلفين لا يحرّك ساكنة في حياتها بل يدفعها إلى خطر أكثر مأساة. وهي تضطر إلى تضحية جسدها ومالها لزوجيها. وكان كل منهما يستغلها قدر الإمكان كما كانا يستوليان على ما ادخرته من الأموال. والزوج الثاني عباس البرعي يكدس حصيلة احترافها بجسدها بعد أن أوهمها أنه سينشئ مطبعة جديدة بينما كان ينفقها على الغواني والقمار. والقدر أو المصير يلعب دورا بارزا في هذه الرواية. واجهها القدر مباشرة في كل لحظة وقوفها ونهضتها حتى قضى على طفلها الوحيد الذي كان بإمكانه أن يكون الأمل الوحيد والأخير. فتلقت نهايتها المحتومة التي لا تبتعد كثيرا عن بدايتها. أما اللاعب الكبير في تطوّرات حبكة الرواية الميتافيزيقية فهو القدر لأن محاولات البطلة للانفلات من قبضة القدر تنتهي فيما لا تتوقعه ولا تتمناه.

وهذه السلطة للقدر ندركها في معظم روايات يوسف السباعي كما نرى في حديث الدكتور توفيق مع إبراهيم بطل رواية "فديتك يا

ليلى" بعد أن شرح له سر اضطرابه العقلي "نحن يا أخي لا نستطيع في حياتنا أن نسيطر على إرادة القدر ولا نملك إلا أن نؤدي واجبنا في حدود قدرتنا ... ثم نخضع لما يفرضه علينا صاغرين" وهذا الوجه الميتافيزيقي الذي يمثله القدر في هذه الروايات يتميز بتعبيره عن حدود نهضة بعض الذين يعيشون في الطبقات السفلى من السلم الاجتماعي ومدى عجزهم عن التخلص من واقعهم وذاتيتهم، حتى بعد أن شمروا عن ساقهم كما يتجلى ذلك في مسيرة سيدة جابر.

ولكن لا يمكننا الإنكار أن حياة سيدة جابر شهدت انتصارات بسيطة كازدهارها عن طريق مهنة البغاء وولادتها لطفل بغض النظر عن فقدانه في وقت لا يرجى وتخلصها من البغاء عبر زواجها زوجها الثاني أنور بك. ولكن هذه الانتصارات لم تكن قادرة على تجاوز القدر الذي أتى إليها بآلام وأحزان غزيرة. وهي تستنج من تجاربها التي ذاقتها خلال بحثها عن الحرية أن الحرية الحقيقية هي الموت. أما تحررنا من شيء فهو لتعرضنا لشيء آخر فليس لنا سيادة ولا حرية في هذه الحياة الفانية.

والطبيعة الميتافيزيقية في روايات يوسف السباعي تتكون من ثلاث دعامات هي – كما ذكرنا آنفا – الجدل بين القدر والإنسان، والجدل بين الحرية والعبودية والجدل بين الموت والحياة، وهذا الأخير هو الأهم منها. إن الموت والحياة تمثلهما الشخصيات الروائية في مناسبات ومواقف مختلفة. وفكرة الموت – والموت الفجائي بشكل خاص – تشكل الفكرة الرئيسية في أعمال يوسف السباعي كما نرى في قصته القصيرة "نائب عزرائيل"[٥٦] فإن جميع الأشخاص التي توجد أسماؤهم في القائمة مع عزرائيل ليقبض أرواحهم، كان موتهم مقررا ليتم فجائيا وعددهم ٢١ شخصا. وإلى جانب ذلك، إن حوادث الموت الأخرى في هذه الرواية حوادث موت فجائي كالطبيب

٥٦ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٦٥

الذي يقوم بعلاج المريض بل يخضع للموت قبل مريضه والعروس التي ماتت فجأة قبل زفافها.

أما السبب الرئيسي لحضور فكرة الموت – والفجائي بشكل خاص - بهذه الوفرة في روايات يوسف السباعي فهو كما أشرنا إليه مسبقا - حياته وما تجرّب فيها من آلام الفرقة والفراق. وهو يقدم لنا مفتاح اهتمامه بمشكلة الموت متبادلا ذكرياته حين توفي والده وفاة شبه فجائية فقد تركت حياته بصمات مشرقة ومؤسفة على حياتها. وهذا يكون واضحا في رواية "البحث عن جسد" ليوسف السباعي.

ويساعدنا الكاتب على ناحية أخرى للموت فهي ليست سلبية بل هي إيجابية. إن الموت مصدر رزق لعدد من الناس كالحانوتية وصبيان الحانوتية. فالموت منبت فرحة وحزن في وقت واحد. الموت يحزن بعضا من الناس بينما يسرّ بعضا آخر. وربما تقدم الكاتب بهذا التباين الحقيقي، نقدا اجتماعيا لضروريات الحياة المتباينة ونقدا للتجارة التي تجد في مأساة الآخر رواجا وأرباحا. وهذا المنهج من النقد مبعثر في أعمال يوسف السباعي. وخير مثال لهذا ما نرى في عمله القصصي "نائب عزرائيل" "أصبحت أشبه بالحانوتي الذي تضحكه الجنازات"[٥٧]

وقد مات راوي هذه الرواية نفسه في حادث ترام. ويدرك هذا الراوي أن عودته للحياة ستضايق أهله لقبولهم مسبقا مبلغ التأمين على حياته. وعلاوة على ذلك، هم في انتظار الحصول على عشرة آلاف جنيه عن طريق القضية التي رفعوها في المحكمة ضد شركة الترام، تعويضا لهم عن ضياء نفسه الكريمة العظيمة. وأمر المشيعين ليس بمختلف كثيرا من هذا. فإذا تابعنا حديثهم، لتبين لنا همومهم ومشاغلهم التي لا تمتّ إلى وفاة الميت أوتعزيته بصلة. وبالرغم من

٥٧ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٦٩

أن الروائي يوسف السباعي يقدّم هنا الواقع على شاكلته، إلا أنه من ضمنه ينتقد الاستغلالات الاجتماعية انتقادا لاذعا. ويشير إلى أن المال هو الهدف الأعلى للمجتمع البشري فلا يستحيي الإنسان في القيام بأي عمل أو جريمة لتحقيق أغراضه المالية.

ويعلن الكاتب يوسف السباعي مرات أن الموت ظاهرة طبيعية يجب أن نتلقاها ولا نقلق منها. فالمطلوب منا لمواجهة موت أحد من أقربائنا وأصدقائنا هو الصبر والبقاء في القيام بواجبنا، كما صرّحت به رواية "السقا مات" خلال حديث المعلم شوشة مع ابنه في شأن موت والدته خلال ولادته ... "هذه أشياء تحدث كثيرا في الحياة فيجب ألا ننظر إليها على أنها مآس قد خصنا بها القدر. فيجب أن نعرف أن هذه سنّة الحياة وطبيعة الأشياء ويجب ألا نعتبرها مفاجأة بل نتقبلها بالصبر، ونواصل السير لنقوم بواجبنا حتى يصيبنا قضاء الله"[٥٨] وحاول يوسف السباعي أيضا أن يقدم طريقة مواجهة الموت بالأسلوب الفكاهي أو الأسلوب الساخر كما نراه يهدي عمله الأدبي "نائب عزرائيل" إلى سيدنا عزرائيل الجميل.

ويمكن الملاحظة حينما نقارن فيما بين تناول الكاتب الموت ومواجهته في روايتيه المختلفتين – هما "السقا مات" و"نحن لا نزرع الشوك"، أن أسلوب الروائي يوسف السباعي في مواجهة الموت قد تغيّر أساسيا خلال عشرين عاما. أما أسلوبه الذي حاول من خلاله مواجهة الموت في رواية "السقا مات" فهو أسلوب الفكاهة والسخرية. وأسلوبه الذي استخدمه لمواجهة الموت في رواية "نحن لا نزرع الشوك"، ليس مثل السابق حين يبدو كأنما الموت بأحزانه يتغلب في النهاية على الحياة بفكاهتها. ففي الأولى، يدرسنا الكاتب أن نقف أمام الموت متفائلين بينما الثاني يعلمنا خطورة الموت وقباحته حتى نواجهه متشائمين. وبالإجمال، يمكن الملاحظة إننا

٥٨ يوسف السباعي، السقا مات، ٢٥٩١، ص ٤٦٣

نجد يوسف السباعي في كل من رواياته يسير أغوار حقيقة الموت وكأنه قد أخذ على عاتقه كشف أسرار هذا الكيان الأسطوري النظري نازعا عنه القناع واحدا بعد واحد، تلك الأقنعة التي يرتديها الموت والتي يخفى على الجميع ما وراءها. وهذه المعالجة للموت من خلال الأعمال الروائية الرائعة تعجبنا كثيرا وتحضنا على مطالعتها. فالفضل يرجع إلى أسلوب الكاتب الرائع وإلى أفكاره المتسمة بالتنوع والطرافة. فلا غرابة فيما نسمع على لسان بطل من أبطاله قائلا "أجل لقد عودنا الموت أن يكون طائشا أحمق. فهو زائر لا معاد له، يزورنا بسبب وبلا سبب." ولا ننسى بهذا الصدد، أن الروائي السباعي أهدى روايته "نائب عزرائيل" إلى عزرائيل نفسه وقد كانت ليوسف السباعي الأسبقية في إهداء الكتاب إلى عزرائيل ويقدم هذه الفكرة عبر سؤال بسيط "هل سبق لغيري من البشر أن أهدي لك كتابا؟" بعد أن بدأ كلمة الإهداء بكلمات أخاذة فقال "إلى سيدنا عزرائيل .... الجميل! !"[٥٩]

ونستنتج من ربطنا بين الموت الذي يواجهنا في روايتنا وبين فكرة الموت التي تظهر في الرواية فينة بعد فينة، أن الموت – والموت الفجائي بالخصوص – ليس مجرّد صدفة تحدث في السياق الروائي للانفلات من ورطة، بل أن له وظيفته الروائية إلى جانب ما له من دلالة ميتافيزيقية. والموت في معظم الأحيان إشارة من الإشارات أو تنبيه من التنبيهات لتغير الزمان. فكل من الموت والولادة يدل على حركة الزمن ومروره بشكل أو بآخر. والموت في بعض روايات السباعي يحدّد مراحلها وفتراتها. وقد أصبحت وفاة سيدة جابر نهايتها شخصية وفضلا عن ذلك، كانت نهاية الرواية معا. وموت ابنها جابر أصبح صدمة لا يمكن أن تتحملها سيدة جابر، فلم يكن سهلا عليها - خلافا للصدمات السابقة – أن تنهض من جديد وتعود

٥٩ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٣

إلى لون جديد من الحياة.

وعندما نأخذ بعين الاعتبار الصدمات التي شهدتها حياة سيدة جابر، نفهم أنها كانت تكمّل حياتها والسيرة الذاتية لها كما هي العادة في واقع حياة الإنسان. فنشأة سيدة جابر، وتطوّرها وتحوّلاتها في الحياة لا تبدو غريبة ولا عشوائية بل بالعكس تقرّب الرواية من الواقع وبالتالي تسهّل القراءة إدراكها جيدا ثم تصويرها ذاكرة. وهذه الرواية – نحن لا نزرع الشوك – تستهلّ بمأساة هي وفاة جابر الأب، وتنتهي بمأساة هي وفاة جابر الابن. وبالرغم من أن عايدة في رواية "إني راحلة" تقرر الانتحار لأنها لم تعد تتحمل سخرية القدر مرة أخرى، إلا أن هذا القرار للموت بدلا من الحياة قدر المستطاع يقدم في النهاية أفكار التشاؤم وكان من الأفضل أن تفيد نهاية الرواية ثقة بالنفس والقوة لمواجهة التحديات مهما كانت شدتها. وهذه النهاية المأساوية لا تثير أبدا الأفكار المتفائلة في قلوب القراء أو الجمهور.

المبحث الثالث:

يوسف السباعي فارس الرومانسية

والواقع أن إمكانية يوسف السباعي ككاتب كبير تتضح أكثر وضوحا في رومانسياته بما فيها "إني راحلة" و"الأطلال" وكأنه كان على يقين أهمية الكتابة للقراء المنتمين إلى الجمهور العريض لا لنخبة القراء. فلا غرابة في إضافتنا إياه، تصنيفا، في خانة واحدة مع زعيمي الرومانسية الآخرين مثل إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله. وقد جاءت الفانتازيا الفاجعة في الأعمال الأدبية ليوسف السباعي تجسيدا عميقا للرؤية الرومانسية للمأساة التي نجمت عن الصراع بين القيم القديمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة. وهذا الصراع الثوري شامل للبناء اللغوي والتركيب النفسي والهيكل الفكري والمحتوى العاطفي. وروايتا "نائب عزرائيل" و"أرض النفاق" أفضل شاهد على ذلك. والكاتب المشهور مرسي سعد الدين تناول أدب يوسف السباعي من هذه الزاوية جيدا ويقول في مقدمة الكتاب "يوسف السباعي فارس الرومانسية" أن يوسف السباعي لم يكن مجرد كاتب رومانسي بل كانت له رؤية سياسية واجتماعية في رصده لأحداث مصر. وبعض النقاد وصفوا أعماله باعتبارها نهاية لمرحلة الرومانسية في الأدب.

ويكون من المنشود أن نقف هنا قليلا مع رواية "إني راحلة"، هي من أفضل روايات يوسف السباعي التي عالجت قضية الحب محورا رئيسيا لها. وصفة رومانطيقية الأفكار من أبرز صفات

الرواية لأن الحب هو من أهم أفكار الرواية الرئيسية كما هو من أولويات الرومانطيقية فلحظات الرومانطيقية بمجملها تقدم لحبكة الرواية جمالا وزخرفا وجذابة ورشاقة ومن هذه اللحظات الروائية الجميلة الرائعة قول أحمد لعشيقته عايده في يوم زواجها مع تهاني (توتو) "إني لا أريد منك شيئا، لا شيء مطلقا، وسأحاول أن أهب لك هبة لا أشك أنك في حاجة إليها، إني أستطيع أن أمنحك اسما، ولا مالا، ولا بيتا، ولا بنين، ولكني أستطيع أن أمنحك صداقتي .. أو حبي الصامت الذي لا أريد له مقابلا"[٦٠] ونجد فكرة الحب تطلع وتغيب من حين إلى حين في أول محاولة روائية ليوسف السباعي هي نائب عزرائيل والكاتب يعرف الحب بأنه "شيء لا بد منه لكل كائن حي ... إنه كالهواء الذي نتنفسه ... ولا بد من الحب ما دامت الحياة ... وليس في هذا الكون من لا يشعر بالحب ولا يحتاج له إلا الجماد."

ونجد في هذه الرواية الحب يتجسد بقوته الكاملة ورونقه الأخاذ كأنه حقيقة أثبت كينونتها المكتملة فبطلة الرواية تقول "فإذا أتينا إلى الناحية الواقعية فأقسم لكم أني جنيت من المتعة في ليلة واحدة ما لم أجنه في شهور وسنوات ... إنها مسألة تفاهم وتجاوب قبل كل شيء. ليست مسألة أوتوماتيكية، ولا هي بجسد يلصق بجسد، بل هي قبل كل شيء، تبادل مشاعر، وانسياب عواطف. هي جو زاخر بالأحاسيس والانفعالات والحنين والحب واللهفة والشوق. هي أنفس تذوب وقلوب تتحلل، وأرواح تختلط وتمتزج، وما عدا ذلك فهو عبث وهراء، وعمر يذهب سدى." وهذه العبارات تحمل في طياتها شرحا كاملا للحب وهو يشتمل على تعاريفه ومشاعره وأفكاره. وهذه الكلمات تأخذ بقلوب القراء بمجرّد أن يطلعوا على هذه العبارات. نجد الحب الحقيقي يبلغ ذروته عندما تعبر عايدة بطلة رواية "إني راحلة" عن حبها الخالص لمعشوقها بعبارات ثورية

---

٦٠ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة، ص ٤٩١

يتجلى فيها نقد اجتماعي لاذع، هي "ليفعل الناس بموتاهم كيف شاءوا ... أما أنا فسأفعل بميتي الحبيب، ما يحلو لي، لن أتركهم يأخذوه مني"[٦١] وهي تقبله في هذه اللحظات الأخيرة لحياتها. ومن أجمل الكلمات الرومانسية التي تمتزج بالواقعية المأساوية ثرثرات عايدة بعد وفاة عشيقها فهي تقول "إني لن أستطيع أن أبقيه، ولكن أستطيع شيئا آخر، أكثر سهولة.

إني أستطيع أن أذهب معه!

أجل ... تلك هي خير وسيلة، لكي لا نفترق"[٦٢] فقد انتهت عايدة إلى قرارها النهائي بعد أن دورت في خاطرها جميع احتمالات في مثل هذه المناسبات المفجعة للغاية فلا عيب فيها حيث حاولت للبقاء والخلود. وإلى جانب ذلك، شعرت بعد هذا القرار بالراحة والاستقرار. وتقص قصتها مدافعة عن نفسها ثم تشعل النار في المكان وتتعرض لها حتى ترقد بجوار حبيبها الفقيد الراحل.

ومما يستحق الإشارة بهذا الصدد، أن بعضا من النقاد مثل غالي شكري لاحظوا أنه تمثل روايات "إني راحلة" و"بين الأطلال" و"فديتك يا ليلى" مرحلة الأسطورة الرومانسية. أما البناء الأسطوري الذي تتسم به هذه الروايات فذلك البناء العاطفي أو الاجتماعي المحكم المغلق حيث يعرض قضية الحرية في حضارة متخلفة مقهورة. وقد شخّص غالي شكري هذه الروايات وحدد العناصر الرومانسية في البناء الروائي ليوسف السباعي بالخيال والحلم الماضي والمستحيل، وبين أن في تلك الصياغة الروائية يشترك المكان كالشرفة والشخصيات كالفارس. وهذه الروايات المذكورة أعلاه بحار تسبح فيها الأفكار الرومانسية مع قوة سامية وحيوية كاملة. ولذا قال عنه علاء الدين وحيد: أنه "من أشهر

٦١ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٦٠٣

٦٢ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٠١٣

الأدباء العرب الذين يكتبون في الحب إن لم يكن أشهرهم"[٦٣] ومن السهل أن ندرك رومانسية الأديب يوسف السباعي من كلامه التالي ألا هو "يقولون: أن الأذن تعشق قبل العين أحيانا وأزيد على قولهم أن الذهن قد يعشق قبل الأذن وقبل العين"[٦٤] فالحب عمل القلب وتقارب القلوب. وعلى الرغم من أن انعكاساتها تظهر على جميع جوارح الإنسان، إلا أن القلب أو الضمير هو مركزه ومنبعه. وقد تحدث الكاتب السباعي عن الحب بحرية كاملة وبطلاقة عجيبة.

وبهذا الصدد، لا بدّ أن ننتبه إلى الكثير من النقاد الذين يرون أن لقب فارس الرومانسية للسباعي ليس بلقب مناسب، رغم جملة من رواياته الرومانسية المذكورة أعلاه، التي نجحت الأفلام في تجسيدها إلى حد كبير، لأن الأعمال الأدبية ليوسف السباعي لا تنحصر أبدا في حدود الرومانسية فحسب بل بعض من أعماله تتجه إلى الأدب الواقعي، مثل روية "السقا مات" التي تعرض الواقع المصري مع تحليل الموت بسخرية وبعض المجموعات القصصية مثل "يا أمة ضحكت".

---

٦٣ علاء الدين وحيد، يوسف السباعي بين الأيام والليالي، الكتاب الذهبي، روز اليوسف ٩٧٩١ ص ٨٨١

٦٤ يوسف السباعي، اثنتا عشرة امرأة

المبحث الرابع:
تقنيات السرد الروائي

إن من العادة للروائيين أن يوظفوا مختلفة تقنيات البناء الفني في كتابة أعمالهم الروائية وهذه التقنيات تشتمل على الاسترجاع والتشخيص والتنبؤ والتوقع والمفاجأة والحوار ومن الملاحظ أن يوسف السباعي لم يبخل في استخدام مثل هذه التقنيات السردية. أما تأديته في توظيفها فهي متفاوتة حيث نجح إلى حد كبير في توظيف بعض منها بينما لم يبلغ إلى المستوى المنشود في توظيف بعض آخر منها.

وإذا أخذنا رواية "إني راحلة" في حسبان قالب فني ممتاز نجدها تنقص في بعض الأمور. وقد نجح الروائي في تقديم شخصياتها إلى حد كبير ولكنه لم يذق نفس النجاح في توظيف التقنيات الحديثة مثل الاسترجاع ولا يباشر القارئ الثقافة الواسعة لهذا الأديب الوزير الكبير خلال تصفح سطور هذه الرواية وهنا تتحدث عايده عن معاملاته لأحمد في مرحلة من مراحل الرواية "كنت أفعل هذا وأنا أشبه بفقراء الهنود يعذبون أنفسهم دون مبرر"[٦٥] هذا الاستنتاج عن فقراء الهند ربما تطرح أسئلة وشكوكا مثل هل يطبق هذا على فقراء الهنود وحدهم؟ أو هذا الاستنتاج صحيح في ذاته؟ وبالجملة ليست هذه الملاحظة قوية لإقناع القراء. وبعض المواقف للكاتب في الرواية تظل ضعيفة لتحيا بعد زمانه أو جيله فهي تخلف نقصا

٦٥ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ١٧

على قوة تنبأ الأشياء. ومما يزعج تقدير الرواية أن أحداث الرواية تسير في معظم الأحيان كما يتوقع القارئ لقلة لحظات المفاجأة والمصادفة فيها وهذه طبعا تشين في جدارتها وجذابتها.

رسم الشخصيات (Characterization)

إن مستوى رسم الشخصية لدى يوسف السباعي يتفاوت من رواية إلى روية أخرى. وقد نجح السباعي في تقنية التشخيص بشكل عام، حيث تبقى في ذاكرة كل من ينهي قراءة رواية من رواياته شخصيات محورية ورئيسية بصورة واضحة مثل شخصية عايدة في "إني راحلة" ونعمت بطلة الرواية "العمر لحظة" وسيدة جابر في "نحن لا نزرع الشوك" وعمار في "ابتسامة على شفتيه" وإبراهيم في "طريق العودة" وغيرهم. وكل هذه الشخصيات لا تبقى في ضمائرنا حين نفرغ من القراءة فحسب بل هي تتجسد فينا لمدة طويلة. وجسد السباعي من خلال أعماله الأدبية المتنوعة عددا كبيرا من الشخصيات والأحداث إلى حد أنه جعل الجمهور يتفاعل معها ويتعاطف لها. وحظي معظم أعماله الروائية بقبول حسن وإقبال جماهيري عال.

وفي رواية "طريق العودة" نجد التشخيص يتعرض لإبداع الأديب الرائع حيث يقدّم شخصيتي مراد ومحسن. أما شخصية مراد فهي قوية شجاعة إلى حد عدم المبالاة فهي في السلم لا تخاف شيئا حتى صرامة التقاليد وخشونتها وفي الحرب لا تخاف حتى رهبة الموت وهوله بينما شخصية محسن هو من مجموعة الشباب الذين تهددهم الحرب.

ويرى غالي شكري أن رواية "السقا مات" هي العمل الوحيد من أعمال يوسف السباعي الأدبية، الذي تمكن أن يخلق فيه الشخصية المتطوّرة. ولكن هذه الملاحظة ربما تكون قبل نشره

لرواية "نحن لا نزرع الشوك" فقد أتقن التشخيص في هذه الرواية الرائعة كما يعلق عليها الناقد المصري يوسف الشاروني. وفي هذه الرواية الأخيرة يبدو الموت بطلا حقيقيا.

أما في رواية "السقا مات" ففيها شخصيتان متباينتان محوريتان، أولاهما شخصية المعلم شوشة الدنك وهو يعمل سقا، هي شخصية متزنة مكافحة، وهو يعمل دوما لينفق على ابنه سيد وأم زوجته الراحلة ونجده يخاف الموت في البداية لأنه فقد زوجته حين تعرضت للموت. والشخصية الثانية هي شحاتة أفندي المطيباتي وهو من يقود الميت إلى أن يدفن في القبر. وهو رجل مستهتر، فقد خبر الدنيا وعلمها بكاملها وتذوق منها ما جعله مدركا لحقائقها وخباياها. والأمر الذي يعجبنا أكثر هو الصداقة المتينة فيما بين هاتين الشخصيتين المتباينتين وهذه الصداقة ليست بعادية لتباينهما إلى حد كبير. وتطوّرت هذه الصداقة دون أن يعرف شوشة حقيقة عمل شحاتة أفندي. وعند معرفته ذلك، يشعر بالنفور والكراهية من الأخير ليس ذلك فحسب بل الخوف معا. ولكن كلمات شحاتة الفلسفية أخذت بقلب شوشة فأقنعته بحقيقة الموت الغائبة عن البشر والتي واجهها هو وسيطر عليها. ومن خلال هذا الحوار الفلسفي، يقدم الكاتب يوسف السباعي فلسفته في الموت والحياة. وأهم ما عرض في هذا الحوار أن كل شيء في الكون يتعرض لمراحل مختلفة منذ الميلاد ثم الشباب فالهرم إلى أن يصل إلى الفناء. فلا بد لكل إنسان أن يمر بمراحل الحياة المختلفة ثم في النهاية يترك مكانه لكائن آخر فيأخذ مكانه وتستمر عجلة الحياة.

إن الاستنتاجات الفلسفية التي يقدمها شحاتة أفندي في حواره مع السقا قد وصل إليها بعد العديد من التجارب والمواجهات العارمة مع حقيقة الموت. كان يخاف الموت في البداية ولكن استعاد التحكم على نفسه بعد تجربته الأولى. ثم سيطر على الموت وتحداه. وقد كان

ينزل إلى المقابر حتى بدون أية فائدة من ذلك. إن كلا من سيطرته على حقيقة الموت وتحديه واضح في العبارات التالية على لسان شحاتة مخاطبا لشوشة "لا تسألني عن الفائدة التي جنيتها من ذلك!! لقد أصبحت رجلا شجاعا ... بل أصبحت أشجع رجال العالم. لقد بت أحتقر الموت أحتقر أكثر منه ... الإنسان"[٦٦]

والأسئلة التي تحكى على لسان سيدة جابر بطلة رواية "نحن لا نزرع الشوك" تحمل في طياتها استفسارات عن حقيقة الإنسان وابتلائه من المحن. إن رسم شخصية محورية مثل سيدة جابر منذ طفولتها تساعد الكاتب على تقديم أفكاره النبيلة بما فيها نظرياته النقدية بسهولة وبساطة، لأن الطفل رمز البساطة والطابع الساذج، يحتمل أن تنبغ منه أسئلة ساذجة يوجد فيها نقد لاذع للمجتمع الإنساني. وفي هذه الرواية، نسمع أسئلة مهمة على لسان بطلتها سيدة جابر، وخاصة في فلسفة الموت حيث مات والدها وبقيت في كنف زوجته. وتلك الأسئلة ليست مجرد أسئلة لأجوبة بل هي جادة فيما تحتوي عليه من معان عميقة وأفكار رفيعة. ننتبه إلى ما تسأل سيدة جابر "لماذا يموت البعض ... ولا يموت البعض الآخر". ويمكن أن نقرأ من ضمنها سؤالا آخر هو لماذا يتعرض البعض فقط للمأساة والبلاء والعقاب بينما البعض الآخر لا تقبضهم الروح بل يتمادون في أنشطتهم ويتمتعون بها. هكذا تجري في الرواية جملة كبيرة من الأسئلة الحادة التي تفيد نقدا لاذعا على النظام السائد في المجتمع المصري. ولا ننسى بهذا الصدد، ما لاحظه الدكتور محمد مندور بعد اطلاعه على رواية "السقا مات"، حين يعدّ يوسف السباعي من أدباء السوق التي تعج بالحياة والأحياء وتزدحم بالأشخاص والمهن.

ولا نبالغ إن قلنا إن الكاتب يوسف السباعي قد أتقن إلى حد كبير في خلق شخصية "شهيرة" في رواية "لست وحدك". وهي شخصية

٦٦ يوسف السباعي، السقا مات، ص

قوية تعكس حياتها حياة امرأة متزوجة على أرض الواقع. ومن هذا المنطلق، يجهّز الكاتب كل حركاتها وسكناتها - صمتها وصوتها وصبرها وغضبها وردودها وخضوعها وتواضعها وخشونتها. وحوارها مع زوجها مدحت ليس بمجرد حوار لحوار بل هو يتضمن بعض المواقف المهمة في حياة الإنسان سواء كان رجلا أو امرأة. وفي وسط أحداث هذه الرواية يلوح صراع شهيرة مع واقعها. لم تعد تسلم له بالتأخير والغياب، ولا عادت تستسلم لأساليب الخداع التي كان يمارسها مدحت معها. والكاتب يجد في بطلة الرواية شهيرة كاتبة وشاعرة تعبّر عن الحقائق ببساطة وسذاجة. وهي تصرخ أمام الجمهور الرجال محتجة بعد أن ترصد وتتتبع الشرح في اهتمام بالغ حتى تعرف نتيجة النقاش:

هذا غير معقول.

وسألها أبوها في دهشة:

ما هو هذا غير المعقول؟

هي تجيب بشكل مقنع:

هذا حلّ رجالي بحت. إنكم هنا تتصرفون في مصير الكوكب بعقلية الرجل.

وقال عبد المهيمن محتجا:

إننا نصرف كحكام.

هي تدحض هذا بصرامة:

حكام رجال، تريدون أن تكرّروا في الكوكب مأساة الرجل في الأرض. تريدون أن تهيئوا للرجل "فروغية" العين. وأن تغرسوا في نفسه الخيانة حتى يريد دائما امرأة جديدة"[٦٧]

٦٧ يوسف السباعي، لست وحدك، ص 103

ومن خلال هذه الكلمات تكتمل شخصية شهيرة النسائية الثائرة أو تتشكل صورة الثائرة النسائية المحتجة ضد النظام الرجالي في المجتمع.

ويمثل عبد المهيمن شخصية أخرى من نفس الرواية رجال الهمة والشجاعة وهو القائل "إذا كان الموت أمرا لا بد منه فلماذا نضيع سدى؟ لماذا لا نموت في سبيل تحقيق هدفنا؟" وجمال خلق هذه الشخصية يشرق أكثر عندما نجده يقول مرة أخرى "لو أن بها احتمالا للنجاة واحدا في الألف فإن من الحماقة إلا نحاولها". وأهم الطرق التي احتفى بها يوسف السباعي لخلق شخصياته هو أحاديثهم الحافلة بالمعاني الجليلة التي تبقى في ذاكرة الجمهور والقراء بدون حد ولا قيد في المدة. فبمجرد أن نسمع تلك الكلمات تتصور في ذاكرتنا صور تلك الشخصيات معا. والأمر يجري بالعكس معا بحيث تلوح لنا تلك العبارات عندما نتذكر تلك الشخصيات البارزة في الرواية. وهذا الفن في خلق الشخصيات من أهم الصفات التي يتسم بها الأدباء الكبار.

ولا نغالي إن قلنا إن السباعي قد نجح في خلق شخصية إنسان عادي في صورة عبد الراضي، لأن معاملاته وأخلاقه وتعليقاته ومداخلاته تطابق لشخصية الإنسان العادي. وهذا الإنسان العادي يلعب دوره الهام في حبكة الرواية. وتعد مداخلاته أثناء الحوارات التي تجري بين أعضاء بعثة الرحلة إلى الفضاء جزء لا يتجزأ من قصة الرواية. وهو يقدم هلعه مثل أي إنسان عادي في كلماته التالية "أنا مالي، أيام تفوت بالطول أو بالعرض. سأقرأ الفاتحة على أرواحكم حتى يغفر الله لكم ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر."[٦٨] ثم أخذ عبد الراضي يتمتم بالفاتحة ثم رفع كفيه ومسح بهما وجهه في خشوع. وهو الذي يقدم الملاحظة الختامية لهذه الرواية قائلا "كنا نظنها

٦٨ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٥٦٣

الكون كله، وكنا نظن أنفسنا فوق ظهرها كل شيء في هذا الكون، وإذا بنا وبها شيء ضئيل في تكوينه الضخم المعقد. لسنا وحدنا في الكون ... إننا قطرة في محيط هادر متلاطم." وهذه الكلمات تطالب من الإنسان بالتخلص من الكبرياء والأنانية ولهفة الطموح ورغبة التكاثر وحب التحكم والسلطة وبإدراك ضعفه وذلته. وليس هو بوحيد في الكون بل هناك عدد كبير من الكائنات الأخرى.

ونجد في رواية "رد قلبي" ارتباطا وثيقا بين شخصيات الرواية والخيط السياسي لدرجة كبيرة لأن الروائي يوسف السباعي وضع الأبطال في قلب هذا الخيط السياسي لا على هامشه. وتلقي الكاتب نفس المنوال في رواية "نادية" فالأب الأستاذ المساعد في الجامعة يتم طرده من هيئة التدريس في حركة التطهير التي قامت بها القيادة الثورية بعد نجاحها في تولي مقاليد الحكم في البلاد. فالسياسة لم تكن فوق مستوى الشخصيات الروائية بعيدا عن تفكيرها وجهودها، بل تدخلت في أخص شئونها تدخلا مباشرا. وبالجملة نجح الكاتب يوسف السباعي في رسم شخصياته الروائية إلى حد كبير.

الاسترجاع في روايات السباعي

إن الأديب يوسف السباعي لا يوظف تقنية الاسترجاع في رواياته إلا نادرا أو لا نغالي إن قلنا إن السباعي لم ينجح في توظيفها إلى حد كبير. وفوق ذلك كله، يجب أن نوافق على أنه كان يوجد بعض المحاولات من قبل الكاتب أن يوظفها في بعض رواياتها كما نرى بصماتها في رواية "ابتسامة على شفتيه" حيث يتقدم عماروي ببعض ذكريات طفولتهما. ويوظّف الأديب هذه التقنية بشكل أو بآخر، في روايته "لست وحدك"، حين يستعيد الروائي ذكرى الحب بين شهيرة وبين الشاب مدحت ويعبر الكاتب عن هذا الحب بأفضل عبارات في هذا

الصدد حتى يقول ببساطة "كانت قصة حبها أجمل من كل ما قرأته من قصص الحب"[٦٩] والكاتب يتطرق إلى حكاية هذا الحب خلال حديثه عن الحب الذي تطور بين شهيرة وعبد اللطيف أثناء رحلتهم في الفضاء.

وتوظيف الروائي يوسف السباعي الاسترجاع ليقود حبكة الرواية إلى الأمام واضح في الباب الحادي عشرة من رواية "لست وحدك" وقد عنونه الروائي بـ"أسياد الأرض الجديدة." وهناك مواقف الذهاب والإياب بين طفولة شهيرة وشبابها وبين كهالتها وهذا التنقل يتم عن طريق الاسترجاع التقنية الروائية الحديثة.

الاستدلال للمعاني بالأبيات والأمثال

إن من أهمّ صفات الصياغة الروائية ليوسف السباعي أن يستدل لمعانيه السنية وأفكاره النبيلة وفلسفاته القيمة أو أن ينمقها بإتيان الأبيات من القصائد والأمثال وقد تكون الأبيات مقتبسة من الآخرين أو مقروضة من نفسه تلقائيا وارتجاليا ولا ننسى أن يوسف السباعي بدأ الإبداع بقرض الأبيات الشعرية كما أعد النشيدة لمدرسته شبرا. ونجد هذا التنميق في الأسلوب في رواية يوسف السباعي الرومانسية "إني راحلة". نقرأ أمثلتها على التولي:

"وخلت في نفسي هاتفا يهتف بالمعبد المقدس:

هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه؟[٧٠]

"ألم يقل المثل "من جاور الحداد كوى بناره"، "ومن عاشر القوم أربعين يوما صار منهم"؟"[٧١]

---

٦٩ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ١١١

٧٠ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة، ص ٦٤٢

٧١ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة، ص ٢٠٢

- المثل "رضيت بالهم والهم مش راضي بي"[٧٢]

وفي موقف من المواقف الروائية في رواية "لست وحدك"، نجد الكاتب الروائي يأتي بالمثل على لسان عبد الراضي خلال الحوار الذي كان يجري بين أعضاء بعثة الرحلة إلى الفضاء فيتمتم قائلا "على رأي المثل ... ضربوا الأعور على عينه قال: خسرانة خسرانة"[٧٣] وهو يأتي بالأمثال بين الفينة والفينة وفي معظم الأحيان يستخدم التعبير "على رأي المثل" في بداية حكاية الأمثال. ومن تلك الأمثال "وقوع البلاء ولا انتظاره" و"أكل ومرعي، وقلة صنعه"[٧٤] وإذا اطلعنا على هذه الأمثال في المناسبات التي أتى بها الكاتب فيها فتبدو لنا قوية في توضيح المعاني المقدمة فيها ومثيرة في قلوب القراء أفكارا.

وعلى الرغم من عبد الراضي في نفس الرواية إنسان عادي إلا أنه أيضا يأتي فينة وأخرى بأمثال وتعابير اصطلاحية عربية خالصة إضافة إلى فلسفاته ذات المعزي القوي ويتحدث معظم الأحيان كلاما منطقيا معقولا تماما وهو يقول "إذا كنا ننسب كل إنتاج إلى صاحبه وخالقه، فلماذا ننكر أن يكون لكل هذا الكون صاحب وخالق؟ لماذا نريد أن نجعله – مع كل روعته وتنظيمه ودقته – رمية من غير رام؟ أو خلقنا بغير خالق؟"[٧٥] ولا محالة في أن هذه الكلمات تتجلى فيها حقا ذاتية الأديب يوسف السباعي – أفكاره وآراءه وفلسفاته ومنطقه.

السخرية والفكاهة في روايات السباعي

إن البناء الروائي ليوسف السباعي يلتزم في معظم الأحيان بالسخرية

---

٧٢ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة، ص ٧٢٢

٧٣ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٤٥٢

٧٤ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ١٣٤

٧٥ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ١١٤

والمزاح والفكاهة. ويدل بعض عناوين رواياته على ذلك مثل رواية "نائب عزرائيل" و"السقا مات". أما الحبكة والقصة في جميع رواياته تتكيف المزاح والسخرية من حين إلى حين. ولا يخفى علينا أن كلا من السخرية والمزاح من أفضل الطرق لتقديم النقد الاجتماعي والسياسي في الكتابات. وهذا التوظيف للسخرية في العمل الأدبي ليس بأمر غريب ولا جديد، إلا أنه يستجلب قلوب القراء والجمهور.

وكانت للسخرية جذور وأصول في الأدب الغربي والعربي معا كما وجدنا في الآداب الفرنسية والإيطالية والإنجليزية. وكان "جوناثان" من أعظم الكتاب الذين تميزوا بالأسلوب الساخر في عالم الأدب الإنجليزي. و"بلزاق" من أكبر الأدباء الفرنسيين الذين قدموا أعمالا أدبية بارزة تتسم بصفة السخرية مثل كتابه "الكوميديا الإنسانية" التي بدأت تعرف بـ"ألف ليلة وليلة الفرنسية". في الأدب العربي الحديث، نرى عبد الله النديم يلتزم بالأسلوب الساخر في كتاباته بما فيها كتابه المعنون بـ"التنكيت والتبكيت". وقد وظف الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي هذا الأسلوب الساخر في قصته "نادي الشياطين" التي تتضمن نقدا ساخرا لمملكة إبليس. وهذه السلسلة من الأدباء العرب الذي تناولوا الموضوعات في أعمالهم الأدبية بأسلوب السخرية تمر بإبراهيم عبد القادر المازني ونجيب محفوظ كما نراه في قصته "همس الجنون" التي امتلأت بأفكاره الفلسفية الساخرة والدكتور حسين مؤنس صاحب "إدارة عموم الزير" وتطول بدون الحدود.

أما الروائي يوسف السباعي كان منهمكا في السخرية خلال كتابته قصصه القصيرة حيث سخر من المراحل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما وجه نقده الساخر تجاه الأحزاب. وفي نفس الوقت لا يمكن لأحد أن ينكر الدور البارز للسخرية في أعماله الروائية. كان يوسف السباعي يتابع المجتمع في كل خطوة من خطواته كما أعلن

به مرات، فكان يحيط بكل ما يمثل المجتمع البشري من الأمور الإيجابية والسلبية والنقص والعيب والجدال والشجار والنفاق والفخر وما عداها من مكونات المجتمع الإنساني وهي تشتمل على مواقف الجدية كما تتضمن مواقف المزاح. وعلاوة على ذلك، كان يحب السباعي المزاح كثيرا جعله أسلوبا من أساليبه فليس من الصعب أن يعبر السباعي العارف بمجتمعه من الألف إلى الياء عن أفكاره الاجتماعية والسياسية وخاصة نقده اللاذع بأسلوب السخرية. وفضلا عن ذلك، يساعد الأديب هذا الأسلوب السخري على تقديم أفكاره وآراءه الاجتماعية والسياسية والفنية بحرية كاملة. وصاحب هذا الأسلوب الساخر لا يشعر عامة بوجود الحدود والقيود حيال كتابته. ومن الطبيعي ليوسف السباعي أن يرصد أنماط العيش البشرية حيث يشاهدها مباشرة على أرض الواقع. ومن هذا المنطلق يمكننا تقدير السباعي تقديرا صحيحا.

ورواية "نائب عزرائيل" حافلة بالسخرية والمزاح حتى اعتذر الكاتب من ذلك قائلا في مقدمة "نائب عزرائيل" "لا تظن بقولي سخرية ... فما حاولت مرة أن أسخر من بشر ضعيف ... فما بالك بملك الموت العاتي الجبار"[٧٦] ثم صارح الكاتب بأنه رجل يحب المزاح كثيرا حتى اقترح لعزرائيل أن يضحك الإنسان أولا، إذا أراد أن يستمع إليه. ونقرأ من هذه الرواية السطور التالية "فقلت له (عزرائيل) هازلا:

لعله إذا موعد غرام!!

ولشدة دهشتي رأيته قد أطرق برأسه علامة الموافقة. وهنا لم أستطع أن أمنع عاصفة من الضحك انطلقت من صدري ... يا للعجب ... عزرائيل عاشق ... وعلى موعد غرام !!"[٧٧]

وفي رواية "أرض النفاق" يحكي يوسف السباعي بأسلوب ساخر "لا

٧٦ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٣

٧٧ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٧٢

فارق هناك بين لون وجهها وملابسها والأرض" ويقول في موقف آخر من هذه الرواية "إن أكثر ما يحز في النفس هو أن العلة لا علاج لها، ولا أمل في البرء منها. لقد قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

ولكني أعتقد أن الشاعر لو عاش في زمننا هذا لاستبدل بالحماقة الحكومة وقال إلا الحكومة أعيت من يداويها". بالرغم من أن هذه الكلمات تعم في ضمنها نقدا اجتماعيا إلا أن تلك الفكرة قدمت بأسلوب ساخر. وقد لاحظ النقاد أن تسمية أسلوب يوسف السباعي بأسلوب السخرية أفضل بكثير من تسميته بأسلوب الفكاهة، لأن الفكاهة تمثل حقا ما يعنى بكوميديا ولا تنتهي بأثر إيجابي أكثر من التسلية والبهجة وما عدا ذلك فهو سلبي الأثر أو التأثير. أما أدب السخرية أو الأسلوب الساخر فيصل في النهاية إلى الغرض الإيجابي بعد تجاوز مراحل التسلية والإضحاك مثلما يصل إلى موقف عقلي يستهدف موقفا إيجابيا إزاء القضايا في العمل الأدبي. يتسم أدب السباعي بالسخرية الإيجابية وهذه السخرية في أدب السباعي تتكون من اتجاهين هما السخرية الناقدة والسخرية الفلسفية ومن منطلق السخرية الناقدة، استطاع الأديب يوسف السباعي أن يقدر المجتمع فكريا وسياسيا واجتماعيا كما أمكن له عن طريقة السخرية الفلسفية، أن يقدم فلسفاته عن الحياة والشعب والمجتمع وعن كل ما كان يحيط به.

وبالإجمال، لم يبالغ الكاتب المسرحي توفيق الحكيم في وصفه أدب السباعي بأنه سهل عذب باسم ساخر وقد علق محمد فريد أبو حديد على أعمال السباعي قائلا "أن ما في مجتمعنا المصري من عيوب في أشد الحاجة إلى من يصورها كما صورها السباعي، ومن يهوي عليها بهراوته الضخمة" وقد فضل يوسف السباعي هذا الأسلوب الساخر لأدبه الروائي.

الحوارات في روايات السباعي

يوظف السباعي تقنية الحوارات في رواياته بشكل ممتاز. والواقع أن الحوارات هي تساعد الكاتب على تكملة أعماله الروائية وتزيينها ونسجها فمستوى اللغة الحوارية يتفاوت حسب المناسبات وحسب المشاركين فيها. والحوارات في هذه الروايات تحمل في طياتها أفكارا مضيئة يحب الروائي أن يبرزها. ونظام الترتيب التي يتم تطبيقه على الحوارات الروائية في أعمال السباعي على المستوى العالي وبدرجة عليا. واللغة العامية أو اللهجة لا تتسلط على الحوارات بل تأتي في بعض المواقف حسب الحاجة. وهذا يساعد القراء بمضي قدما في صفحات الرواية بسرعة وابتهاج. ويبدو من خلال الحوارات التي تجري فيما بين أعضاء بعثة الرحلة إلى الفضاء في رواية "لست وحدك"، أن الكاتب يلمح إلى سيطرة القوات الحديثة في العالم على أنحاء العالم الأخرى. وهذا التقديم يتم عن طريقة الرمزية. وهذا جلي في الحوار الذي أتى في الباب الحادي عشر بعنوان "أسياد الأرض الجديدة":

"وقال عبد القادر:

يجبرنا؟ إننا سننظم أموره ... ونرعاهم.

ماذا؟ ماذا؟

ونحكمهم ... نصبح نحن أسياد الأرض الجديدة بكل ما عليها."[٧٨]

وخلال هذا الحوار يلاحظ عبد القادر:

إن لدينا كل أدوات الحضارة ... إذا قبلوها. ولدينا كل أجهزة التأديب ... إذا قاوموها."

وإذا أمعننا النظر في التعابير التي يتم تقديمها في الحوارات التي تجري

---

٧٨ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ١٢.

بين أعضاء البعثة الفضائية ندرك أن الروائي يوسف السباعي يسجل أفكاره النقدية ضد النظام الاجتماعي والسياسي السائد في المجتمع البشري. وهذا النظام يتكون من التقاليد والعادات والأحكام الشرعية والقيود والحدود التي يشكلها المجتمع نفسه وهي بجملتها تروّج فكرة السيطرة للرجال على النساء وللأقوياء على الضعفاء وللحكام على الرعية وللأغنياء على الفقراء وما عدا ذلك من الحيف والجور.

الفصل الثالث:

النقاد عن أدب يوسف السباعي

ومن الملاحظ أن أدب يوسف السباعي لم يحظ باهتمام بالغ من قبل نقاد الأدب في فترة حياته. أما السبب لهذا فهو- كما يلوح – سيطرة تيار اليسار في تلك الفترة على مؤسسات الأدب والنقد. وكان هو في رأيهم يمينا وكاتب حوادث ووقائع. وبالرغم من هذا الإعراض النقدي عن أدبه، يعد السباعي ظاهرة عجيبة في الحركات الثقافية المصرية. ومن الجدير بالذكر هنا أن الأديب الكبير نجيب محفوظ أطلق على السباعي لقب "جبرتي العصر" لتسجيله أحداث الثورة من اندلاعها إلى بشائر الانتصار في حرب أكتوبر عبر أعماله الرائعة مثل "رد قلبي" و"جفت الدموع" و"ليل له آخر" و"أقوى من الزمن" و"العمر لحظة". ومن أهم الكتب التي ألف في نقد الأعمال الأدبية للكاتب يوسف السباعي كتاب صدر في بيروت تحت إشراف الناقد الكبير غالي شكري، بعنون "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي". وهو مجموعة من المقالات التي كتبتها أقلام أجيال مختلفة على رأسهم الدكتور طه حسين وأنيس منصور.

يحدد الكاتب المسرحي المصري توفيق الحكيم محور كتب السباعي بأنه يتناول بالرمز والسخرية بعض عيوب المجتمع المصري بينما يرى الكاتب فريد أبو حديد أن أسلوب السباعي سائغ عذب سهل سليم قوي متين. وبعد تعرض الدكتور محمد مندور لرواية "السقا مات"، يعلق على أدب السباعي قائلا بأن يوسف السباعي

أديب من أدباء الحياة بل من أدباء السوق التي تعج بالحياة والأحياء وتزدحم بالأشخاص والمهن. ونتذكر هنا أن قراءة الرواية "أرض النفاق" من قبل بنت الشاطئ غيرت رأيها حيث هدأت صدمتها التي أصابتها في أول الأمر خلال تعرضها لأخطاء يوسف السباعي اللغوية.

وبالرغم من هذه التعليقات الجميلة على أدبه، واجه الأديب يوسف السباعي انتقادات لاذعة من قبل عدد من الأدباء والكتاب، على رأسها تهمة السرقة الأدبية. ومن هذه القبيلة من الاتهامات ما ادعى الكاتب المصري محمد جلال متهما يوسف السباعي بأنه انتحل أحد أعماله فقال "يوسف أخذ مني معالجة قصة (جميلة بوحريد) وكتب عليها اسمه". وأهم التحديات التي تعرض لها يوسف السباعي ما زعم الناقد الأديب أنور المعداوي عن طريق مقالة نقدية جريئة نال فيها من مصداقية يوسف السباعي متهما بأن يوسف السباعي سرق مخطوطة أبيه "السقا مات" التي كان محمد السباعي قد أطلع المعداوي عليها – على ما يدعي هو، ونشرها رواية باسمه هو.

وقد واجه السباعي اعتراضات قوية من جوانب أخرى أيضا. وعندما دعا إلى استخدام العامية لإزالة القيود التي تعرقل الأديب وقت التعبير، قدم الشاعر هاشم الرفاعي قصيدة تدافع عن اللغة العربية بعنوان "قيود اللغة العربية" وفيها يقول:

أشعلت حربا لم تضع أوزارها تركت بكل صحيفة آثارها
وحملة حملتك الجريئة فانبرت أقلام من خاضوا وراءك نارها
ورميت أخت الضاد منك بطعنة كادت تدك قوية أسوارها
محبا؟ أتحيون التراث بقتلها وترمون بهدمها منارها
ورأيت قوما يرهقون عيوبها طلبا وراحوا يطمسون نضارها

ويمكن بهذا الصدد أن نقدم رؤية السباعي عن الكاتب مطلقا. وقد تناول يوسف السباعي وجود الكاتب وكينونته وعمليته

خلال كلامه في مقدمات رواياته. وهذه المقدمات من أهم البيانات التي يساعدنا على معرفة حقيقة الأديب يوسف السباعي وأدبه ويشير السباعي في إحداها، إلى أهمية الجو الذي يحيط به الكاتب وهو القائل "ولست أظن الكاتب يمكنه أن يفصل نفسه عما يحيط به ... فإنتاج الفنان عملية استقبال وإرسال ... أو امتصاص وإفراز ... وهو يأخذ مما حوله ليؤثر فيمن حوله"[٧٩] ويمكننا قراءة جميع رواياته من هذه الناحية المهمة. فليس من وسعنا أن ننكر واقعية أعمال السباعي بحيث يجري مع حركات مجتمعه من الألف إلى الياء. نحكي بالإيجاز أن الروايات لهذا الأديب الكبير المصري تمتزج فيها الواقعية والرومانسية. وتحمل في طياتها جملة كبيرة من الفلسفات عن الحياة والمرأة والإنسان وما عداها من المعاني. كما نجد السباعي يفلسف على لسان عبد القادر قائلا "... فالشجر هو الحي الوحيد الذي لا يتقاتل".

وختاما لهذا الباب، نقدّم موجزه في السطور التالية. يتمحور هذا الباب حول الخصائص الأدبية والفنية لروايات يوسف السباعي الذي تبرّع بأعماله الروائية القيمة للأوساط الأدبية وللجاليات الثقافية. وبدأنا الكلام في هذا الباب بعرض أهم رواياته مع تقديم موجزلها. وخلال حديثنا حول خصائصها الأدبية والفنية حاولنا أن نقدّم الاتجاهين الذين اتسمت بهما روايات السباعي بشكل أو بآخر. وهما – الاتجاه التاريخي واتجاه الفانتازيا. وقد أصبح من الهام أن نتطرّق إلى لغة يوسف السباعي لندرك جميع الخصائص اللغوي التي تلتزم بها رواياته. ووقفنا خلال هذا الكلام أمام تقنيات السرد لدى يوسف السباعي. ومن الضروري ألا نترك الجانب الرومانسي في أعماله الروائية. فتناولناها في مبحث من مباحث الباب تحت عنون "يوسف السباعي فارس الرومانسية".

٧٩ يوسف السباعي، نادية، جـ 1 ص 7

ونهاية، أولينا الاهتمام للإنصات إلى آراء النقاد والآدباء الكبار وتعليقات حول شخصية يوسف السباعي، وأعماله الأدبية. وقد اختتمنا هذا الباب مقتنعين بأن العالم الإبداعي واسع وجميل جدا ويستحق بدون أية وقفة بحوثا ودراسات حول جوانبه المختلفة. أما رواياته فهي بالرغم من أنها تنقص في بعض المكوّنات الفنية الخالصة، إلا أنها ممتازة بحيث تحمل في طياتها مضامين رومانسية وواقعية وتكتمل عبر مزيج من السخرية والفكاهة والحوارات والنقاشات الجادة فيما بين شخصياتها القوية. وشخصياتها المحورية تستمرّ ذكراها في ذاكرتنا حتى بعد أن أنهينا قراءتها إلى مدة مديدة. فروايات السباعي تقدّم إلى ضيوفها مؤدبة شهية أدبية فنية.

الباب الثالث

تصوير القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي

إن هذا الباب الأخير هو الجوهر الرئيسي لهذه الدراسة، لأننا نحلّل فيه رواياته المهمة وبالتالي نتصوّر القضايا الاجتماعية والسياسية التي تعالج هذه الروايات ثم نصوّرها في سطوره. ويتضح لنا من سطور هذه الروايات، نقد الروائي عالم النفاق والتقاليد الاجتماعية التي تخلق مشاكل وصعوبات في مضي المجتمع قدما. ويتجلّى لنا أن يوسف السباعي كان يلازم ويتابع نبضات المجتمع وذبذباته طول حياته وهو الذي في الواقع أصبح ذخرا لكتاباته الجميلة. ونضرب هنا رواية "إني راحلة" مثلا، فهي تبدو في معظم الأحيان من قراءتها ضجة صارخة ضد التقاليد التافهة المتأصلة في المجتمع البشري أو نقدا لاذعا للنظام الاجتماعي الاستغلالي. ولا نشعر بالمبالغة حيث يناديه الروائي نجيب محفوظ الذي حاز على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٨٨ بـ"جبرتي العصر"، لأنه تضمنت أعمال يوسف السباعي الأدبية أحداث الثورة منذ اندلاعها حتى بشائر النصر في حرب أكتوبر.

إن مكانة المجتمع في روايات يوسف السباعي تتعرض للملاحظة والتحقيق في سطورها. ومن ضمنها نطلع على القضايا الاجتماعية والسياسية التي خصصت لها صفحاتها الروائية. ويصبح النقد الاجتماعي والسياسي بنية أساسية لهذه المعالجة الفنية للقضايا السياسية والاجتماعية. ونخصص بعض الصفحات للحديث

عن ثلاثة أنواع الجدل التي يتشكل منها هذا النقد الشامل هي – الجدل بين القدر والإنسان والجدل بين الحرية والعبودية والجدل بين الموت والحياة. وقضية المرأة ووضعها في المجتمع تتصدر طائفة القضايا الاجتماعية التي تحتشد في روايات يوسف السباعي. أما قضية فلسطين فهي تنال المركز الأوّل في قائمة القضايا السياسية التي تتكثف في أعمال السباعي الروائية. وهذه القائمة تكتمل أخيرا بتناولنا ملامح قضية القومية والوطنية في روايات السباعي.

ومن الملاحظ أن هناك عديدا من الدراسات القيمة يتناول جوانب مختلفة من العالم الأدبي للأديب المصري يوسف السباعي. ومن أهمها دراسة معنونة بـ"عالم يوسف السباعي" لعلاء الدين وحيد وهي تتناول حياة يوسف السباعي من البداية إلى النهاية، ودراسة الكاتب المشهور غالي شكري بعنوان "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي" وفيها يعلن الكاتب "أن أدب يوسف السباعي في مجمله ظاهرة اجتماعية فمن هنا تنبع الأهمية القصوى في إصدار هذه النماذج بين دفتي كتاب حول أدب يوسف السباعي". وقد عالج الكاتب د. عبد العزيز شرف إبداع الأديب يوسف السباعي في عمله المعنون بـ"الرؤية الإبداعية في أدب يوسف السباعي" ومن الأعمال التي أولت اهتماما بليغا بمواقف هذا الأديب الكبير كتاب تناول قضية فلسطين على أساس أعمال يوسف السباعي. وبالرغم من أن هناك دراسات عديدة تتناول جوانب مختلفة لأدب يوسف السباعي، إلا أنها لم تأخذ القضايا الاجتماعية والسياسية في الحساب باستقلال. فنتمنى أن تكون دراستنا المتواضعة تقدّم شيئا هاما في ملء هذه الفرجة.

ومما لا شك فيه، أن الأدب العربي لم يبلغ القمة إلا لتناوله الوضع الاجتماعي والسياسي في الدول العربية. وبناء على ذلك، لجأ القراء إلى طيات الأدب العربي ليلاحظوا الواقع من خلال سطورها. وقد

أصبح تناول العناصر الاجتماعية والسياسية عادة يلتزم بها الأدب عامة والأدب العربي خاصة. فما أجمل تصوير المجتمع المصري في أعمال د. طه حسين ونجيب محفوظ وغيرهم من الأدباء الكبار المصريين. ولا يمكن إبعاد أديب كبير مثل يوسف السباعي من هذه الزمرة الأدبية، لأنه نفسه جرّب في حياته تجارب اجتماعية وسياسية حيث تولّى الوزارة في بعض الأيام من حياته. وقد قتل أخيرا لسوء الفهم من مواقفه السياسية. وبالإجمال، نحاول هنا لتجلية القضايا الاجتماعية والسياسية التي تتكوّن منها روايات الأديب المصري يوسف السباعي.

بينما يتمحور البحث حول القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات يوسف السباعي، يتطرق من خلال أعماله الدراسية إلى المواقف الاجتماعية والسياسية التي تلتزم بها روايات الأدباء العرب بشكل عام وأدباء مصر بشكل خاص. وفي هذه الدراسة، يجب على الباحث أن يقوم بعملية التحليل لروايات يوسف السباعي حتى يدرك مواقفه الاجتماعية والسياسية بصورة واضحة صريحة.

الفصل الأول:
مكانة مجتمع يوسف السباعي في رواياته

إن الأحياء الشعبية القاهرية التي عاشها يوسف السباعي تلصق رائحتها وحلاوتها على معظم أعماله ولا سيما رواياته وعلى رأسها رواية "نحن لا نزرع الشوك" ويقدر النقاد بأن أعمال السباعي تحافظ على الصلة القوية مع الواقع والمجتمع بحيث لا وجود لرواياته بدونهما. والمجتمع هو يبنيه عن طريق تعرضه أمامه فالكاتب يأخذ منه روحه ودمه وما يحتاج إليه من المواد والسماد وأخيرا يرد إليه كل ما أخذه بحرية من صوت وسكوت وقدرة وكفاءة وعلم وعمل وطعام وشراب وبرودة وحرارة وفقروغنى، عبر إبداعاته مثل الروايات والقصص والمقالات وغيرها. يلاحظ الكاتب أزيد بيه ولد محمد البشير في كتابه "تجديد الرواية العربية يوسف القعيد نموذجا" "ويمكن أن نذكر في هذا السياق أعمال يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس التي تطفح بالواقع والمجتمع، وترى في ذلك سبيلا إلى تأصيل التجربة الروائية وكتابة أعمال لها مبرراتها في الوجود".[٨٠]

علاقات روايات السباعي مع المجتمع

"نحن لا نزرع الشوك"

إن الصلة المتينة بين هذه الرواية وبين الشعب أو المجتمع تصبح واضحة في مجرّد تصوير شخصية بطلة الرواية سيدة جابر التي تنشأ

٨٠ إزيد بيه ولد محمد البشير، تجديد الرواية العربية يوسف القعيد نموذجا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ٢٠٢١ ٦٠ ص ٤٢

في بيئة ثم تنتقل إلى بيئة أخرى لشق طريقها رغما ما به من أشواك بل تواصل جهود لصعودها بأي ثمن: حياتها تجري مع التزامات مختلفة – خادمة بلا أجر، فخادما بأجر، فزوجة لبائع كازورة، فعاهرا يذوقها من لديه المال، فغانية أحد بكوات مصر حيث تصل إلى ذروة صعودها حتى لتعود زوجة لأحد البكوات الأفاقين. وبسبب أنانيته ينجب منها طفلا وفي لحظة أخرى يفقدها الطفل وهي تزور الدوائر فتعود سيدة جابر لتعمل ممرضة عند طبيب، ثم تلقى الجيل التالي من العائلة التي خدمت لها مسبقا بأجر. وفي النهاية تتعرض لمرض السرطان حتى تقبض روحها من فوق تلال المقطم وهي مطلة على ما يوجد في الأسفل من المقابر بعد أن تذبذبت رحلتها ما بين أبو الريش وشبرا وقلب القاهرة.

أما الروائي يوسف السباعي فيقدّم عن طريق تقديم بطلة الرواية سيدة جابر، صورة صريحة للأحياء الشعبية المصرية بما فيها أبو الريش وشبرا والقاهرة وما عداها فهي تتذكرها وتتناولها في حديثها وحوارها. وتعدد اشتغالها بأعمال متنوّعة يساعد الأديب السباعي في عرض مختلف جوانب المجتمع وعوامله. وبالاختصار، هذه الرواية تبدأ من المجتمع مسيرتها وتجري فيه رحلتها وتنتهي عليه سيرتها.

الفصل الثاني:
القضايا الاجتماعية والسياسية
في روايات يوسف السباعي

ومن الملاحظ لدى القراء والنقاد أن يوسف السباعي حاول في رواياته أن يمزج بين التجربة الوجدانية والتجربة السياسية والاجتماعية. لا أغالي في قولي إن تلك الجهود الفنية قد نجحت إلى حدّ كبير، حتى قيل إن لأدب يوسف السباعي ثلاثة أوجه هي الوجه الوجداني والوجه الشعبي والوجه الثوري.

النقد الاجتماعي والسياسي

قد وظف الأديب يوسف السباعي مختلف التقنيات لكتابة الرواية الفنية بما فيها قالب الفانتازيا. ونفهم أن الكاتب يريد من خلال هذا التوظيف الإبداعي النقد اللاذع للنظام السياسي والاجتماعي كما يعبر عنه يوسف الشاروني بقوله "وواضح أن يوسف السباعي استخدم قالب الفانتازيا كوسيلة للنقد السياسي والاجتماعي على المستويين المحلي والعالمي"[٨١] ورواية "لست وحدك" تستهدف نقد المذاهب السياسية السائدة في حضارة المجتمع المعاصر من ناحية، وتقدم مدينة فاضلة من ناحية أخرى. وفي هذه المدينة الفاضلة تسيطر الكائنات النباتية التي تمثل شعبا بلا مشاكل، تضرب جذوره في الأرض لتجمع قوتها بلا عناء كما ينشر فروعه في الهواء

٨١ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٩٧

ليلتقط ما يشتهيه بلا صعوبة. وفي هذا العالم الخيالي – الواقعي، لا يؤخذ الجنس مأخذ الجد بحيث لا يثير أية مشكلات لأن النسيم يحمل حبوب اللقاح من الذكر والأنثى فتتلقاها بلا حياء ولا عيب لتخصب وتنجب.

إن النقد على الصعيد الدولي في رواية "لست وحدك" يرتسم في وجود ساسة يعتكفون في قمة العالم ولا يهمهم إلا إشعال نار الحروب وإذا، ينجم عن أفعالهم ما تعانيه البشرية الجمعاء من آلام وأحزان ومآسٍ ومخاوف. أما النقد على الصعيد المحلي، فيتلخص في فئة اجتماعية تعتكفون في القمة، تعاني من الانحلال، وقد تسلق إليها معظم أفراد هذه الطبقة عن طريق الدعارة إذا كانت شخصيات نسائية أو عن طريق الرشوة، إذا كانت شخصيات من عالم الرجال، ريثما يعاني كثيرا أفراد الطبقات الشعبية.

المبحث الأوّل:
النقد المتكوّن من ثلاثة أنواع الجدل

أولا: الجدل بين القدروالإنسان

ولا بد أن أؤكد ما قاله يوسف الشاروني "فإنها – قصص يوسف السباعي – من ناحية المضمون تتميز بوجه اجتماعي هو النقد على المستويين السياسي والاجتماعي، وبوجه ميتافيزيقي يتلخص في ثلاثة أنواع من الجدل: بين القدروالإنسان، وبين الحرية والعبودية، وبين الموت والحياة"[٨٢] وهذه ملاحظة يمكن تطبيقها في جميع أعماله الروائية ونسمع هنا في رواية "فديتك يا ليلى" يقول الدكتور توفيق – أحد شخصيات الرواية – لإبراهيم – بطل الرواية "نحن يا أخي لا نستطيع أحيانا أن نسيطر على إرادة القدرولا نملك إلا أن نؤدي واجبنا في حدود قدرتنا . . ثم نخضع لما يفرضه علينا صاغرين"[٨٣] كما نجد في بداية الجزء الثاني من رواية "نحن لا نزرع الشوك" "نحن لا نزرع الشوك في طريقنا . . . ولكن ينبته القدر كما ينبت الزهر. ولا نملك كأحياء . . . إلا أن نخوض الطريق . . . بأشواكه وأزهاره . . . ويدمي الشوك أقدامنا . . . " ويواصل الكاتب مثيرروح الهمة في الجمهور قائلا "ولكن هل نملك التنازل عن أحلامنا ... وهي أجمل ما في الحياة ... لنرضخ لواقع القدر"[٨٤]

---

٨٢ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة، ص ١٨

٨٣ يوسف السباعي، فديتك يا ليلى، ص ٢١٠

٨٤ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، دارمصرللطباعة، ج ١، ص ١٠

ثانيا: الجدل بين الحرية والعبودية

وليس غريبا أن يأتي الأديب بأفكاروآراء تتناول الحرية والعبودية في أعماله الروائية لأن الروايات هي شاشة تظهر فيها أشياء متعددة ترتبط بالواقع والمجتمع حق الارتباط. وكلّ من الحرّية والعبودية من الموضوعات الهامة التي توضع على بساط البحث دائما. وهذان الضدان تقابلان وتعارضان جميع الأحيان. والمجتمع المزدهر والمتحضّر يتسم بالحرية ويروجها بينما المجتمع المتخلف والمتقلص يتصف بالعبودية ويؤيدها. ومن العادة أن يكون المجتمع الإنساني يتكوّن من عوامل تمثل هذين الجانبين من البشرية. فالرواية على عادتها، لا تتخلص من الحديث عن الحرية والعبودية معا. والروائي ينجح في تصوير هذا المجتمع المختلط من خلال توظيفه خلق الشخصيات البارزة.

إن الحياة – حسبما يرى يوسف السباعي - تتعرض دوما للعبودية وتفقد الحرية. ولا سيادة ولا حرية في هذه الحياة. نرى سيدة جابر بطلة "نحن لا نزرع الشوك"، وهذا هو الحال مع معظم أبطال هذا الأديب الفاضل، تخاطب نفسها "بعد أن تحررت من مذلة الجسد ... بت عبدة المشاعر" وفي هذه الرواية تغلب النقاشات والحوارات حول الحرية والعبودية كما نسمع الحوار بين محمد وسيدة جابر حيث يقول القاص:

"ونظر محمد إليها في شيء من الدهشة ولكنه فتح القفص ... فانطلقت العصافير إلى الفضاء الفسيح . . .

وملأت السكينة صدر سيدة ...

لو أن لك القدرة على الانطلاق كهذه العصافير يا سيدة لكنت أنعم الناس بالا وأقرهم نفسا.

قربت ساعة الخلاص ... لم يعد أمامك سوى أن تسيري خطواتك

الباقية ... وتتخلصي من كل ما لديك من هموم ...

فقط ... لو وقاك الله شر الألم وخلصك من قيده المرتقب.

لم يبق بينك وبين حريتك ... سوى قيد الألم. تحررت من كل ما استعبدك ...

حتى أحزانك ... لم تعودي عبدة لها ..."[٨٥]

أما العصفور التي نشاهدها في هذه الرواية فهي تمثّل الجدل بين الحريّة والعبودية وتواجدها داخل القفص يدلّ على العبودية بينما انطلاقها من القفص يعبّر عن حرّيتها بشكل ملحوظ. ومن منا لا يحبّ هذا الانطلاق الذي تتمتع به العصافير خلال انفلاتها من القفص! والسيدة في الرواية المذكورة أعلاه، لا تخفي رأيها المهم فترى أن الموت هو الحرية الوحيدة الحقيقية.

ثالثا: الجدل بين الموت والحياة

إن فراق والده في سنه المبكرة جعل قضية الموت مقوّما أساسيا في المضمون الروائي ليوسف السباعي. وقد حاول كل المحاولة لتجاوز عرقلة الموت مثل استخدام القالب الفانتازي تارة وتلقي ظاهرة الموت كظاهرة طبيعية تارة أخرى وأعرب حينا أن الموت مصدر رزق لبعض ومصدر حزن لبعض آخر. وصوّر عن طريق تعابيره الجميلة عالما آخر لا يكون فيه الموت مصدر خوف ولا قلق بل نتمناه ونرحب به. ومما يتضح من هذا فعلا، أن ذلك في الوقت نفسه وسيلة لنقد أسلوب حياتنا. ولا يخفى علينا أن الروائي يوسف السباعي وظّف جيدا أسلوب المرح الساخر الذاتي للتغلب على مشكلة الموت وخلال ذلك نجح الكاتب في خلق لون من التوازن بين قتامة الموت وفكاهة الأسلوب.

---

٨٥ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، دار مصر للطباعة، ج ٢، ص ٨٨٧

تدور الأحداث في رواية "السقا مات" من حول الحياة والموت. وتخلق لونا من الجدلية العفوية بينها وتمثلهما الشخصيتان الرئيسيتان هما السقاء بائع الحياة بالتالي وشحاتة أفندي مطيباتي جنازات الموسرين -مرافق الموتى. والسقاء يعيش الموت منذ رحيل زوجته بينما شحاتة أفندي مطيباتي يعيش زخم الحياة مع تذوق حلاوتها. إن مرافق الموتى شحاتة أفندي هو الذي يدرّس السقاء معنى الحياة وأهمية الاستمتاع بكل لحظة من لحظاتها.

الفصل الثالث:
القضايا الاجتماعية في رواياته

لا نبالغ إذا قلنا إن أعمال يوسف السباعي وجدت صورتها الكاملة عن طريق علاقته الوطيدة مع المجتمع. فأعماله تشكل على الإطلاق الواقع والخبرة التي عاشها في مراحل حياته المختلفة – الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة. وحي الحسينية مثلا تقع فيه حوادث روايته الشعبية "السقا مات" فذاك إما أنه تجوّل فيه في أيام طفولته أو يفاعته المبكرة وإما جعله مسرحا حقيقيا لأحداث رواياته تطبيقا لخبراته الكثيفة من حي السيدة زينب. فلا غرابة فيما أعلن الناقد غالي شكري في مقدمة الكتاب "الفكر والفن في أدب يوسف السباعي" أن أدب يوسف السباعي في مجمله ظاهرة اجتماعية. ولا ننسى أن أعمال السباعي الأدبية تلقت ولا تزال تتلقى رواجا مذهلا وقبولا حسنا من جمهور القراء. ولا ننكر أن أعماله الغزيرة كانت تلبي أولا احتياجات نفسية ملتهبة لدى الكاتب وتلك الاحتياجات كانت مرتبطة تماما بالمجتمع الذي كان يعيش فيه. ورسوخ جذور السباعي في مجتمعه جلي في كلماته التالية:

"أتدرون ما يحملنا على التعلق بالحياة!

أتعرفون ماذا يشدنا إليها ويخيفنا من الخروج منها!

إنه شيء واحد ... هو صلتنا بمن حولنا

هو حبهم لنا وحبنا لهم

إننا نكره أن نغادرها ...

لأننا نخشى ألم الفرقة ومرارتها"[٨٦]

إن الأديب يوسف السباعي لم يزل يبرز العلاقة المتينة بين الكاتب ومجتمعه ويؤكد عليها في أحاديثه كلها. ولم يكن يتخيل لأي كاتب عالما منعزلا عن مجتمعه. ونجده يتحدث عن هذه العلاقة الوطيدة في مقدمة روايته "ليل له آخر" "ولست أظن الكاتب يملك الانعزال عن تجاربه الشخصية وتجارب مجتمعه، ولست أظن والأمر كذلك إلا أن هذه القصة التي أقدم لها حصيلة تجربة مجتمع وتجربة إنسان"[٨٧] فكيف يمكن لأديب يمتلك هذا الرأي أن يقدم أعماله الروائية بمعزل عن القضايا الاجتماعية؟ ذاك لا محالة مستحيل.

ومما أدركنا جيدا أن يوسف السباعي كان يتابع الأحداث التي شهدتها فترة حياته متابعة دقيقة. فلم يخجل في تسجيلها في رواياته. وكان يحس بما يحيط به من العالم أو الجو إحساسا قويا ساعده على كتابة منتوجاته الأدبية وكل ما يحدث في مجتمعه أصبح من أهم المواد لأعماله بحيث لم يجد بدا من الاقتراب منها فالتهمها قدر الإمكان فنتج عنه انتاجه الغزير وقد صرح بذلك في مقدمة روايته "نادية" "وعندما كتبت "أرض النفاق" و"وراء الستار" و"البحث عن جسد" و"يا أمة ضحكت" ... كنت أعكس بها ما استقبلت من انفعالات سببها إحساسنا بالفساد والفوضى التي كانت تدمغ حياتنا وتتركنا في حنق وضيق ولهفة تملأ نفوسنا على شيء يخلصنا من حالة الضياع التي كنا نعيش فيها"[٨٨]. والجدير بالذكر هنا، أنه لا نستغرب من روايات يوسف السباعي التي تلتحم بالأحداث المأساوية لأن الفترة التي عاشها السباعي مكتظة بالتجارب المأساوية المثيرة والمزعجة إلى حد أقصى. فيكون تأثيرها عليه واضح في كتاباته.

---

٨٦ يوسف السباعي، مبكى العشاق – في موكب الهوى،

٨٧ يوسف السباعي، ليل له آخر، جـ١ ص ٤

٨٨ يوسف السباعي، نادية، جـ 1 ص 7

ويمضي النقد الاجتماعي أكثروضوحا وبيانا حين يحكم القاضي على سيدة حابر بالذهاب إلى دار الطاعة والإطاعة بعد أن حدث الخلاف الجاد بينها وبين زوجها عباس البرعي وقت ظهور خيانته لها. بالرغم من أن القاضي أصدر الحكم ضد رغبتها إلا أن القاضي الفنان أصدر حكما آخر بموجب مسوغات أخرى، ذلك "هذا القانون الذي يلزمها بذلك قانون أحمق مستبد يحرم الإنسان من أبسط مظاهر الحرّية ... حرية الشركة في الحياة ... هذا قانون الرجل يا سيدة ... وهو واضعه وهو المستفيد به"[٨٩]. ويمكننا أن نقرأ من السطور السابقة أفكار نظرية التساوي بين الجنسين. إن المجتمع في عصرنا الرهن يتميز بتغلب الرجولية على جميع عوامله. والحرّية في الحياة لا تمت إلى المرأة بصلة حسب نظريات النظام الجاري السائد. فالكلام في هذه الروايات يؤكد على أهمية نزع القيود وإزالة السدود حتى تطلع الحرّية الكاملة في المجتمع البشري. والأنانية يعدها الكاتب بشكل السخرية والنقد الاجتماعي شيمة الإنسان حين يقول في حديثه عن مدحت زوج شهيرة في رواية "لست وحدك" "وإذا كان يتسم بالأنانية شيمة الإنسان". فليس بإمكان الإنسان أن يتخلص من قبضة هذه الشيمة التي تفتح أبواب الحقد والغضب والخشونة وما عداها من الشرور.

إن الأديب السباعي يصوّر المجتمع المصري تصويرا كاملا نقديا عن طريقة الحوار الذي يجري فيما بين نعمت بطلة رواية "العمر لحظة" وعبد العزيز الشخصية المحورية الأخرى – جندي مصري. ففي العبارات التالية لنعمت تعكس مثالب المجتمع المصري مثل النفاق والكذب والزيف والزنا والسرقة واتهام الأبرياء بالتهم والخديعة وهي تقول لعبد العزيز "لا تظلم نفسك يا عبد العزيز... أنت فرد في مجتمع يخشى بعضه ... مجتمع يتشارك السوء في باطنه ... ويتشارك رداء

٨٩ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، دار مصر للطباعة، ج ٢، ص ٣٧٦

الزيف في ظاهره ... مجتمع يفعل الذنب ويستبشع فعل الغير له ... مجتمع يسرق ... ويدين السرقة ... ويزني، ويروعه الزنا ... يسترخي في ارتياح الأبرياء الأطهار وراء ستار الخديعة والزيف والنفاق ... ليشير بأصبع الاستنكار إلى الذين أسقطت الظروف عنهم ستر الزيف ... فتعرت الذنوب من ورائها ..."[٩٠] وهكذا يحلل السباعي المجتمع ويشخصه من جميع جوانبه باستخدام شخصياته الروائية. وهو لم يخطئ عندما لاحظ في صورة تسلية لعبد الراضي - شخصية من الشخصيات الرئيسية لرواية "لست وحدك" – "كل إنسان وله مشكلة يا عبد الراضي"[٩١]. وهذه في الواقع قراءة صحيحة اجتماعية لأديب يتابع دائما مستجدات المجتمع.

ولا يخفى علينا أن جميع الشخصيات في روايات يوسف السباعي تلعب دورا هاما في تأطير الرواية وتطوير حبكتها. وفي رواية "لست وحدك" نجد عبد الراضي شخصية تمثل رجلا عاديا في رحلة الفضاء، يقدّم ملاحظة قيمة تتضمن نقدا اجتماعيا حين يهمس موافقا على ما تمتم عبد المهيمن "يبدو لي أن خلق عالم من البشر أسهل كثيرا"، "أجل، مجرد نومة، يعقبها حمل وولادة، وتملأ الذرية الأرض، ويخلق عالم من البشر"[٩٢]

٩٠ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ١٣١
٩١ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٣٢
٩٢ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٥٦٢

المبحث الأول:
قضية المرأة ووضعها في المجتمع

إن قضية المرأة وحريتها العاطفية من أهم القضايا الاجتماعية التي تناولها الكاتب في أعماله الروائية وإلى جانب ذلك، يمارس الأديب يوسف السباعي النقد الاجتماعي على وضع المرأة في المجتمع المصري. فقد أصبح من العادة ألا يكون للمرأة حق الانفصال، حتى ولو رأت أن الحياة مستحيلة مع الرجل الذي تعيش معه وهذا واضح في رواية "نحن لا نزرع الشوك" كما يتجلى لنا النقد الاجتماعي الذي ينشد عالم الحرية للمرأة في رواية "إني راحلة". والمجتمع هنا يضغط على الفتاة لتتزوج من رآه مناسبا لها بدون انتباه إلى وجهة نظرها المعارضة. فالفتاة تحاول أن تثبت هويتها وتتحرر من القيود الاجتماعية والتقاليد الإجبارية بحيث تفضل التطلع إلى حبيب تحبه ويحبها وتشعر بالشجاعة للتمرد على الرجل الذي حبسها في كنفه وتهاجر بيته الذي بدى لها سجينا. ولكن في الأخير يغلب القانون ويحرمها هذا الحق ويلحها على البقاء مع من لا تحبه بل تكرهه.

نجد في الشخصية الرئيسية لرواية "نحن لا نزرع الشوك" سيدة جابر، اهتمام الكاتب بقضايا المرأة وانتباهه إلى حياتها المأساوية فهذه البطلة ترتدي ألوانا مختلفة حين تشتغل بأعمال متنوّعة. إن تصوير ما يقدّمه الروائي من المعاني ليس بعسير، لأنها مشرقة كالشمس ومضيئة كالقمر فعندما عرضت دلال على سيدة أن تعمل بغيا في بيتها الذي تديره أجابتها: سأفكر يا خالة دلال. فرد

الدلال بسرعة حاسمة: تفكرين ماذا؟ ليس أمامك سوى الشغل أو التسول ... أو الموت جوعا" وهذه العبارات تصارح أن المرأة التي فقدها زوجها تضطر في المجتمع إلى تبني أي عمل من الأعمال لتنقذ نفسها ونسلها من الموت.

وحينما نقرأ العبارات التالية "لا يعرف معنى الأمومة يا سيدة إلا من يمارسها. وهي جميلة ... رغم كل ما بها من مشقة وجهد"[٩٣] نسمع من داخله إعلانا كبيرا ضدّ سلطة الرجولية واحتجاجا قويا ضدّ غفلة النساء عن أهمية بنيتهن. أما حرمة الأمومة فلا تدركها إدراكا منطقيا إلا المرأة بوحدتها. وهذه العبارات تنادي بحرية المرأة من جانب، وتدعي بميزتها الفريدة من جانب آخر. وهذه الدعوى تتضمن فكرة أخرى – هي الافتخار بكينونتها النسائية ومحاولة الإقناع بأفضليتها أو تفضلها لأمومتها. وإضافة إلى ذلك، أن هذه الرواية تصوير حقيقي وواقعي لما تعاني منه المرأة في المجتمع العالمي بشكل عام والمجتمع العربي بشكل خاص. فقد اهتم السباعي بقضية المرأة اهتماما بالغا بحيث تناولها جميع أنواع أعماله الأدبية مثل القصة والرواية والمسرحية. وقدّر المرأة بأنها تحمل كل إنسان جنينا في فترة الضعف بينما تحميه حتى في فترة قوته. وطالب السباعي بالحرية التامة والمتساوية في الحقوق والعواطف.

والجدير بالذكر هنا، أن هذا الاهتمام البالغ من قبل السباعي لم يحدث لارتباطه الوثيق بالمرأة لأنه ارتبطت حياته بامرأة واحدة فهي كانت نزعة طفولته ولوعة شبابه وحلم رجولته وأمل مستقبله. هي الامرأة التي تظاهرت إلينا وإلى الجمهور في صورة شخصية من شخصيات رواياته المشهورة مثل "إني راحلة" و"رد قلبي". أما خياله السامي مع قراءته الواسعة وتجاربه المكتظة فقد جعله ينتج جملة إبداعية من الأعمال الروائية التي تعالج قضية المرأة وحريتها بجلاء وضياء.

---

٩٣ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، دار مصر للطباعة، ج ٢، ص ٩١٧

أظني أخطئ إذا لم أقم بالإشارة إلى مجموعة قصصية عنونها السباعي بـ "اثنتا عشرة امرأة" وهي متكونة من اثنتي عشرة قصة مع العناوين التالية. امرأة صابرة، امرأة خاسرة، امرأة نائمة، امرأة محرومة، امرأة ورماد، امرأة وظلال، امرأة غيري، امرأة ضالة، امرأة ثكلى، امرأة شريفة، امرأة غفور، امرأة. وهذه المجموعة كما تشير إليه عناوين قصصها محاولة قوية للكاتب يوسف السباعي أن يشخص النساء من جميع الجوانب والزوايا فيشرح فيها المرأة ثم يحللها حتى من النواحي المتباينة. لا نجد في عالم الأدب العربي أحدا يعالج المرأة بهذا الشكل الرائع من خلال أعماله. فلا غرابة فما قيل عنه أن السباعي ظاهرة اجتماعية. وبالإضافة إلى هذا، يعترف الكاتب بعد تناوله النساء بهذا الطريق العجيب بأنه عاجز أمامهن، وأنه لم يستطع فهمهن بعد.

وهناك فكرة جلية في رواية "نحن لا نزرع الشوك" – هي أن المال أو المهنة من أهمّ الوسائل للتمتع بالسيادة والحرية للمرأة. ويدلّ القصّ في الرواية على ذلك "كانت وقتذاك صاحبة مهنة ... مهما كانت ذليلة ... فقد كانت تبحث بها عن السيادة والحرية ... كانت تريد أن تمتلك ذاتها المبيعة ... وتستعيد كرامتها المهيضة ... بعد أن تتحرر من المهنة وتصبح ذات مال ... يمنحها الحرّية ... ويهيئ لها السيادة " ولكن هذه الأصوات والصراخات تنتهي بمجرّد سماع الكلمات التالية "كلام فارغ يا سيدة ... لا سيادة ... ولا حرّية... في هذه الحياة. بعد أن تحررت من مذلة الجسد ... بت عبدة المشاعر" فليس من السهل أن يستقل الإنسان والمرأة بالخصوص، من سجن العبودية. لأن العبودية تقيد المرأة وتكبلها بشكل أو بآخر.

إن روايات السباعي تحمل في طياتها عددا كبيرا من الإعلانات لتحرير المرأة والشعارات لتثبيت المساواة بين الجنسين – الرجل والمرأة. ويحاول يوسف السباعي عادة أن يبلور في المرأة كل سمات

وطنها ومن بينهن تسبق السيدةُ الآنسة في التحلي بهذه السمات. وربما الخبرة والتركيز في الحياة تلعب دورا هاما في تصوير هذه الملامح المحلية. وفي إطارها تندرج جملة من الاستفهامات التي يكنف في ضمنها النقد اللاذع الاجتماعي. ومنها الكلمات التالية:

ألا تملك حرية الانفصال عنه؟ ...

وهو ... بمجرد كلمة ينطق بها ... يملك الخلاص منها ... يملك القذف بها في الطريق ... مهما كانت حاجتها إليه.

هذه الكلمات نقد اجتماعي صريح يطالب بإعادة البناء لنظام القوانين السائد في المجتمع المصري. وهناك في رواية "نحن لا نزرع الشوك" صراخات تسخر من النظام الجاري وتظهر التباين بدلا من التوازن في الواقع فيقول القاضي بعد أن حكمه على سيدة جابر "تذهبين إلى بيت زوجك بالبوليس يا سيدة؟ وفي زمن تدرس في المدارس حقوق المرأة ومساواتها بالرجل. هذا مجتمع عجيب يا سيدة" وهذا الموقف النقدي متواجد في معظم أعمال يوسف السباعي. وقد فضّل الجمع بني الرجل والمرأة بطريقة تعسفية في رواياته كما نشاهد في رواياته الرومانسية مثل "إني راحلة" و"فديتك يا ليلى". وفي كل من هاتين الروايتين تلتمس الشخصية الرئيسية – المرأة – حريتها والمثول بشخصيتها الخالصة في التطلع إلى حبيبها الذي لا يطمئن إليه أهلها، بغض النظر عن الضغوط القوية على تزوجها ممن يراه المجتمع أو الأهل مناسبا لها.

إن الصوت الثوري من قبل المرأة لتحريرها من قيود المجتمع وتقاليده يبلغ ذروته حين تعلن بطلة رواية "إني راحلة" إزاحة للعقود الزوجية المجبرة "زوجي الحقيقي هو ذلك الرجل الذي تربطني به مواثيق الحب"[٩٤] وقد نجح يوسف السباعي في تقديم أفكاره من

٩٤ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٠٤

خلال أعماله بأسلوب ساخر أو فكاهي ينقد المجتمع ومثالبه بمنتهى الوضاحة والصراحة ومنتهى الجراءة والشجاعة. ولا يخفى علينا أن السباعي اختار شخصياته من البيئة المحيطة به وهذا أضاف إلى صياغة رواياته الفنية رونقا ولونا من سمة الواقعية.

ومن أهم ما يذكر هنا، أن الكاتب يوسف السباعي يعالج المجتمع والواقع بصورة واضحة في رواياته كأنه يرصد الأشياء والأحداث ويدققها من قريب. فقضية العلاقات خارج الزواج تأتي في رواياته محورا من محاوره المهمة كما نرى في روية "العمر لحظة" ورواية "إني راحلة". ولكن الطريق الذي اختارته نعمت بطلة رواية "العمر لحظة" للانتقام من زوجها عبد القادر على علاقته الزناوية بزينات شكري الممثلة فهو يأخذ أسماعنا، حين تبدأ العلاقة خارج الزواج برجل هو المقدم محمود عبد الله. فمن أهم تبريراتها لهذا التصرف هو أن زوجها كان البادئ ولم يكن تصرفها إلا رد فعل لتصرفه، فهو لون من ألوان الانتقام اللاشعوري أو حتى الشعوري. والمرأة هنا تؤكد على كونها محبوبة ومعشوقة وتعلن أن انصراف زوجها عنها ليس بفصل الخطاب لوجودها في عالم الرجل كله، بل هي على حرية كاملة أن تختار آخر يكتنفها. وتتحول حبكة الرواية إلى نقطة هامة أخرى حين ترحّب سامية زوجة محمود عبد الله بنفس الموقف الذي تلقته نعمت. فهذا الموقف من قبل الشخصيتين النسائيتين ثورة ضد الرجولية – ضد سلطتها وتحكمها على العالم البشري. وهذه المفارقة هي محور القضية الفردية وخلاصتها.

لا يخاف الأديب أن يعلّق على وضع المجتمع ووضع المرأة فيه. فيتحدث عن الرجولية وتسلّط الرجال على النساء. فشهيرة في رواية "لست وحدك" تقول ضاحكة: أهذا معقول؟ ويجيب الأستاذ عبد اللطيف ""ولم لا؟ الرجال قوامون على النساء. وهي تعقب على جوابه المفاجئ قائلة "يا أستاذ عبد اللطيفق، إني سيدة

بيت، لا تنس أننا في مجتمع شرقي، تخدم المرأة فيه الرجل ما دام في البيت."[٩٥] وهذه الكلمات تتجلى فيها المقارنة بين المجتمع الشرقي والمجتمع الغربي وتبرز أن المرأة تعيش في هذا المجتمع خادمة للرجل وهي تبقى في قبضته وخدمته في جميع الأحيان.

أما شهيرة فهي تأخذ دائما موقفا صارما يمثل حرية المرأة وحقوقها وهي الوحيدة التي تطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة في النقاش الجاد الذي يجري في عالم الفضاء بين أعضاء بعثة الرحلة إلى الفضاء وهي تحتج تجاه كلما يبدولها ضد المرأة وحريتها ورغباتها. وهي القائلة ثائرة "إني لا أتكلم عن نفسي، ولكني أنظر إلى المسألة من ناحية المبدأ. غير معقول أن نعطي لرجل حق الخيانة واللعب بالذيل، وأن نتركه في الكوكب على حل شعره دون أن نحاسبه". وهي تكره جدا مجتمعا في الفضاء يسيطر فيه الرجال على الغير.

ويتناول يوسف السباعي حرية المرأة وأهمية وجودها وحقوقها بطول وتفصيل في رواية "لست وحدك". وحديثه عن عادة الزواج وما يخلفه من السلبيات والإيجابيات يساعدنا على فهم ملاحظاته وآرائه في شأن المرأة.

ونستنتج من ذلك أن موقف يوسف السباعي في حرية المرأة وفي منحها جميع حقوقها صارم جدا، بحيث يثور على جميع المعاملات والعادات والتقاليد التي تمهّد دربا لاستغلال المرأة وافتراسها مثل الزواج. وهو يستهدف ضمن كلامه بهذا الصدد إلى تنقية النظام وتزكيته من الألف إلى الياء. وها هو ذا يشرح القاص رأيه في رواية "لست وحدك" "والمرأة بعد أن تصبح زوجة لا تقتصر حاجتها على مجرد الورود وهمسات الحب، بل هي تحتاج إلى النقود التي تدبر بها أمر البيت والمعاملة الإنسانية التي تشعرها بكرامتها وعزتها"[٩٦]

---

٩٥ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٧٨

٩٦ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٢٢١

وقد خصص السباعي بابا من روايته "لست وحدك" بعنوان "رغبة في التحدي" لعرض الثورة من قبل المرأة ضد غطرسة الرجل داخل البيت. وهذا الموقف تمثله شهيرة بطلة الرواية وهي تثور على زوجها بعد أن صبرت صبرا جميلا وحاولت كلما بوسعها لكي تسير علاقتها الزواجية بطلاقة وسلامة. وهذه الثورة الأنثوية تجري عن طريق الحوار بينها وبين زوجها مدحت. يقصه الروائي كما يلي:

"وانفجرت شهيرة صارخة في وجهه:

إني أستطيع احتمال كل سيئاتك ... وأنانيتك.

وقاطعها في حدة:

أي سيئات؟

إنك لا تريد أن تحمل مسئولية من مسئوليات البيت. إنك تعيش كسيد متغطرس. مفروض على كل من في البيت أن يخدموك، ويتحملوا متاعبك."[٩٧]

وهذا المشهد من هذه الرواية يشهد ثورتها العارمة على معاملات زوجها وعلاقاته غير الشرعية وغفلته عن مسئولياته كزوج وأب. وبالجملة، يقدم الكاتب حرية المرأة للتعبير عن حقوقها وأفكارها.

قضية الزواج

ومن أهم القضايا التي عالجها يوسف السباعي في رواياته قضية الزواج. فهو يتمرّد على النظام الإجباري للزواج وهو السائد في المجتمع المصري حين تختار العائلة زوجا لبنتهم بدون السماع إلى رأيها فيه وبدون الاستفسار عن وجود حبها وعشقها لأحد آخر. ومثل هذه الزواجات الإجبارية كثيرا ما تنتهي في الخطر كما يقدمه لنا

٩٧ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٦٣١

الكاتب في رواية "إني راحلة" و"رد قلبي". ومثل هذه الحالات تفضل العشيقات الهروب من بيت زوجها واللجوء إلى معشوقيها. ومن هذه الزاوية، يعتبر الكاتب الزواج والحياة بعدها مأساة مفجعة ومصيبة عظيمة في أحوال محدودة. ومما يدل على أنه لا ينكر عقد الزواج، يل تقلقه مثل هذه الحالات المأساوية المذكورة، تعبيره على لسان بطل قصة "خريف امرأة" "أبغي الهدوء والاستقرار أريد حياة ناعمة غير مضطربة أريد شريكة تعينني على الحياة ولا تعين الحياة، أريد امرأة تذهب عني الهم وتمسح بيدها الحنون أحزاني وأشجاني ..... ٩٨"

ويطالب الكاتب بحرية المرأة في اختيار زوجها، في فترة لم يكن الوعي الاجتماعي العام بمصر فيها يكيف تلك الفكرة على نطاق واسع. ولذا بدت تلك الفكرة تمرّدا على التقاليد المتبعة في المجتمع المصري. وتظهر عايدة بطلة رواية "إني راحلة" عن كراهيتها للعلاقة المبنية على زواجها وتعلن بشجاعة "إن زوجي الحقيقي هو ذلك الرجل الذي ربطتني به مواثيق الحب. إن ما فعلته مشروع في عرف نفسي ... أما ما فعلت، فيما مضى فقد كان هو الفسق لا محالة، الفسق المشروع بالإكراه، إكراه العقود الزوجية"[٩٩]

يتمرّد الكاتب ويثور على المجتمع وتقاليده وعاداته الإجبارية وينقدها نقدا لاذعا وكان يحاول من خلال كتاباته وأنشطته أن يبدل ذلك النظام الذي يبرز فيه الاستغلال الاجتماعي وطالب فيها بالحرية للنساء. وغضب على من يعرقل حرّيتهن فكأنه أدرك دور علماء الدين في إثبات مثل هذا النظام الاستبدادي فعارضهم بقوة وبصوت عال متحدثا على لسان عايدة بطلة رواية "إني راحلة" "أتذكرون ذلك الشيخ المعمم الذي قرأ وكتب وأباح لي بكتابته أن

٩٨ يوسف السباعي، مجموعة أطياف، قصة: خريف امرأة ص ٢٤٢ و٢٤٢

٩٩ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٩٢.

أرقد في فراش إنسان غريب وأرتمي في أحضان رجل لا تربط بين قلبينا صلة، ولا يشد روحينا عهد أو ميثاق؟ ذلك العقد التافه هو الذي كان ينقصني لي يجعل مني في نظركم امرأة شريفة ويجعل مما تسمونه فسقا عملا مشروعا تأتونه حين ترغبون".[١٠٠]

أما النظام الإجباري فيما يتعلق بقضية الزواج فهو أمر شائع في المجتمع المصري كما هو الشأن في العالم العربي على الإطلاق. فالتمرّد على النظام السائد من قبل أية امرأة يرفع أسئلة كثيرة في منظور المجتمع. فمعاملاتها مثل علاقتها مع عشيقها وهروبها من بيت زوجها وتخليها مع حبيبها، هي كلها تعد من الكبائر التي لا يحتملها المجتمع من أية ناحية. وهذه القضية الزواجية الإجبارية التي أدت إلى تلف كبير وخسارة باهظة في حياة النساء قد اهتم بها النقاد والكتاب اهتماما بالغا بحيث بعضهم كانوا يزعمون أن هؤلاء الناس الذين لا يوافقون مع عادات المجتمع وتقاليدهم قد أصبحوا مستحقين الانتقادات من قبل المجتمع الاستغلالي والاستبدادي.

والزواج يتم تناوله من ناحية أخرى في رواية "لست وحدك" حين يوظف الكاتب هنا طريق السخرية مع مزيج من الجدية. فعبد الراضي تزوج مرات وكسب الأموال عن طريق الزواج. وله الأولاد من الزواج. أما الأمر الذي يقلقه ويزعجه الآن كثيرا فهو الطلاق. بالرغم من أنه قام بالطلاق مرات، إلا أنه يخاف عليه الآن جدا. لا يحتاج إلى النقود للزواج ولكن النقود مطلوبة للطلاق وهو يعرب عن هذه المعضلة الشخصية للأستاذ عبد اللطيف الذي لم يتزوج بعد، قائلا "الزواج لا يحتاج إلى نقود يا أستاذ. الزواج لا يكلف. الطلاق هو الذي يكلفنا كثيرا"[١٠١] وبالإضافة إلى هذه العلاقات الزواجية يلتزم عبد الراضي بالعلاقات غير الشرعية مع النساء الأخرى مثل زهرة،

١٠٠ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٩٢.

١٠١ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٧٣

هي خادمة السيدة الفرنسية التي تسكن الشقة التي تقع تحت شقة الأستاذ عبد اللطيف. والمطلقات يتابعن عبد الراضي ليجدن منه نقودا لمعيشتهن وأبنائهن. فالطلاق هو الذي يدهشه ويؤذيه. ويصور الكاتب قضية الزواج وما يخلف من المشاكل الاجتماعية بجملة بسيطة "بالزوجة السادسة بدأت موجة جديدة من مشاكل عبد الراضي الاجتماعية والاقتصادية" وهذه العبارة تحمل في طياتها مشكلة تعدد الزوجات وازدياد الطلاق اللذان أصبحا عامة وعادة في المجتمع المصري.

ويتشدق الكاتب بمشاكل الزواج والصراع بين الرجل والمرأة على لسان عبد اللطيف وعلى خياله وأفكاره وهو لم يحاول أن يلقي بنفسه إلى معترك الزواج. "وقد تتوافر في مخلوق بالصدفة صفات المحب النموذجية، وصفات الزوج النموذجية، فينتهي الحب إلى زواج سعيد"[١٠٢] أما إذا لم تتوافر تلك الصفات النموذجية يتحول الحب بعد الزواج إلى الكارثة.

وفي الحوار الذي يجري بين شهيرة متزوجة وعشيقة عبد اللطيف الأخيرة وبين الأستاذ عبد اللطيف. يرفع عبد اللطيف سؤالا "ألا تعملين؟" وتجيبه بأنها تزوجت بعد أ، تخرجت في الجامعة مباشرة. ومن ضمن هذا الجواب نقف على النقد الاجتماعي من قبل الروائي حول الزواج في السن المبكرة. وفيما بعد يأتي بجملة مهمة على لسان عبد اللطيف "تبدين وكأنك لم تتجاوزي السابعة عشرة" – هي تضيف إلى الفكرة المذكورة تأكيدا وإثباتا. ثم يعود عبد اللطيف بتساؤل بسيط يتضمن نقدا لاذعا لأمور اجتماعية شتى. والسؤال هو "- متى تزوجت؟ ومتى أنجبت؟ وما عمر ولديك".[١٠٣] أما القضايا التي تندرج تحته فهي تشتمل على الزواج في السن المبكرة،

---

١٠٢ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٠٧.

١٠٣ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٦٨

والإنجاب في وقت مبكر، واستمرار أمر الولادة وإنجاب الأولاد.

ويرى الكاتب أن الحب يستمر ويتمادى لو لم يتم الزواج وهو يقول خلال حكاية الحب بين شهيرة ومدحت الذي انتهى أخيرا إلى الزواج بينهما. "ولو لم يتم الزواج، لو أن هناك عقبات خطيرة حالت دونة لأصبحت قصة حبها خالدة، كقصة جوليت، أو ليلى ولكن، للأسف، لم يكن هناك ما يحول دونه. بل إنها لم تتصور قط حينذاك، أن قصص الحب الخالدة استمدت خلودها من عدم إتمامها، من أنها مجرد جزء مبتور من قصة الحياة الطبيعية. وإنها مرحلة من الحب انتهت بالفشل فبقيت معلقة في ذهن التاريخ بصورتها المبتورة ونهايتها الفاشلة."[١٠٤] وبعد هذا التقديم، يتمادى الكاتب في بيان الزواج وما يخلفه من المشاكل والقضايا.

ثم يتحوّل كلامه إلى التمرّد على ما يحدث من الأزواج للزوجات من الاضطهاد والظلم والمعاملة السيئة وما عداها من أمور الفاحشة فشهيرة مثلا تحاول كل محاولة أن تكون عيشتكما الزوجية متميزة من العلاقات الزوجية الأخرى بدون كراهية ولا مشاجرة ومع ذلك لم تفلح في تغير السلوك الطبيعي لمدحت كزوج إلا شكلا. "ولم تنجح في أن تجعل منه شيئا آخر غير بقية خلق الله من الأزواج الذين يهجّون من بيت الزوجية بمجرد الاستقرار فيه، والذين يحسون بالانجذاب لجميع نساء الأرض عدا زوجاتهم."[١٠٥] وهذه الكلمات تصبح قراءة حقيقية وواقعية للعلاقات الزواجية على أرض الواقع. إن الفكرة التي لا يزال المجتمع يتحلى بها في شأن العلاقة الزواجية هي – كما يلاحظ الكاتب – أن الرجل (الزوج) مخدوم دائما، بينما المرأة (الزوجة) خادمة دوما. وهذا كما يدعي يوسف السباعي لا بد أن يتغير. ويبدو من كلمات الروائي أن يسخر

١٠٤ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٣١١

١٠٥ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٨١١

بها من النظام الزواجي السائد في المجتمع والذي يشجع تعدد الأزواج، بحيث يخدع الرجال أزواجهم بين آونة وأخرى.

يشهد الباب الواحد وعشرين المعنون بـ"الثواب والعقاب" في رواية "لست وحدك" نقاشا جادا عن الحب والجنس والزواج. ويتم من خلاله تعريف الزواج بشكل جميل صريح. فيعرّفه الروائي بأنه "شركة قد يكون من مقوّماتها الحب والجنس، ولكن مقوّماتها الأهم هي التوافق بين طرفي الشركة، ومدى فهمهما لمسئوليتهما في الشركة، وفي أنها ليست مجرد حقوق بلا واجبات، أو وسيلة للإشباع العاطفي أو الجنسي، وإنما هي مشاركة في عملية بناء جادة وخطيرة، تتزايد خطورتها مع الأيام. عملية بناء يجب أن يتحمل كل منهما نصيبه فيها من الجهد والمشقة والمتاعب والمشاكل"[١٠٦] وهذه الملاحظات تمّ تقديمها بشكل رائع يفهمه الجميع بسرعة. وبناء على ذلك، يمكن الملاحظة، أن الزواج عقد ثنائي يتطلب الالتزام بالتعاون والتعاضد والتكاتف من قبل الجانبين – هما الزوج والزوجة. ولكن اليوم لا يجري ذلك كما نتمنى. وكثيرا ما يكون الزواج يمضي من جانب واحد – هو الزوجة ألا هي المرأة وهي تتعرض دائما للاضطهاد والظلم من قبل الزوج. وفي هذا التقديم المقنع، إشارات قوية إلى ما يجري في عالمنا اليوم من العلاقات الزواجية التي تنتهي أخيرا إلى الفشل التام، وفيه أيضا نداءات للتغيير الاجتماعي المنشود في هذا الصدد.

---

١٠٦ يوسف السباعي، لست وحدك، ص٥٧٣

المبحث الثاني:
إني راحلة: رحلة نقدية -
اجتماعية ليوسف السباعي

نفضل هنا أن نقوم بتحقيقات دقيقة تساعدنا على الإدراك الصحيح من الموقف لرواية "إني راحلة"، هي من أروع الروايات التي تعالج قضية المرأة فقد خصصنا له مبحثا خاصا لنحيط بجميع جوانبها. ونتمنى أن يكون هذا المبحث مفيدا ومثيرا للغاية في أوساط الأدب والنقد وفيما بين جمهور القراء. ولا شك أن هذه الرواية من أعمال يوسف السباعي الأدبية المذهلة جدا. وكثيرا ما نفضل قراءة كتاب أورواية بعدما علمنا وسمعنا عنه من أصدقائنا وأساتذتنا أو بعد ما قرأنا بعض الاستعراضات عن ذلك العمل. ولكن رواية يوسف السباعي "إني راحلة" لا تحتاج إلى هذا الحد من التعليقات والبيانات لتأخذ قلوب قرائها فبمجرد أن ندخل في تصفحها تتجلى المعاني التي تحملها والأفكار التي تتكثف بها. وعندما نتفرغ من قراءتها نقتنع بتعليقات الأدباء والنقاد عن هذا الأديب الموهوب وعن أعماله الجميلة. وتبدو هذه الرواية في معظم الأحيان ضجة صارخة ضد التقاليد التافهة أو نقدا لاذعا للنظام الاجتماعي الاستغلالي.

إن بدايات هذه الرواية نفسها تشير بصراحة إلى ما تقدم في الصفحات التالية من أراء قوية نقدية كما نجد فيما تعرِّف الشخصية الرئيسية عايده نفسها في الصفحات الأولى فتقول ".. أنا الزوجة الهاربة الخائنة الفارة مع عشيقها . . الراكلة بقدميها

كل تقليد، المحطمة كل قيد"[١٠٧]. وهذا الإعلان بالحرية الكاملة – بالحرية الذاتية يفاجئنا صرخة كبيرة تكاد تدمر كلما يقع أمامها. أعتقد أننا لا نخطئ إذا اعتبرنا هذا الكلام بكلماتها الصريحة ومعانيها الجليلة خلاصة لهذه الرواية لأن هذا الصوت العالي نشعر بسماعه طول الرواية. ونفضل نقاش النقد الاجتماعي في الرواية من جانبين مهمين:

أولا: الشخصيات الرئيسية للرواية

عايده: هذه الشخصية كما ذكرنا آنفا بطل الرواية ونشأتها وتطورها في حبكة الرواية لا تزال تتمتع بالمواقف النقدية الاجتماعية كما أعلنت موقفها الحالي في بداية الرواية استرجاعا لأيامها العابرة. وهي تعبر عن مقاومتها في السطور التالية " .. بل قضيت أيامي أقاوم وأقاوم، وأحرم نفسي الاستمتاع بالحياة . . حتى أفلت مني الزمام في النهاية من فرط المقاومة .. "[١٠٨] وتعابيرها في موقف آخر تفيد بدقة أن الظروف الاجتماعية هي تخلق المجرمين فلا عيب لهم على ما فعلوا بالضرورة"إني عندما ارتكبت ما تسمونه خطيئة . . كنت واثقة وأنا في الظروف المحيطة بي أنها ليست من الخطيئة في شيء.. وأن ما فعلت هو خير ما يجب أن أفعله وأنه حقي في الحياة"[١٠٩] وهي تصور في كلامها معركة الوعي بين موقف التقليد والتجديد "كانت الأيام التي تلت تلك الليلة .. أيام نضال بين مبادئي القديمة ومشاعري الجديدة"[١١٠] ونجدها تثور ضد التقاليد الاجتماعية مثل النكاح والزواج بضجة تمتزج فيها اليأس والشجاعة

---

١٠٧ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ١١

١٠٨ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٣١

١٠٩ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٨١

١١٠ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ١٧

والحزن والغضب فتقول "يا لحمق التقاليد وسخفها؟"[١١١] ويلتهب شعورها ضد الأرستقراطية حيث تقول "لقد مللت السيادة الكاذبة والأرستقراطية الزائفة .. كرهت الملاهي والفراغ، والدعة والخمول ... ألا تحبني هكذا"[١١٢]

تبدو مجموعة كلماتها مرة خطبة نقدية لاذعة ضد عالم النفاق الذي يشهده الإنسان يوميا "عالم النفاق والمنافقين، كلكم تتمنون أن أذكر ما حدث، ولو كتبته لأقبلتم على قراءته بلهفة الجائع المحروم، فإذا ما انتهيتم منه هززتم الرؤوس أسفا، وقلبتم الشفاه احتقارا واشمئزازا، وقلتم:هذه إباحية ... هذا كلام لا يكتب." وتضيف "كلكم منافقون وأشدكم نفاقا أكثركم تظاهرا بالحرض على الفضيلة، وتمسكا بالأخلاق والتقاليد. أجل التقاليد الزائفة التافهة" حتى تصرخ أخيرا "إلى الجحيم ... أنتم، وعقودكم، وتقاليدكم"[١١٣]

وتفضل هذه الشخصية ذات الهمة القوية، بعد أن كانت ترى انتحارا للموت مع عشيقها أحمد، الحياة للدفاع عن النفس بإعلان حريتها الذاتية وبتسجيل ثورتها ضد التقاليد التافهة

"سنذهب سويا، سأترك للناس، جسدا آخر، ينهشونه بألسنتهم الحداد.

ولكن لم؟ إني مظلومة، أبعد كل ما لقيت، أذهب هكذا مشيعة باللعنات كأي مذنبة مجرمة؟

أما يجب أن أدافع عن نفسي؟[١١٤]

---

١١١ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٠٩١.
١١٢ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٠٧٢.
١١٣ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٩٧٢
١١٤ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٠١٣.

أحمد (عشيق عايده): هذه الرواية تلتهم صورة كاملة للقصة بوجود هذه الشخصية البارزة، لولاه لم يكن للرواية وجود معنا. وأحمد برغم أنه واجه مشاكل عديدة في حياته إلا أنه كان شخصا قويا كأن تجاربه المرة أصبحت سمادا لتقوية شخصيته وشحذ رجولته. وهو برجولته الجلية وقرارته الحاسمة تبرر بقاءه في الرواية ذات النقد الاجتماعي اللاذع وصوته ضد التقاليد الإجبارية يتدرج في الظهور حيث ينحصر أولا في حواراته مع عشيقها عايده كما يظهر في حديثه عن عروسه "ابتسام" التي اختارتها له أمه منذ أن ولد"ليلاي شيء . . وعروسي شيء آخر . . هذه عروس بالإكراه . . فقد اتفقت أمي وأمها منذ ثمانية عشر عاما .."[١١٥] وهذه القوة الملتهمة في روح أحمد وجسده تجعل عشيقتها عايده تحلم في سباتها بجوار أحمد "يمزق أحمد دفترالشيخ المعمم تمزيقا ويهوي على الرجل بضربة من يده ترديه صريعا"[١١٦] والشيخ المعمم في الرواية يمثل مجتمعا رسخت فيه التقاليد التافهة.

علي (أخو عايده): هو من أهم الشخصيات التي تساعد الكاتب في رحلته النقدية الاجتماعية في هذه الرواية وله دور هام في تقدم الحبكة وتطورها حيث تواجده يمهد دربا لتردد أحمد بيت عايده بعد ما خضعت العلاقة العائلية بين الأسرتين لانحطاط وسقوط. وهذه الشخصية قوية في ذاتها حيث علي يختلف تماما من أبيه ولا يزال يعارضه في القرارات ويرى آراء تخالف آراء أبيه وقد عبرت عنهما عايده بصراحة "لقد كنت أحس أن بين الاثنين هوة عميقة .. وأنهما على اختلاف بين في كل شيء.. ليس بين أحدهما والآخر أي تشابه في المشارب أو تقارب في الأهواء.. كان أخي إنسانا عاطفيا رقيقا، مرهف الحس، وكان أبي لا يعترف إلا بالمذهب المادي،

١١٥ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٤٠.

١١٦ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ١٦٢

ولا يقدر إلا الشيء الذي يستطيع أن يمسكه بيده ... ولا يفهم إلا أن الحياة المال، والمال الحياة، وأن النقود هي كل شيء ..."[١١٧] وقد وجدنا علي يثور غيظا ويلتهب احتجاجا عندما يفهم أن أختها كانت تريد الزواج مع أحمد ولكن أباه اختارلها من لا تحبه فيسألها غاضبا على صمتها أمام أبيها "ماذا كنت تقولين؟ !! ثوري وقاومي .. حطمي كل شيء .. اصرخي .. استنجدي .. هذه حياتك .. أتتركينها تذهب سدى.. إننا لم نعد في زمن الاستعباد.. "[١١٨] وهذه التعبيرات بواحدة يقنعنا بأن الكاتب يوسف السباعي تصور من خلال الرواية رحلته النقدية الاجتماعية ضد تقاليد المجتمع التافهة.

أبو عايدة وجدتها: بينما أبوها يمثل عبر سطور الرواية صاحب التقاليد التافهة والأفكار الأستروقاطية ويتصف بحبه الغارم للمال والجاه، نجد جدتها تلتهب لوعة وغيظا ضد قرار ابنها في تزويج بنته بابن زكي باشا بدلا من عشيقها أحمد. وأصوات الأب وألحانه دوما تتسم بقمع التمردات والرسوخ في التقاليد الاجتماعية والرغبة في الحصول على الجاه في المجتمع. فثورة الأم ضد ابنها لا تفيد شيئا بل تصبح كلاما فارغا.

ثانيا: حبكة الرواية وقضاياها الاجتماعية

هذه الرحلة النقدية ليوسف السباعي تتم بالتعاون مع حبكة الرواية وهي تتناول قضيا اجتماعية مختلفة ولا يحصر الكاتب كلامه على بيانها بل يعلق عليها تعليقاته النقدية على ألسنة شخصياته. نجد في كلامه على لسان قاصة الرواية تعصبه بالفرقة المظلومة التي جعلتهم الظروف مذنبين مجرمين "أنا لا أخجل من اعترافي .. فإني أجد فيه دفاعا عن نفسي وعن سواي من المظلومين

---

١١٧ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٥٥١

١١٨ يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، العجالة ص ٠٧١.

الذين انطوت صدورهم على أسرارهم، والذين طوتهم عجلة القدر فراحوا أضحيتها واتهموا بالذنب ولا ذنب لهم .. "[١١٩] وفي افتخار عايده بالتحاق أحمد بالكلية الحربية لمهارته في لعبة الكرة بدون الوساطة نقد الكاتب الشديد على قضية الوساطة التي سيطرت على جميع تعيينات دراسية ووظيفية في المجتمع.

أما شعور الكاتب الوطني وحبه لكل ما هو مصري فيتضحان أكثر الوضوح في حديثه عن تجاهل الناس عن الجيش وأهميته فيقول "لم يعيبون الجيش والعيب في الأمة؟ إن هذا النعل من ذاك الوطا؟ أو هذا الجيش من تلك الأمة. أمة محتلة . . ينخر فيها سوس الغاصب . . أمة يئن شعبها الهزيل تحت وطأة البلهارسيا والأنكلستوما وماء الترع".[١٢٠] وألفاظ أحمد الغاضبة حول استعمار الإنجليز تحمل في طياتها كراهية يوسف السباعي لاستعمار الإنجليز وخيانتهم "ولكننا بدأنا في الجيش عهدا جديدا، كان الإنجليز يسيطرون عليه ويتولون قيادته ليضغطوه ويطبقوا عليه حتى يظل منكمشا . . "[١٢١] ويعلن الكاتب حبه البشري بصراحة على لسان أحمد "أنا لا أتعصب للضباط، ولكن تلك هي طبيعتي .. أحب البشر جميعا . . ولكني أحب المصريين – مهما كانوا – أكثر من جميع البشر.... تلك هي شيمتي: أحب أمتي وجيشي وسلاحي"[١٢٢] وحبه للغته العربية وأهلها وثقافتها واضح في افتخار عايده حيث رأت فيمن اجتمعوا مصريين يتكلمون العربية "ووجدت من بينهم من يؤمن بمصر.. ويحب مصر.. وجدت منهم من يتكلم العربية "كأحد أبنائها" !!"[١٢٣]

---

١١٩ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٣١
١٢٠ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٨٦
١٢١ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٨٦
١٢٢ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٨٦
١٢٣ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٧٢٢

حديث أبي عايده الطويل في مدح تهاني بك يؤكد بدقة أن أساسيات المجتمع تنكمش في المال والجاه والالتحاق بالسلك السياسي بالرغم من أنها قد لا تقدم للمجتمع راحة وسعادة كما يتوقع ".. ولا أظننا نطمع في أفضل منه، بل ما أظن أن هناك أفضل منه، طيبة أصل، وعراقة محتد، ومال وجاه وسلطان، وشباب نضر ومستقبل مزدهر ... إن "تهاني بك" أمامه مستقبل حافل، أمامه الالتحاق بالسلك السياسي، وأمامه الحياة النيابية، والمناصب الوزارية ... غدا يسلك طريق أبيه، فالمناصب العليا شبه وراثية،"[١٢٤] وقول البطل المتكرر "تماما كما توقعت" يثير نقد الكاتب التقاليد التي لا تتغير ولا تقبل التجديد.

كراهية عايده ثقافة زوجها توتو وأصحابها وتفضيلهم لغة فرنسا وثقافتها تمثل بشكل غير مباشر كراهية الكاتب التهام المصريين في الثقافة الغربية حتى تضيع لمصر صورتها وحضارتها ويصور توتو صورة هؤلاء المصريين الغربيين "سرقة الزوجات من أزواجهن، والأزواج من زوجاتهن .. هنا ناد، وخاطبة كان يجب أن يطلقوا عليه "النادي الشرعي" لكثرة ما يحدث فيه من حوادث الطلاق والزواج"[١٢٥] وقد أدت هذه الثقافة بطل الرواية عايده تشعر بأن المرأة سلعة بسيطة يلهو بها الرجال فهي تقول "فقد كان في شغل شاغل عني بزوجة صاحبه .. كما كان صاحبه في شغل شاغل عن زوجته بي. وتملكني غيظ شديد .. فقد وجدتني لا أزيد لدي زوجي عن سلعة بسيطة يملكها ... ليس أسهل عليه أن يستبدلها أو يستعيض عنها"[١٢٦]

يمثل توتو ومحمود شكري جيلا مكسالا لا يعمل شيئا بل

١٢٤ يوسف السباعي، إني راحلة ص ٣٥١
١٢٥ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٣٠٢
١٢٦ يوسف السباعي، إني راحلة، ص ٧٠٢

يتمتع بإنفاق وإسراف ما ورثوا عن آبائهم وأجدادهم الذين جمعوا الأموال بجهودهم الجبارة وعانوا خلالها مشقات وصعوبات وبهذا التمثيل ينقد الكاتب هذا الجيل المكسال نقدا لاذعا. هكذا تتم هذه الرحلة النقدية-الاجتماعية ليوسف السباعي من مقدمة وستة عشر فصلا وخاتمة عبر ثلاثة مائة وأربع عشرة صفحة مكتظة بالأفكار الثورية.

وقد تناول د. طه وادي أعمال يوسف السباعي في كتابه "صورة المرأة في الرواية المعاصرة". وخلال تعرضه لرواية "إني راحلة" للسباعي، يعلق الكاتب عليها قائلا "تشهد مأساتها وترى قدرها ومع ذلك لا تحاول له ردا هي أو البطل الذي يشاركها فن الرواية، حين تخطب لا تحاول هي أو هو دفع القدر، بل حتى مجرد البوح بحبها، ويتركها تتزوج ويتزوج هو أيضا، بعد أن أثبتا أنها لا يجيدان إلا البكاء والحزن، ولذلك فهما جديران بالموت الذي كتبه المؤلف عليها بريقه "ميلو تراجيدية" في نهاية الرواية"[١٢٧] بالرغم من أن بطلة الرواية تتمرّد ضد النظام الاستبدادي في المرحلة الثانية أو النهائية إلا أنها تفضل في المرحلة الأولى أو البدائية أن تسكن صوتها الثوري وألا تعلن بحرّيتها. ورغم أنها ثارت على النظام الاستغلالي السائد حيث تطورت الحبكة إلا أنها تعرضت للمأساة أو تورطت في الخطر حين مرض عشيقها وتنفس التنفس الأخير وهو راقد في حجرها فقد اختارت تلك اللحظة لموتها معا. وفي الواقع، نجد في هذه النهاية المأساوية خضوع البطل للمجتمع الاستبدادي. ومن الملاحظ أن الكاتب يوسف السباعي استهدف من خلال كتاباته الأدبية إلى إن إنهاض المجتمع النسائي إلى أن تكون كلماتهن قوية ثورية ضد السلبيات المسيطر على المجتمع بغض النظر إلى أعضاء الأسرة أو الأقرباء أو من يقود المجتمع من وراء سدّ الديانات.

---

١٢٧ د. طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف ٤٨٩١، ص ٥١.

المبحث الثالث:

الاستغلال الاجتماعي

إن الإطلال على أعمال يوسف السباعي يفيدنا أنه يثور على الاستغلال الاجتماعي ويتمرّد على النظام المستبد السائد من خلال كلماته الصارخة والعجيب في هذا، أنه يمزج في أسلوبه الثوري الفكاهة والسخرية بدون أن ينقص شيء من جدية الموضوع وخطورته. نحن نسمعه يكتب بصراحة في عمله القصصي "نائب عزرائيل"- فكلهم يتكأكأون على محاربة الفقر والمرض والجهل حتى باتت الكلمات الثلاث من أشهر الكلمات وأقربها إلى الألسن ... ومع ذلك فالفقر والمرض والجهل ما زالت بخير وعافية ... لا لشيء إلا لأن زعماءنا وكبراءنا ووزراءنا وخطباءنا وشيوخنا ونوابنا وكتابنا ... كلهم دون أن نستثني منهم فردا ... ليسوا إلا مرتزقة.[١٢٨]

وبهذه الكلمات يتمرّد الكاتب على جميع من يعمل لمصالحه الذاتية بغض النظر عن منصبه ومكانته وطبقته ويتضمن هذا النقد الاجتماعي – السياسي جميع ألوان من الناس بما فيهم الزعماء والوزراء والخطباء والشيوخ والكتاب. والمهم بهذا الصدد، أن السباعي لا يخلي نفسه من هذا النقد البالغ فيعرب عن نفسه قائلا "مثل هؤلاء لا يبغون إلا مصلحة خاصة. ولا يريدون إلا صيحات إعجاب ... حتى هذا الكاتب الذي تفيض مقالته بالنقد لهم وبالسخرية منهم. لا يهمه من مقاله إلا أجر المقابلة ... أو الكلمات الإعجاب والتهنئة بعبقريته ولوذعيته. أما محاربة الفقر والمرض

١٢٨ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٢٧

والجهل ... فهي أبعد ما تكون عن ذهنه ... وإلا لو كان صادقا في قوله لما أضاع وقته في تلك الكتابة التي كان يعرف أنها لا تجدي فتيلا ..."[١٢٩]

وفي رواية "لست وحدك" يعلن الكاتب بأن الإنسان يلتزم بالتكبر والمرح والجبروت كأنه يعتقد أنه بوحدته في هذا الكون، ولكن ذلك ليس بصحيح. فالكون حافل بالكائنات المتنوعة والإنسان واحد منهم ويسأل السباعي فكيف يمكن الكبرياء في هذا الكون؟ وكلماته الوجيزة في مقدمة هذه الرواية شاهدة على هذه الفكرة المحورية وهو يكتب "هذه أرضك الكبرى ودنياك الحافلة ... كرة ضئيلة في بحر الكون المتلاطم ... ومضة من ملايين الومضات في السماء الفسيحة. لست في الكون وحدك إنما الله أحد. الله الصمد"[١٣٠] ويلوح في اختيار عبد الراضي للذهاب الى الفضاء مع عبد اللطيف في رواية "لست وحدك" لون من الاستغلال الاجتماعي الذي يعنى به استخدام الأشخاص من الطبقات السفلى فرائس للتجارب والاختبارات التي يجريها الأشخاص من الطبقات العليا. ويأتون بأسباب متعددة لهذا الاختيار كما نجد الأستاذ عبد اللطيف يتحدث "يريدون انعكاس الرحلة في نفس بشر عادي ... إنسان، مجرّد إنسان ... وأنت خير من يمثل الإنسان يا عبد الراضي بكل ما فيه من مركبات الخير والشر، بكل ما فيه من نزوات، وفضائل. ألست كذلك؟"[١٣١] وهذه الكلمات بجملتها تطرح أسئلة هامة على إنسانية الإنسان وكينونته.

قضية التفرقة

ومن الموضوعات التي تناولها يوسف السباعي باهتمام بالغ

١٢٩ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٣٧
١٣٠ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٤
١٣١ يوسف السباعي، لست وحدك، ص

في رواياته قضية التفرقة بين الأفراد على أساس اللون أو الجنس أو الشكل ونقدها الكاتب نقدا لاذعا في كتاباته الروائية. والتفرقة من أهم الظواهر التي تلوح ملامحها مبعثرة في أجزاء رواياته وفي رواية "لست وحدك"، تمثل أحاديث "شهيرة" بطلة الرواية تلك النواحي من التفرقة الاجتماعية. وهي قضية تواجه جميع المجتمعات العالم بشكل أو بآخر. وشهيرة تعرب عن فكرتها بهذا الصدد بعبارات صريحة "والتفرقة بين الأفراد للون، أو الشكل، أو الجنس، أو العقيدة ... قد أضحت إحدى مصائب الرعية. قد كان مفهوما أن يتميز إنسان على آخر لأنه أذكى منه، ولكن أن يتميز عليه لأنه أبيض منه فهذه مصيبة[١٣٢]"

قضية الرشوة والفساد

يتناول الكاتب يوسف السباعي في رواياته عددا كبيرا من الاستغلالات الاجتماعية وقد أصبح من العادة أن تتضمن كل رواية من رواياته مشكلة من المشاكل الاجتماعية مثل النفاق والرشوة. وهنا نحب أن نقدّم بعض التعليقات المهمة على هذه الأزمة الاجتماعية استمدادا من مضمون رواية "نحن لا نزرع الشوك". إن المخالفات الاجتماعية والقانونية ليست بغريبة في المجتمع العربي. نلاحظ كما يرى يوسف الشاروني، أن سيرة سيدة جابر تقدم أمامنا فكرة مهمة هي – أن الثروة في المجتمع المصري يمكن أن تكون لها طريقان: الدعارة طريق النساء، والرشوة طريق الرجال.[١٣٣]

وهنا نجد عشيقا من عشاق سيدة جابر التي تجاوزت مراحل مختلفة في حياتها المتقلبة والمضطربة، اسمه أنور بك يقول تلخيصا

---

١٣٢ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٨٦٣

١٣٣ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٨٨

لحياته "... وبدأت أمارس عمليات مقاولات صحية على الضيق ... ثم دخلت شريكا في إحدى مقاولات الحكومة ... ومن يومها تعلمت مهنة أكثر حيوية من المقاولات الصحية، مهنة لازمة لكل مهنة يريد صاحبها أن يربح جيدا. مهنة الرشوة". أما الرشوة على ما ينقده الكاتب، فليست بجريمة بل هي تمتدّ في المجتمع كمهنة محبوبة. هي تساعد الإنسان على كسب الأرباح الباهظة بسرعة عجيبة وبدون مشقة كبيرة. فلماذا يستحيي الإنسان أن يمارس هذه المهنة؟ والجزء الثاني لهذه المهنة الرائجة قد غفل عنه الغافلون – هي استغلال اجتماعي. والرشوة من أهمّ المقومات التي يبنى عليها النظام السياسي والمجتمعي. وملامح الرشوة مبعثرة في جميع أنواع العمل. فالكاتب من ضمن التعبير عن هذا الوباء المجتمعي ينقد النظام الاستغلالي السائد في العالم.

وهناك في روايات السباعي شخصيات تتسلق عن طريق الدعارة أو الرشوة من أدنى مرتبات المجتمع إلى درجاته العليا. وهذا من أهمّ وجوه النقد التي يوجهها يوسف السباعي من خلال أعماله الروائية إلى مجتمعه أو إلى جمهوره المخاطب. وهناك مفارقة مهمة نلاحظها في رواية "لست وحدك" حيث يتم انتشار العيوب وكشف الجرائم لرؤساء المؤسسة وقت الانتخابات، بينما كانوا يتلقون احتراما عظيما واهتماما بالغا في أيام رئاستهم. والأغرب من ذلك، قد لا تكون تلك التهم والاتهامات والعيوب حقيقية بل أمور مزيفة للنجاح في الانتخاب للأحزاب المعارضة. فالانتخابات تأتي بعيوب الرؤساء وتخلق الحرب وتكشف عن الجرائم للمرشحين الذين تمتعوا باحترام كامل من قبل العمال ولموظفين تحت رئاستهم. ويتم انقلاب رئاسة المؤسسة رأسا على عقب حيث يتولى المجرمون رئاستها وهذا ما يقصه الروائي في الجملة التالية "وهكذا انقلبت المجلة إلى

مجموعة من المجرمين يكشف بعضهم جرائم البعض الآخر"[١٣٤] والأكاذيب ضد الرؤساء تفترى بعدد كبير في أيام الانتخابات وهنا يسأل عبد الراضي للأستاذ سليم عن الأستاذ نوار "هل هو يسهر مع الفنانات؟ فيجيب: يسهر أو لا يسهر ... سأجعله أنا يسهر، ويعربد ويحشش، ويرتشي هذا عملي أنا، دع الأمر لي"[١٣٥] هكذا يدبر الأستاذ سليم الحملة ضد الأستاذ نوار. وليس من الغريب أن تزدحم أيام الانتخابات ومناسباتها بالأكاذيب والفواحش والرشوة والخدعة والخيانة فالكاتب في هذه الرواية ما يجري على أرض الواقع، بغض النظر عن الزمان والمكان. وهذه حقا قضية عالمية.

ويقدم الكاتب يوسف السباعي نقدا لاذعا ضد وسائل الإعلام والاستغلال فيه. هناك في المؤسسات الإعلامية جملة من الأشخاص هم يتحكمون عليها ويديرها في تقدمها وتأخرها وكل الاختيارات والمقابلات وأعمال التوظيف والتجنيد في أيديهم. وكثيرا ما تهمهم العلاقة والصلة بدلا من الجودة والموهبة والكفاءة لدى المرشحين بحيث يتخذون قرار الإسقاط في الامتحان أو الاختبار لبعض لا يحبونه وقرار الإنجاح فيهما لبعض آخر يحبونه. وهناك إمكانيات الفساد والرشوة للترقية في المناسب وكأنه أصبحت كل هذه من المسلمات التي لا يجابهها ولا يعارضها إلا قليل القلائل. وهذا ما يتضح في عبارات السباعي في حوار شهيرة مع عبد اللطيف وهو يقول "كان علي أن أتجه مباشرة إلى الذين أسقطوك في الامتحان. إذ يبدو أنهم أصحاب السيطرة الحقيقية"[١٣٦]

قضية النفاق والأنانية

إن من أهم القضايا الاجتماعية التي عالجها الكاتب في

---

١٣٤ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٦٤

١٣٥ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٥٠

١٣٦ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٧١.

رواياته النفاق – كذب المجتمع وفساده – كما صارح به الأديب في إحدى مقابلاته الشخصية وإن الفكرة الرئيسية في رواية "أرض النفاق" جلية في عنوانها. وحبكتها مبنية على فكرة النفاق. ويتمّ من ضمنها معالجة الاستغلالات الاجتماعية المختلفة وقد أحسن الكاتب في اختيار هذه الفكرة محورا رئيسيا في رواية من رواياته المهمّة كما أجاد وأتقن في تقديمها داخل المساحة المحدودة للرواية. أما فكرة النفاق فهي مبعثرة في كتابات يوسف السباعي بشكل عام كما هي واردة في الأعمال الأدبية للأدباء الآخرين من مصر وخارجها. وبهذا الصدد نسمع بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن تقول معجبة برواية "أرض النفاق" ومحتوياتها "فقد فرض الكتاب نفسه علي وانتزع استجابتي على الرغم مني، فاندمجت شيئا فشيئا في عالمه، ورحت أتابع الكتاب وهو يكشف أثواب الرياء واحدا في إثر آخر، عن أبطال الملعب الكبير في أرض النفاق".[١٣٧]

ونقتبس هنا تعليقات يوسف الشاروني حين قال "وفي رواية (أرض النفاق) يتضح أن مشاعر الحزن – حتى بالنسبة لأقرب الأقربين للمتوفين – قد تكون مجرد نفاق والحقيقة أنه بالنسبة لهم أراح واستراح".[١٣٨] وهذا الاطلاع للروائي يوسف السباعي قراءة صحيحة واقعية لأن المجتمع بغض النظر عن الأزمنة، يتبنى هذه الفكرة النفاقية فهم في الداخل غيرهم في الخارج. إن هذا الفرح والمرح واضح كالشمس وقت رحيل صاحب مرض مزمن أصبح طريح الفراش لمدة طويلة. ومن خلال رواية "أرض النفاق"، يمعن السباعي النظر في أخلاق الناس فيراها سلعا تباع، ومن الرذيلة التي تكالب عليها المجتمع فن شدة شح الأخلاق وقتئذ. وبعدما دققها السباعي وجد إبداعه الروائي وسيلة وحيدة للكشف عن هذه

١٣٧ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة، ص٣٤١

١٣٨ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة، ص٧٩

الأخلاق الرديئة، ولإقناع المجتمع بأهمية إزاحتها.

ومن الطبيعي أن يتمرّد الأديب الذي يعيش في مجتمع يلتزم بمجموعة كبيرة من الاستغلال الاجتماعي – يتمرّد ويثور على هذا المظهر السلبي لمجتمعه البشري. والمجتمع يتسم بألوان مختلفة من السلبيات. والغريب في هذا، أن معظمها يكاد أن يصبح هوية وتراثا متبعا أو حضارة راسخة في شرايين الإنسان. فليس من السهل أن يثور على ذلك أحد وهو يحتاج حقا إلى القوة والشجاعة. ويوسف السباعي يمتلكها تماما. وقد واصل جهوده المضنية لتحقيق مدينة فاضلة خالية من السلبيات والاستغلال الاجتماعي. وروايته "أرض النفاق" خير شاهد على ذلك. ويقول بجدية ثورية "ما حاجتي إلى تقدير الأحياء ... وأنا بين الأموات؟ ... ما حاجتي إلى أن يذكروني في الدنيا وأنا في الآخرة!! ويمجدوني في الأرض وأنا في السماء" هذه أسئلة جادة تدلّ على معان جليلة. ومن عادة المجتمع البشري أن يهطل الثناء والإطراء على من توفي من أقربائه أو أصدقائه.

أما الميت فقد ذهب وغاب عنه فما الفائدة في بذل الجهود لمدح هذا الإنسان الذي لا يوجد فيه بصيص الحياة. وكثيرا ما نرى الناس يمدحون الموتى، على الرغم من أنهم لم يُمدَحوا في زمان حياتهم بشيء. يعني أن الأعمال من الأشخاص ليست إلا لتحقيق أغراضهم الشخصية ولتلبية احتياجاتهم الذاتية. والمصالح الذاتية تسبب مثل هذه المعاملات التي لا توجد فيها ذرة من الإخلاص والإيمان. والمنشود من قبل الكاتب يوسف السباعي أن يمدح صالح الأعمال لأي واحد وهو على قيد الحياة ليس بعد موته فذلك يتحلى بالإخلاص والإتقان. وفي هذه المحاولات ليوسف السباعي نقرأ إخلاصه في تبديل حياة الإنسان الجاري. وبأسلوب السخرية والفكاهة يقول الكاتب "أني أود أن أكرم نفسي وهي على قيد الحياة، ... فأشد ما أخشى ألا يكرمني الناس ... إلا بعد الوفاة ... ونحن شعب

يحب الموتى ... ولا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا في باطن الأرض".

وفي رواية يوسف السباعي "العمر لحظه" – هي آخر أعماله الروائية – يشجعنا الكاتب على الحرب ضد المستعمرين ويصف عالم الحرب بأنه عالم خال من الزيف والنفاق والكذب والتجمل وغيرها من الوسائل للاستغلال الاجتماعي. ولا يوجد في هذا العالم الفاضل أي لون من ألوان النفاق كما يلاحظ الروائي الكبير السباعي. فالمناضل في ميدان المعركة ليس بحاجة إلى أية تتمتع بها كما هو ليس بحاجة للمظهر والمنظرة الكاذبة لأن رصاصة الأعداء لا تخطئ في اختراق قلبه من أجل مظهره الخارجي أبدا بل تفترس فريستها مهما كان وضعه. أما المطلوب من قبل المناضلين فهو الإخلاص الذي لا يمتزج النفاق والكذب والإقدام الخالص على القتال. تقول نعمت بطلة هذه الرواية خلال حوارها مع الجندي المصري عبد العزيز ثناء على الجند المصري " الذين يواجهون الموت في كل لحظة ... بهذا الهدوء والرضا ... لا يمكن أن يكونوا جبناء ... تلك هي الشجاعة الحقيقية".[١٣٩]

ونجد في رواية "ابتسامة على شفتيه" بيانا فنيا لبعض الوسائل والحيل التي نستخدمها في التجارة ولكنها في الواقع زاخرة بأعمال النفاق وملامحه ومن خلالها تلوح لنا جذور النفاق الثابتة في معاملاتنا بألوانها المختلفة. وهذا ما يجلو على لسان الشيخ عبد السلام وهو في حديثه عن تقنيات التجارة "- ليس بيننا وبين الزبائن حب ولا كراهية، نحن تجاريامي والمفروض أن نلقى الجميع ببشاشة وأن يكون لدينا الصبر على التعامل معهم، وأن نعرض كل ما لدينا برقة ولباقة بحيث لا نتركهم يغادرون المحل وأيديهم فارغة. هذه هي التجارة تحتاج إلى كياسة ولباقة وابتسامة على الشفتين، أما الوجه المتجهم، والحدة اللذان يلقاهم بهما عمار فستؤدي بنا

١٣٩ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ٣١.

إلى الإفلاس"[١٤٠]

وقضية النفاق من أهم مضامين الروايات ليوسف السباعي وهذه الفكرة تتحكم على معظم أعماله الروائية ففي رواية "لست وحدك" يقدّم الروائي معاملة الشخصية المحورية عبد الراضي الذي يمثل الإنسان العادي في الرواية، مع الأستاذ مرزوق المدير قائلا "وكان عبد الراضي يتجنبه ما أمكن فهو لا يتوقع منه خيرا. وكان يحس أن عليه أن يخصه بمزيد من الاحترام والنفاق، خشية أذاه واصطيادا لمرضاته"[١٤١]. وهذه العبارة تبين أن النفاق من أهم الطرق للإنسان العادي أن يدافع عن نفسه ويتخلص من عذاب الموظفين الكبار والرؤساء وإيذائهم. وقد أصبح النفاق مما لا بد منه للإنسان في الحياة للمضي قدما.

ونرى في شخصية الأستاذ عبد اللطيف شخصية نموذجية للإنسان الفاضل حين تخلو حياته من محبة حسن السمعة فهو لم يحاول أن يتمتع بحسن السمعة لأنه كان يكره النفاق ولأن كان يعتقد أن سوء السمعة يحفظه من إشاعات الناس حوله.

إن أنانية الإنسان من أهم المضامين التي تنعكس في روايات السباعي حينا وحينا. والإنسان لا يخلو أبدا من مصالح ذاتية وتلك المصالح الذاتية هي التي تقوده ويكون تأثيرها واضحا وجليا في جميع مجالاته. وهنا مثلا نلمح تجلياتها في مجال النشر حين يلاحظ الروائي في رواية "لست وحدك" "النشر ليس مشكلة. إن نصف ما ينشر – إن لم يكن ثلاثة أرباعه – ليس له قيمة حقيقية. ولا أظن الناس يمكن أن تفقد شيئا إذا لم ينشر" فتتساءل شهيرة "ولماذا إذن ينشر" فيجيب على لسان عبد اللطيف "جزء منه لأن أصحابه

---

١٤٠ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٥١

١٤١ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٩٢

محترفون للكتابة، ولا بد أن يواصلوا الكتابة حتى يعيشوا"[١٤٢] فالكل يعمل على شاكلته وليس في الواقع لإفادة المجتمع ثقافة وتأديبا بل يهمه عمله وحياته. والأنانية تتحكم على جميع أغراض الإنسان وأعماله. وهذه العبارات ليست تمردا على أنانية الإنسان بل هي الكشف عن حجاب المنتجات الأدبية السخيفة ونقدها أيضا.

ونرى في شخصية شهيرة نفسها سمات وأخلاق امرأة أنانية حين تهتم بنفسها أكثر من غيرها – تهمها مصالحها الذاتية. تدل على ذلك، استعداداتها للسفر إلى الفضاء والأفكار التي تخيل عليها في ذلك الحين. وإلى جانب ذلك، تدرك شهيرة عالم الفضاء خاليا من المشاكل التي كانت تواجهها في الأرض والعالم الفضائي مكان الحرية بدون توترات الحياة في الأرض. وهذه الأنانية هي تمنع الإنسان من الإقرار أفضلية الآخر عليه، وبالعكس يفضل تجاهله وإنكاره ويعبر السباعي عن هذا الواقع على لسان عبد المهيمن في رواية "لست وحدك" "طبيعة الإنسان ألا يذكر فضل صاحب الفضل عليه، على النقيض إنه يصاب منه بعقدة الجميل، ويتعمد تجاهله وإنكاره حتى لا يذكر نفسه بأوقات بؤسه"[١٤٣]

ويتم في الرواية المذكورة تشخيص مشاعر الناس وتحليلها بدقة بل من بين رموز جميلة. وهذا التشخيص يتضمن مختلف الجوانب للدراسة مثل النفاق والأنانية والفساد والرشوة الراسخة في قلوب الإنسان وأجساده. فالأديب من خلال نقده الاجتماعي يحاول أن يصلح مثالب الناس ويحل مشاكلهم. وهذا ما نسمع على لسان عبد اللطيف "يجب علينا أن نصلح الخلل في تركيب الذهن البشري. إنه يعرف كيف يعمل من أجل ذاته، ولكنه يجهل كيف يتعامل مع الغير. إنه ممتاز في العمل الفردي، ولكنه قد عجز عن

---

١٤٢ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٣٦١

١٤٣ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٤٠٤

أن يكون وحدة في كل. لقد فشل نهائيا في تحقيق التآلف الذي يمكن أن يضع جهده وتقدمه ومنجزاته في عمل موحد من أجل خير البشر"[١٤٤] وهذه التعابير تحليل نقدي لأنانية الإنسان التي تتحكم على حركاته وأعماله في كل لحظات الحياة وهي تأدي المجتمع إلى الخسارة والهلاك.

تقسيم العمل وتضافر الجهود

إن نافلة القول أن أعمال السباعي الأدبية مليئة بفلسفات الحياة والمهنة. ومن خلالها، لا ينسى أن يذكِّر الشعب بما يجب عليهم من القيام بالمسؤوليات الاجتماعية والالتزامات الوطنية والقويمة. وعلى ما يرى يوسف السباعي، يجب أن تقسم الأعمال فيما بين أبناء الوطن. وليس من المفروض أن يعمل كل واحد عملا واحدا. وبدلا من ذلك، يعمل الكل ألوانا مختلفة من العمل – كل يعمل عمله على شاكلته مع الإخلاص والإتقان، فتتضافر الجهود وتتحقق الأحلام.

ويعبّر الأديب السباعي عن هذه الفكرة بقوله "فليس المطلوب من كل منا أن يمسك بمدفع ويضرب ... لو فعلنا هذا ... لما وجد الذين يحاربون على خط النار لقمتهم، بعض منا يجب أن يصنع رغيف العيش، والبعض لا بد أن يصلح صنابير المياه، كل منهم يرقى في أهميته إلى مستوى حامل المدفع، المهم أن يعمل عمله جيدا"[١٤٥] وهذه العبارات تحمل في طياتها معانيا مهمة للغاية. ومن أهمّها أن المقاومة أو المحاربة ضد العدو ليس بقتال وصراع مع المدفع فحسب بل تتضمن الخدمات بمختلف أنواعها التي نتقدّم بها إلى المناضلين والفدائيين مثل تجهيز رغيف العيش وتوزيع الماء لهم في غمرة الجهاد

١٤٤ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٤٣٤

١٤٥ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ٢١٤

والقتال. ومنها أن درجة الخدمة للفدائيين لا تنقص منها للفدائيين. ومنها أن أهم الأشياء المنشودة في مثل هذه المناسبات، هو الوحدة بين الأبناء وتضافر الجهود.

وعلاوة على ذلك، يحتاج الناس إلى تعاونهم على البرّ والخير وعدم التعاون على الشر والجور. ويرى يوسف السباعي أن مجرد التدين بالصلاة لا يفيد أحدا بل يجب أن يتابعها بالأعمال الخيرية وأن يواسي الفقير والمسكين والملهوف وأن يسلي المصاب والمفجوع، فالدنيا مزدحمة بهم وهو يصارح بهذه الأفكار بعد أن تحدّث عن الصلاة فيقول في رواية "نائب عزرائيل – البحث عن جسد" "فخير لك أن تغادر مضجعك لتغيث الملهوف ... وتعطي المحتاج ... وتواسي الحزين والمفجوع ... وتفك ضيق المكروب والملتاع ... الدنيا تعج بهؤلاء ... فاخرج إليهم، وافعل ما استطعت لهم".

ومن طبيعة الإنسان أن يصرخ ويضرب صدره بيده ويقول "يا ساتريا رب ... لقد قابلني بالأمس وكان صحيحا سليما"[١٤٦] عندما يبلغه نعي قريب من أقربائه أو صديق من أصدقائه ولكنه نادرا ما يفكر أن كل نفس ذائقة الموت. ومن التقديم في رواية نائب عزرائيل ندرك أن الكاتب ينقد أخلاق الإنسان المتكبرة وطابعه الغافل نقدا لاذعا. وهو يتحدث عن غاية الرجل في الحياة قائلا "كانت غاية الرجل في الحياة شيئين: النساء ... والمال ..."."[١٤٧] ومن خلال هذه الكلمات يشير الكاتب إلى الاستغلال الاجتماعي الذي يؤدى المجتمع دائما إلى التورط في الفخ والتفكك العائلي.

ومن الموضوعات الأخرى التي عالجها يوسف السباعي في سطوره الأدبية والروائية بالخصوص الملك. فقد هاجم جِدِّيًّا

١٤٦ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٨١

١٤٧ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٢٠١

الملك في رواية "البحث عن الجسد". وملخّص فكرته بهذا الصدد، أن من الممكن أن يحضر الملك للشعب لا بالعكس فلا يمكن أن يحضر الشعب للملك. وذلك عندما ضاق الملك بزعماء الشعب ثم بالشعب وطلب استبدال غيرهم بهم.

الفصل الرابع:
القضايا السياسية في روايات السباعي

إن روايات السباعي تتناول عددا كبيرا من القضايا السياسية. وهذه القضايا السياسية مبعثرة في رواياته المختلفة. ومعظم رواياته تمس قضايا سياسية وعلى رأسها قضية فلسطين. وقد استطاع للكاتب يوسف السباعي أن يشخص الأمور السياسية ويحللها بدقة سليمة لما كمن في شخصيته من مهارة الممارسة السياسية وحذاقتها. وتحليله للشؤون السياسية دقيق وصحيح. وعلى ما يرى السباعي، ان الحرب بدون تجهيز كامل لا تفيد إلا الهزيمة والخسارة ويرفع الكاتب هذه الفكرة بوضاحة تامة إلى قرائه على لسان محمود شخصية من شخصيات رواية "العمر لحظة" فيقول "وحاولنا أن نبحث عن أسباب الهزيمة في محيطها الخاص كان علينا أن نبدأ بالسؤال ... هل كنا معدين عسكريا للمعركة التي خضناها" وهذا في الواقع قراءة صحيحة للواقع السياسي واستراتيجية الحرب والمعركة. ونجد الأديب يوسف السباعي يمر بسطور الروايات مع أفكاره وآرائه السياسية. وقد أكدت الكاتبة لوتس عبد الكريم على أن الأديب يوسف السباعي "كتب عن فلسطين مثلما لم يكتب أي كاتب أو أديب عربي، وفي كل المقالات التي كتبها بعد المبادرة التاريخية بزيارة القدس عام ١٩٧٧ كان يركز في كل مقالاته على حقوق الشعب الفلسطيني".

إن رواية "رد قلبي" تعالج صراع الشعب في مواجهة الحكم المنحرف، بينما ترسم أيضا عن طريق بطلها – وهو ضابط من أبناء الشعب – حبه لفتاة من الطبقة العليا عندما استرد الشعب حقوقه ففي

هذا العنوان دلالة مزدوجة – دلالة عاطفية ودلالة قومية وطنية. وهذه الرواية صراع للعدل والحقوق ونضال ضد الظلم السياسي.

ومما يوافق عليه الجميع أن رواية "لست وحدك" ليوسف السباعي تتضمن أولا وأخيرا نقد المذاهب السياسية التي تسلط على الحضارة المصرية المعاصرة من ناحية، وخلق مدينة فاضلة من ناحية أخرى لا يتخيل مؤلفها نظاما فاضلا يسودها فحسب بل وكائنات من نوع مغاير للإنسان – ألا هي كائنات نباتية. وهي مدينة يحمل فيها النسيم حبوب اللقاح من الذكر إلى الأنثى فتتبناها بلا حياء ولا عيب لتخصب وتنجب ولا تشهد هذه المدينة المشاكل التي يعانيها العالم الإنساني اليوم. ويقدم يوسف السباعي نقده لنظام العالم الذي أصبح التحكم فيه في قبضة القوات الكبيرة التي تجهز كل التجهيز لسيطرتها على الدول الضعيفة، تقديما رمزيا عبر الحور الذي يجري بين أعضاء بعثة الرحلة إلى الفضاء. ومنه ما يلي:

وصمت عبد القادر ثم أردف في نفسه:

إن لدينا كل أدوات الحضارة ... إذا قبلوها. ولدينا كل أجهزة التأديب ... إذا قاوموها."[١٤٨]

وفي رواية "لست وحدك" مثلا يحاول الكاتب أن يخلق عالما فاضلا لا تتواجد فيه الصراعات السياسية والاجتماعية على أساس الغيرة والأحقاد. ورؤساءنا وساستنا في الأرض لا يسمح لهم الدخول إلى ذلك العالم النموذجي. وبالرغم من أن هذه الفكرة تذكرنا يوتوبيا، إلا أنها تعرض صورة صحيحة من الصور للسياسيين والرؤساء في يومنا هذا. والنقد السياسي يستمر حيث يقول القاص كأنه يخاطب الإنسان مباشرة "وكنت تحلم في أعماق نفسك بالوصول إلى الوزارة، فرئاستها. وتتطمع في أكثر من ذلك لم يكن هناك حد لطموحك."[١٤٩]

١٤٨ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٢١٢

١٤٩ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٦١٢

المبحث الأول:
قضية فلسطين والمقاومة

إن مما لا ينكره إلا جاحد أن الأديب الكبير يوسف السباعي قد دافع عن القضايا الوطنية المتنوّعة وعلى رأسها القضية الفلسطينية حتى يلاحظ أن معظم أدبه أدب قضية أكثر منه أدب إبداع. وأعلن عدد من النقاد لأعماله، أن يوسف السباعي "هو الوطني المشارك في ثورة الضباط الأحرار وقبل ذلك في حرب فلسطين، كان غالبا ما يقمع موهبته الإبداعية على مذبح رغبته في التعبير – في أدبه – عن القضايا الوطنية الساخنة."[١٥٠]

ويوظّف السباعي رموزا ومعالم متنوعة بين آونة وأخرى لتناول قضية فلسطين والقضايا الأخرى المحورية فشجرة الليمون مثلا من أهم الرموز التي تسلط على الروايات الفلسطينية كأن لها دورا كبيرا في قضية فلسطين والكاتب يوسف السباعي يكرر كلمة "شجرة الليمون" مرات، كما يأتي بها في موقف من مواقف رواية "ابتسامة على شفتيه" "انتهى الصديقان من تناول الطعام ... وجلسا في استرخاء تحت شجرة الليمون"[١٥١] ومن خلالها يثير انفعالات وطنية وقومية في قلوب الجمهور والقراء. ويمكن الآن الوقوف أمام مختلف أعماله الروائية حسب تناوله قضية فلسطين.

---

١٥٠ إبراهيم العريس، "السقا مات" ليوسف السباعي: الحوار المدهش بين الحياة والموت، الحياة، الأربعاء، ١ نوفمبر ٢٠١٧

١٥١ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٣٧

رواية "طريق العودة"

إن قضية فلسطين من أهم القصص لروايات يوسف السباعي. أما رواية "طريق العودة" التي نشرت في عام ١٩٥٦ فهي تعالج قضية فلسطين وتصوّرها ببساطة واقعية وصورة نضالية وإن العودة المنشودة كما نرى في العنوان "طريق العودة" توحي بعودة العرب إلى هذه الأرض المقدسة حيث تتنبأ بها. والسطور الأولى من هذه الرواية نفسها تسلط الضوء على هذه الفكرة فنقرأها "في خريف عام ١٩٤٨م، وقبيل المعارك الحاسمة التي انتهت بها عمليات القتال الأولى في فلسطين". وهذه الرواية المليئة بالأعمال النضالية والحروب الدامية تذكرّنا الرواية الأمريكية "وداعا للسلاح" لارنست همنغواي التي ترسم الحملة الإيطالية في الحرب العالمية الأولى.

رواية "ابتسامة على شفتيه"

يتناول الكاتب يوسف السباعي في رواية "ابتسامة على شفتيه" قضية فسطين ولكن من ناحية أخرى وبأسلوب جميل آخر بحيث يذكرنا من خلال حبكتها معركة الكرامة التي دارت بين القوات الفدائية والصهيونية في الأردن عام ١٩٦٨. بالرغم من أنه مات بطل الرواية، إلا أن ابتسامته على شفتيه ونضاله في سبيل الوطن تثير التفاؤل والثقة في ضمائر الجمهور. والمجموع يحيا من خلال موت أفراده.

ويلاحظ أن هذه الرواية حافلة بالأفكار التي تعكس قضية فلسطين فملامح هذه القضية – قضية الأمة ومظاهرها تظهر في حركات الحبكة الروائية من الحوار والنقاش والقص فينة بعد فينة كما فوجئنا بالتهابها في الحوار الذي كان يجري بين شخوص الرواية والذي يمركز على ابتسامة عمار وعدمها وذلك الحوار هو التالي:

وصاح خالد معترضا: - مي لا تضحك يا أبي، لقد رسمت اليوم في

المدرسة صورة لأخي عماروهو يرتدي ثياب جندي وممسك بندقية.

وقالت مي معقبة: - لم تكن صورة عمار. لقد كنت أحاول أن أرسم صورة لمقاتل فلسطيني كنموذج يرسمه الأولاد في الفصل. وفجأة سمعت خالدا يهتف من وسطهم بأعلى صوته ويقول لي <هذا أخي عماريا أبلة مي>. ولم أكن أدرك أن ملامح المقاتل تشبه عمارا حتى صاح بي خالد. وعندما عدت أتأملها وجدت بها بعض الشبه فعلا من عمار"[١٥٢] وهذا ما نسمع في الحواربين مي وعمارعن صباح يوم في طفولته – استيقظ على انفجارمروع "اليهود يهاجمون البلدة"

أما عمارفهو لا يبتسم كأن المأساة الفلسطينية تهمه أكثرمما يمكنه الابتسام. وهو لا يستعد أن يقف أمام مي فتعلن أنها ترسمه من ذاكرتها. وبينما تتمحور الرواية حول قضية فلسطين، تتطور معها قضية الحب من شخصية الرواية "مي" تجاه "عمار". وفي معظم الوقت من تطور الرواية يبدو هذا الحب سرا أومن جانب واحد – ذلك من مي. وعندما نتصفح في صفحات الرواية نجد الكاتب يصور بهذه الذكرى التجارب المؤلمة والمؤسفة للغاية لأهل فلسطين من قبل الجنود الإسرائيليين. ها هو ذا تتعرض خالة عمار الحامل لهمجية وحشية إسرائيلية:

"وصرخت أم مي واندفعت إلى الرجل غاضبة تحاول أن تمسك بخناقه. وببساطة تلقاها الرجل بطرف السونكى مصوبا إلى بطنها المنتفخ وبكل ما يملك من قوة دفعه إلى داخل بطنها وهو يقول في استخفاف:

لا داعي للمزيد من نسلكم. لست أدري لماذا تتكاثرون بمثل هذه السرعة.

وبقر السونكى بطن المرأة الحامل وسقطت المرأة تتلوى وقد خرج

١٥٢ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٧١

كل ما في باطنها"[١٥٣]

وقد تناول الناقد الكبير علاء وحيد في مقالته "المأساة الفلسطينية بين "طريق العودة" "وابتسامة على شفتيه" منهج يوسف السباعي في معالجة قضية فلسطين، بشكل ملحوظ. ويتابع علاء وحيد من خلال دراسة هاتين الروايتين تطور روايات يوسف السباعي. ويلاحظ الناقد أن يوسف السباعي تطور من رواية إلى أخرى. كانت المعركة مع اليهود بشمول اللفظة في الرواية الأولى، وهي معركة استعادة حق أو عاطفة أو ثأر، بينما أصبحت المعركة في الرواية الأخيرة معركة الحضارة العربية والمصير العربي كله. وهذه الرؤية السامية تجمع شخوصها سواء في الحياة المدنية أو حياة المقاومة. أما الحل الذي يقدمه يوسف السباعي لقضية فلسطين في الرواية الأخيرة فهو المساواة بين الجانبين وهذه الرواية تقوم بعملية توازن ضرورية لحياة الكفاح الخشنة التي يعيشها المجتمع الفدائي. وأهدى الأديب السباعي هذه الرواية إلى الشهيد الذي ضحى بروحه من أجل بعث الروح الفلسطينية والذي جعل من جسده الطاهر معبرا للعودة.

ولا ينسى الكاتب أن ينتقد بعضا من الموافق الناس على شاكلة السخرية الممتزجة بالغضب والغيظ ومن الطبيعي أن يطمئن الناس إلى تسمية الأماكن التي شهدت مذبحة بأسماء مختلفة كأنهم بمجرد تسميتها أدّوا مسئوليتهم تجاه الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم لصالح الوطن. وهنا تلتهب عاطفة الكاتب وغضبته فيما يعبر في السطور التالية:

"ولكنه عاد يسمع صوت القهقهة ... قهقهة الجمع ... الذين يشاهدون المسرحية الهازلة" ويردف الكاتب قائلا في صفحة تالية

---

١٥٣ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٦٢

خلال حديثه عن عمار:

"سماها الناس بعد ذلك: مذبحة دير ياسين قريتهم ا لهادئة الطيبة، ووصفوا فظائعها. ولكن أحدا لم يرها كما رآها هو. لم ير طرف السونكى يغرس في بطن خالته كما تغرس السكين في البطيخ ويخرج منها الجنين كقلب البطيخة"[١٥٤]

وتوجد في الرواية نداءات إلى ميدان المقاومة والمقاومة هي الوسيلة الوحيدة للخلاص من فخ الظلم والاضطهاد، يدرك المواطن الفلسطيني أن ليس هناك نهاية لهذا الوضع المأساوي إلا بالمقاومة. وقد وجدنا عديدا من الكتاب العرب، كانوا يدعون بأقلامهم المناضلين الفلسطينيين إلى المعركة ضد الجيش الصهيوني كما لاحظنا في روايات غسان كنفاني مثل "رجال في الشمس" و"عائد إلى حيفا" و"ما تبقى لكم" و"أم سعد" وغيرها من أعماله الروائية الرائعة. أما في رواية "ابتسامة على شفتيه" فنجد جملا وكلمات تتضمن نفس النداءات إلى ميدان المقاومة ضد العدو اللدود الإسرائيلي. نسمع يحيى يتحدث لصديقه عمار وتلك الكلمات تلقي الضوء على أهمية المقاومة والمناضلة في سبيل الوطن. وتدعوه إلى النضال المباشر مع الأعداء. "- إن علينا أن نصنع المستقبل بأيدينا ... نحن شعب ضائع يا عمار ... شعب مسروق ... منهوب ... مظلوم ... شعب من اللاجئين" "نتحوّل إلى شعب من المقاتلين ... هذه هي مهمتنا الأولى ... نمسك بالسلاح ... ونقاتل"[١٥٥]

ومن الطبيعي أن نجد الأديب يعالج قضية اللاجئين في رواياته التي تتناول قضية فلسطين قضية فرعية هامة، لأنها نتيجة مهمة للأولى. قضية فلسطين المأساوية تخلف في كل لحظة عددا كبيرا من اللاجئين بما فيهم الرجال والنساء والأطفال. إن قضية فلسطين

١٥٤ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٩٢

١٥٥ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٨٣

تتجلى شدتها في ذاكرة عمار لأمه حيث تتحدث معه عن الزواج "وشرد ذهن عمار برهة. زوجة وأولاد. ومزيد من المشردين واللاجئين والضائعين في الأرض. لماذا؟"[١٥٦] فالزواج بالنسبة إلى عمار في هذا الوضع المأساوي لوطنه مجرّد خلق اللاجئين والمشردين والضائعين ليس غير. استطرد عمار يتمتم كأنه يحدث نفسه "نحن شعب ضائع، ممزق، مشرد، شعب بلا وطن ولا أرض. إذا كنا لا نجد مكانا على الأرض، فهل سنجد لأولادنا مكانا؟ ماذا يمكن أن نمنحهم؟ الضياع؟"[١٥٧]

رواية "نحن لا نزرع الشوك"

إن هذه الرواية الطويلة لم يتمكن لها الانفلات من تناول قضية فلسطين في صفاحاتها، لأن ذاكرة الكاتب كثيفة بأفكارها فحبكة الرواية تذكّرنا حينا وحينا قضية الأم مثلما نقرأها في العبارات التالية:

وفي اليوم التالي جلس جودة يقلب الأهرام قبل أن يبدأ ورود الزبائن للعبادة ...

وقلب الصفحات الأولى وتمتم في ضيق:

أوقف القتال ... بعد أن وصل اليهود إلى العريش ... لو تركنا أول مرّة لوصلنا إلى تل أبيب ...[١٥٨]

رواية "العمر لحظة"

إن هذه الرواية – كما يعلن به العنوان – تتشدق بالحديث عن العمليات الفدائية بين الفينة والفينة. وهي تثير في قلوب الفدائيين

١٥٦ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٨٧

١٥٧ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ١٨

١٥٨ يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك، دار مصر للطباعة، ج ٢، ص ٥٢٧

الشجاعة والجراءة والإخلاص والإتقان في ميادينهم الحربية. إن العمر يتكوّن من اللحظة، يبدأ بلحظة ويترعرع بلحظة ثم ينتهي بلحظة فكل لحظة من اللحظات ذات قيمة عالية ومهمة جدا. ها هي الفكرة المحورية لهذه الرواية الجميلة ورواية "العمر لحظة" آخر ما كتب من مؤلفات السباعي الروائية. وهي تثري كثيرا شجاعة الفدائيين فالفدائيون لا يجدون الفرص حتى للتفكر والتدبر في شأن الخوف من الموت بل يواجهون الموت مباشرة. والفدائيون في جبهة القتال – "الذين يموتون منا ... لا أظنهم احتاجوا إلى شجاعة وهو يواجهون الموت ... إن الموت هنا لا يمنحنا حتى فرصة الخوف منه، وسط الضجيج والدوي والغبار والدخان تفلت شظية أو رصاصة لتنفذ في أحدنا. فيسقط ثم ينتهي"[١٥٩]

وإذا أمعننا النظر من زاوية أخرى إلى العبارات المذكورة آنفا نكتشف أن الروئي لا يشجع الأعمال الفدائية إلا في المناسبات الضرورية ويتحدث بإسهاب عن تغلب الموت وهو يتابع أحاسيس الخوف والشجاعة ومشاعرها لدى المقاتلين من أقوالهم إلى أفعالهم، فالفدائي مثل المقدم محمود عبد الله هو يحس الخوف بل ليس على حياته بل الخوف على فشل عمليته الفدائية. يحاول المقدم محود وجنوده كل المحاولة على تأدية مهمته الفدائية. يأتي الخوف إليهم في صورة الموت، فإذا مات أحد منهم فيؤثر في عمليتهم فللحياة قيمة كبيرة في هذه اللحظات الحاسمة.

ومع ذلك، لا يهمل هنا العامل الروحي، فنرى في هذه اللحظات، المقدم محمود عبد الله يتلو الفاتحة وهذه لحظات تتصل فيها شعرة بين الحياة والموت وبين الانتصار والهزيمة. وعندما يستشهد عبد العزيز أحد شخصيات الرواية وعدد من زملائه خلال عمليتهم

---

١٥٩ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ٨٧١

الفدائية نفهم أن للانتصار ثمنا يجب أن يدفع. وإلى جانب ذلك، لم يكن عبد العزيز يخاف الموت، لكنه كان يريد ألا يموت حتى يتزوج سعدية التي تحمل جنينها منه.

ولا عجب في أن نرى الحوار والنقاش بين نعمت بطلة الرواية ومعشوقها المقدم محمود عن أسباب نكسة ١٩٦٧ إلى أن سألت نعمت "وهل يمكن أن يحدث ما حدث ثانية؟" والجواب الذي يقدمه يوسف السباعي على لسان محمود بهذا الصدد غزير الأفكار في قضية فلسطين. وهو المجيب "لا ... لا أظن ... ليس هناك بالطبع من يستطيع أن يضمن نتيجة عمله مائة في المائة وكل عمل معرض للنجاح أو الفشل ولكن الفشل شيء والضياع شيء، والفشل يجب أن يكون داخلا في الحسبان ... محسوب ضمن النتائج المتوقعة ومردود عليه بحسابات الخطة الأشمل ... وإذا لم نفعل فخير لنا ألا نتحرّك"[١٦٠] وفي هذه الكلمات القيمة يعبر الكاتب عن فلسفة النجاح والفشل في ميدان المعركة فلا بدّ أن نستعد قلبا وقالبا أن نتلقى النجاح أو الفشل في العمليات الفدائية. ونجهز أنفسنا لئلا نعاني من الفشل بإعداد الخطة الشاملة. أما إذا كنا لا نحتمل نتيجة الفشل فالأفضل ألا نتحرّك ولا نتقدم للمواجهة مع العدو.

وعن طريق تناول الميادين الفدائية، يلفت الكاتب يوسف السباعي انتباهنا إلى العمليات الفدائية التي لا تزال تجري في الأماكن المختلفة من فلسطين ويعرض لنا مشاكل المناضلين هناك ومشاعرهم. ويعلن الكاتب عبر هذا البيان الصريح أنه يجب التكاتف والتعاون مع المقاتلين الكرام في فلسطين المحتلة. وطريق السباعي الفريد يتضح بشكل جميل في تنبئه بطول المعارك الشعبية الفلسطينية فقد قال "يجب أن نحذر الضربة القاضية، يجب أن نحول المعركة

---

١٦٠ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ٥٤٢

إلى معركة نفس طويل، ولكن ليس إلى معركة صمت ... يثبت فيها أقدامه بارتياح وبغير قلق ... شعبنا يحتمل كل ما هو ما حتمي، لكنه يسخر من كل ما لا مبرر له، شعبنا يحتمل معركة طويلة"[١٦١] وتتضمن فلسفة يوسف السباعي أفضلية العمل على القول في ميدان المعركة فهو القائل على لسان البطلة نعمة "لقد آن لنا أن نركز على ما يجب أن نفعل، فإن ما يفعل أهم مائة مرة مما يقال".

ونستنتج من اطلاعنا على روايات يوسف السباعي، أنه تناول في أعماله الأدبية لا سيما في رواياته الرئيسية قضية فلسطين أكثر من أي كاتب عربي آخر. وكان تركيزه في الأعمال التي عالجت هذه القضية، على حقوق الشعب الفلسطيني. وقد التزم بنفس الموقف في كل مقالاته التي كتبها بعد زيارته القدس في عام ١٩٧٧، ولم تتخل أية مقالة من مجموعة مقالاته في هذه الفترة، من الدفاع عن الحق الذين اغتالوه غدرا.

ويخوض السباعي إلى مناحي قضية فلسطين من زوايا مختلفة. ومن خلالها، يتناول رؤى الساسة المصريين مثل الرئيس السابق جمال عبد الناصر وتارة يمزج بين معالجة قضية فلسطين ومعالجة القضايا الأخرى من القضايا السياسية أو الاجتماعية، وتارة يمزج قضية فلسطين ومواقف القيادة السياسية المصرية. وفي رواية "العمر لحظة" نجد أفضل مثال لهذا الأمر حيث يشرح محمود سؤاله المهم الذي طرح إلى الجمهور فيقول "لقد كنا نعد لمعركة خلاص ... ولكن كما قال عبد الناصر ... لأحد الوفود الفلسطينية ... ليس لدي حل جاهز لاستعادة فلسطين ... ولكني أبني من أجل الإعداد لمعركة الخلاص ... ولكن المعركة التي خضناها ... فرضت في وقت لم نعد له وبأسلوب ... لم نرده"[١٦٢]

١٦١ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ٦٤٢

١٦٢ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ٣٤٢

المبحث الثاني:
يوسف السباعي ضد الاستغلالات السياسية

السباعي ضد الحيف والظلم

إن الروائي يوسف السباعي من أشهر كتاب العرب الذين أبرزوا في كتاباتهم الروائية أهمية العدل والحياد ورفعوا أصواتهم ضد الحيف والظلم. وهنا في رواية "ابتسامة على شفتيه"، نسمعه ينقد نقدا لاذعا ازدواجية العالم المتظاهر بصفته عادلا ونزيها في تنفيذ العدل وإثبات الحق. وهو القائل على ذاكرة عمار "والسؤال الذي حيّره أكثر من هذا هو: لماذا نسلم بما حدث كأنه أمر طبيعي؟

إنه يعرف أن عالمه المتحضر الذي يعيش فيه يعاقب السارق، ويعدم القاتل.

ولقد سُرق بيته، وقُتل أهله. ولكن أحدا لم يتحرك. لا سارق عوقب، ولا قاتل قُدِّم للقصاص، بل ظل السارق يحتفظ بسرقته، والقاتل يقهقه، والعالم – فيما يبدو – يصفق إعجابا به

أترى الجريمة لم تكن بالبشاعة التي رآها؟

أتراه كان واهما في كل ما رأى؟"[١٦٣]

وهذا الصوت الثوري ضد الجور والحيف والظلم لا ينتهي هنا، بل يتمادى الكاتب في ثورته وينتقد هذا العالم - المتحضر – كما يزعم، لمفارقته في المواقف، وتباينه في إجراءاته ففي فلسطين مثلا يقتل

---

١٦٣ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٣٣

الأبرياء ولا يُعاقب القاتلون، تنهب الأرض والناهب يعيش بسلام وأمان والعالم يشهد هذا كله بدون اتخاذ أية إجراءات تأديبية ضد المجرمين. وليس هناك العدل ولا الحياد بل الظلم والجور فقط. والكاتب يرفع سؤالا مهما "فلماذا كتبت الكتب عن هذه الأشياء المروعة؟"

ويردف قائلا "إذن فالعالم هو الواهم المخمور.

العلم المتحضر لا بد أن يكون في غيبوبة، لأنه قد سلم للسارق بسرقته، وأمن على جريمة القتل التي ارتكبها القاتل، وربت ظهر صاحبها في رفق وحنى رأسه تقديرا وإعجابا.

وكل شيء يسير في هدوء. في الأرض المسروقة يعيش السارق منعما ويرتع القاتل آمنا. من وراء الأسلاك يبدو المسروق وكأنه مجرم خطر. يجب أن يبقى حبيس المعسكرات والقضبان. والسنون تمر. وكل شيء ضائع، والظالم مستأسد، والمظلوم عاجز، والعالم سعيد"[١٦٤]

يوسف السباعي ضد الحروب

إن الكاتب يوسف السباعي هاجمت في أعماله القصصية فكرة الحرب مثلما نجد هذا الرأي الجاد لمكافحة الحرب في قصته "على الأرض السلام" من مجموعة "يا أمة ضحكت". وقد وظّف السباعي أدوات مختلفة بما فيها أشياء ومفاهيم لتقديم نقده الاجتماعي والسياسي. ومن هذه المجموعة من المفاهيم فكرة الموت والحياة. نسمع النقد السياسي على لسان الراوي في عمله القصصي "نائب عزرائيل" حين يقول بصراحة "إن الناس لو أدركوا الموت على حقيقته وما فيه من سهولة وبساطة. ترى ما الذي سيبقيهم لحظة على قيد الحياة ... هذا الإنسان الذي رغم ما يتخيله من بشاعة

١٦٤ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٤٣

الموت يشعل الحروب ... ماذا تراه يفعل لو أدرك أن الموت ليس بمفزع ولا مخيف ... يا صاحبي لو أدرك الناس الحقيقة لخلت الدنيا من أهلها في لمحة عين"[١٦٥] فالتباين الذي نراه في ازدواجية الإنسان بحيث يدرك جيدا بشاعة الموت وقبحه إلا أنه يبقى حريصا على إشعال الحروب فيما بين الناس والبلاد، يتعرض للنقد السياسي والاجتماعي ليوسف السباعي. وفي مقدمة رواية "ابتسامة على شفتيه" قدم الروائي موقفه تجاه الحرب قائلا "إن الحرب عملية سخيفة، ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولا إبادتك فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه وتحرير أرضك واسترداد حقك"[١٦٦]

وفي بعض الأحيان، يخوض يوسف السباعي مباشرة إلى القضايا السياسية فيرفع الأسئلة حول بعض المواقف السياسية لساسة مصر وقيادتها تارة أو يسهب في المواقف السياسية ويشرحها بشكل واضح يدركه الجميع تارة. وربما يكون في ذلك البيان والكلام لون من النقد السياسي والاجتماعي وهذا ما يكون أكثر واضحا في رواية "ابتسامة على شفتيه" حيث يعالج موقف عبد الناصر في قضية فلسطين. وهنا يتحدث القاص عن الجيوش المصرية ضد الجيش الإسرائيلي ويستمر في الكلام "أين هي؟ لقد قال عبد الناصر إن ليس لديه خطة جاهزة لاستعادة فلسطين، وإنه لن يقبل الدخول في حرب قبل أن يأخذ لها عدتها. ويحاول بعض الحكام العرب دفعه إلى الحرب قبل أن يستعد لها، وبعض الإذاعات العربية تهاجمه لأنه يترك إسرائيل تمر في شرم الشيخ، وأنه يقف مستترا وراء قوات الأمم المتحدة"[١٦٧] وهذه الكلمات ليست أبدا ثرثرة بل فيها

١٦٥ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٣٣

١٦٦ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، مكتبة مصر، القاهرة، ص ٥

١٦٧ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٤٧

معان كثيفة ونقد لاذع لبعض مواقف الرئيس جمال عبد الناصر. ويذكرنا الكاتب أهمية التجهيز الشامل والاستعداد الكامل قبل أن ندخل إلى المعركة وإلى المجابهة.

والكاتب يتناول قضية فلسطين بإسهاب وتفصيل ويشجع على جميع محاولات لحلها وهو يرى أن استخدام البندقية قد لا يحلها ولكن لاستخدامها أهمية قصوى بحيث هو يثبت موقف الفلسطيني إزاء قضية وطنه ويجعل مناضلا في سبيل وطنه بدلا من أن يكون لاجئا يستجدي الجود والكرم ها هو ذا يقول الكاتب "ولكن الحشد أمنية، والتخطيط حلم من أحلام الدجى. والبندقية هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن تطبق عليه الكف فتخرج منه الرصاصة لتصيب من العدو مقتلا، قد لا تعيد الأرض كما يتصور الصغير ولكنها تضع الفلسطيني حيث يجب أن يكون. مواطن يحارب من أجل أرضه. وليس لاجئا يستجدي حسنة"[١٦٨]

إن هناك إشارات قوية إلى عمليات الاستعمار والاحتلال في رواية "لست وحدك" كما نسمع القص يعرب عن ذلك "في الأرض كان يدفع جنون الطموح بالقادة إلى غزو قارات شاسعة ووضع شعوبها تحت سيطرتها"[١٦٩] ولا ينكر جاحد أن ليست هذه العبارات مجرّد الإخبار بل هي في ضمنها تتمرّد على القوات المستعمرة وأعمالها الباطشة من الاستبداد والاحتلال وابتزاز الأموال واسترقاق أهل البلاد واستغلالهم. ويتمحور الحوار الذي يجري بين العلماء في هذا الباب حول الاستعمار والاحتلال ويكشف عن طموحات الحكم وأفكار السيطرة التي رسخت في قلوب الإنسان. الحوار على التالي:

" – إذن ماذا نستطيع أن نفعل؟

---

١٦٨ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٤٨

١٦٩ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٩١٢

قلت لك نوجهها ... نسيطر على إرادتها وحركتها.

ويتساءل عبد الخبير: يكفي لماذا؟

لكي نمارس تجربة الحكم والسيطرة."[١٧٠]

والواضح في هذا الحوار أن جميع الاكتشافات والاختراعات تستهدف تحقيق المصالح الذاتية بدلا من الخدمة الاجتماعية التي نتمناها ونحلمها.

وقد أحسن يوسف السباعي في ملاحظته عن صفات البشر الأساسية وهذه الملاحظة تدل على دقته وعمقه في تحليل الأمور والأشياء الاجتماعية فلا نتردد في كون أعماله الروائية حافلة بالقضايا الاجتماعية والسياسية وتلك الملاحظة تحيط بجميع جوانب كينونة الإنسان. أما التقديم لهذه الملاحظة فيتم بأسلوب السخرية والفكاهة حين تفكر بعثة الرحلة إلى الفضاء في نفخ تلك الصفات البشرية في عالم الشجر. أما تلك الصفات البشرية فهي شهوة الطعام من أجل البقاء، شهوة الجنس من أجل التكاثر، شهوة الطموح والتميز من أجل التطور والتقدم. وليس بوسعنا ألا نُقِرّ بهذه الصفات لأنها واضحة في المجتمع البشري كالشمس المشرقة. والتعليق على هذه الصفات البشرية تأتي على لسان عبد الخبير وهو يقول "فقط، هذه هي المميزات الأساسية الثلاث للبشر. لو أننا أشععناها في هذا العالم الشجري، لدبت فيه الحركة وقام الصراع. وبدأت المشاكل والخلافات، ولأصبح لكم مكان بينهم، أو على رأسهم تتسلون بغباوتهم وتمارسون توجيههم"[١٧١] ونلمح في هذه العبارات حتى نرى فيها اطلاعا صحيحا صارما للأديب يوسف السباعي – ذلك أن القوات العالمية تبذلون قصارى جهدهم لخلق

١٧٠ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٥٥٢

١٧١ يوسف السباعي، لست وحدك، ص ٦٦٢

الصراعات والخلافات والمشاكل بين أظهر الناس لتجد مساحة تعمل فيها وتثبت سلطتها.

يوسف السباعي ضد الساسة المستبدين

إن الأديب يوسف السباعي يلتزم دوما في كتاباته الأدبية والروايات بالخصوص بنقد المستبدين وبنقد نظام الطبقات التي تقسم البشر إلى الأقسام وتجعله عرضة للاستغلال الاجتماعي. أما السلاح الأدبي المهم الذي وظفه يوسف السباعي لهذا الغرض الأدبي، هو أسلوب السخرية والفكاهة. فمثلا نجد في رواية "السقا مات" مواقف متعددة تمثل هذا النقد السياسي والاجتماعي. والحبكة تتطور على الشاكلة التالية.

يسمع شحاتة أن الرجل العظيم البهي الذي قد سبق أن يراه حين كان في موكبه المهول بكل ما فيه من حرس وسيارات مزينة، قد مات وصحبه في موكب جنازته جملة كبيرة من الفرسان وحملة السيوف والمدافع والرجال العظماء في الدولة. ثم في مناسبة موت رجل آخر، يتم دفنه في نفس المقبرة للرجل العظيم فينزل إليها شحاتة وهنا يجده بلا فخامة ولا أبهة ملقى كالقربة أو كالخروف المذبوح ... بلا حراس ولا جنود وموسيقى ولا موكب إلا موكب الدود ... " ولم يتمالك من الابتسام مع السخرية من هذا الرجل الفاخر الذي قضى حياته في التكبير والتشرف.

والسؤال الذي ترفعه هذه الحكاية ما الفائدة للفخامة والتكبر والتشرف التي شاعت فيما بين الإنسان ورجال الدولة والحكام بشكل خاص؟ وفيها نقد لاذع للساسة الفاخرين والطبقات المتوفقة الذين يتمتعون بالإهمال والإعراض عمن دونهم فيضعون أصابعهم على آذانهم تحقيرا وتذليلا من الطبقات السفلى أو المتخلفة. فليس هناك أحقر من الإنسان ولا أشد غرورا منه. وليس في الإنسان ما

يستحق أن تخافه من أجله لا منصب ولا مظهر فليس للألقاب المضافة إلى أسمائهم وللثياب الغالية التي زينوا بها مظاهرهم، معنى يفيد كرامة ولا احتراما. فمهما عظم وضخم هذا الإنسان فإنه لا يتجاوز مصير كونه يوما جيفة نتنة ثم ترابا منسيا. نجد شحاتة أفندي يواصل حوار قائلا "كل ما عليك أن تعطيه موعدا أقصاه بعد أعوام ... لتلقاه في مقبرة وانظر كيف يبدو ... اسأله عن ألقابه وعن ثيابه وعن حراسه وعن أمواله وعن سلطانه وعن جبروته وعن قوته ثم انظر بما يجيبك ... فإذا أجابك بأكثر مما يجيبك ذلك الكلب ... فابصق على وجهه ... وعلى وجهي[١٧٢]" وتسيطر على هذه العبارات كلها روح النقد للنظام الاجتماعي والسياسي سويا.

وفي التعبير للسباعي عن العالم الفضائي بقوله "لقد تحولت الرعية إلى قلة مستغلة، وكثرة مستعبدة"[١٧٣] تلوح صورة العالم الواقعي معا، لأن المستغلين في عالمنا اليوم مجموعة قليلة بينما المستعبدين مجموعة كبيرة. والعالم على أرض الواقع يجري على أيدي المجموعة الصغيرة من الناس بحيث تتمتع بالثروة والغني. أما المجموعة الكبيرة من الناس فتتعرض للاستعباد والاستعمار والاحتلال والاستغلال والظلم والفساد وغيرها من المصائب والمشاكل. وهذا يصبح أكثر وضوحا في العبارة التالية من قبل الروائي الكبير حيث يقول "وفي سباق الطموح والتميز طوت القلة الكثرة تحت أقدامها"[١٧٤]وبهذا التعبير الواضح يحتج يوسف السباعي ضد الرؤساء المستبدين في العالم.

ويعد النقاد عمل السباعي الإبداعي ""البحث عن جسد" من أفضل الأعمال الثورية وفيها يحتج ضد الحكام والساسة المستبدين

١٧٢ يوسف السباعي، السقا مات، ص

١٧٣ يوسف السباعي، لست وحدك ص ٥٤٣

١٧٤ يوسف السباعي، لست وحدك ص ٥٤٣

والفاسدين. أما عنوانه فهو يثير في قلوبنا فكرة الحب والجنس ولكن الفكرة المحورية في هذا العمل الجميل القصصي هي الثورة والتمرد على حيف الحكام وجورهم وفسادهم. ويلاحظ الناقد علاء الدين وحيد هذا الأمر بعمق حيث يعلق على هذا العمل كاتبا في مقالته المعنونة بـ [الزعامات المزيفة في مسرحية "البحث عن جسد"] التي يتضمنها كتابه بعنوان "عالم يوسف السباعي" أن مسرحية "البحث عن جسد" "تعد من أهم أعماله الثورية التي تتناول قضية الحكم في الخمسينات وتسخر من الزعامات المزيفة، وليست كما يمكن أن يوحي عنوانها معالجة للحب والجنس"[١٧٥]

ولا بد أن نفهم بهذا الصدد، أن يوسف السباعي الروائي المصري كان يتناول في أعماله الروائية القضايا المصيرية مهاجما بجراءة وبهمة ثورية لا نلفيهما إلا عند القلائل، الحكام والزعماء والساسة المستبدين وسط الظروف العدائية من الأحكام العرفية السائدة في المجتمع والنظام الملكي الاستبدادي والمتحكم عليه والأرستقراطية وأحزاب الأقلية الأوتوقراطية وفوق ذلك كله، بغض النظر إلى شخصية الضابط التي يرتديها. فليس بإمكاننا إنكار القوة العارمة لهذا الأديب الفنان في التعبير عن القضايا الاجتماعية الملتهبة في زمانه.

أما الحكام والزعامات في هذه الفترة التي تتراوح بين أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات فكانوا ملتزمين بالجمود الفكري ورفض التضحية وإيثار السلامة وتقبيل يد جلالة الملك المعظم والفساد بصفتهم أعضاء الشركات الاحتكارية والانضمام إلى الطبقة الارستقراطية الغنية. وهذه الوضع المأساوي تسبب في تكوين شخصية يوسف السباعي الثوري إلى حد كبير. وأهم أهداف

---

١٧٥ علاء الدين وحيد، عالم يوسف السباعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٩٧٩١، ص ٥٥١

السباعي من عمله الأدبي هو التغيير الاجتماعي وإنقاذ الشعب من محنته.

عدم الاتحاد والوحدة بين القوى العربية في قضايا الأمة

ومن القضايا التي تتناولها روايات السباعي الشجار والتنازع بين البلدان العربية في قضاياها العربية مثل قضية فلسطين. ويعبر عن هذا الوضع السلبي على لسان عمار فنسمع السطور التالية التي تسلط الضوء على أهمية الوحدة بين قوى العالم العرب وضرورتها، وهو يقول "أنت متفائل يا يحيى ... متفائل جدا ... إن التناقض بين القوى العربية ... أكبر من أن يتغلب العمل الفدائي الفلسطيني عليه ... إن الوحدة في نظر كل نظام تحتم تصفية النظام المضاد من أجل أن تتحقق وحدة حقيقية بلا مناقضات"[١٧٦]

ونرى نقد الكاتب يوسف السباعي على اختلاف العرب واشتغالهم بالمشاجرات فيما بينهم يتقوى مرة بعد مرة ويلتهب فينة بعد فينة وهنا تبقى في ذاكرة عمار انعكاسات كلمات يحيى بحيث تطرق مسامعه وهي – عندما نمسك السلاح ونقاتل، سيوضع كل شيء في موضعه. فتخطر على بال عمار جملة من الأسئلة تتعلق بالترددات في شأن وحدة العرب وهي التالية:

"إلى أي مدى يصح هذا القول؟ إلى أي مدى يصح مع الفلسطينيين المتنافرين؟ وإلى أي مدى يصح مع العرب المتقاتلين؟ يقاتل بعضهم البعض الآخر، ولا يقاتل العدو الحقيقي. خرج البعض في سوريا بالسلاح من أجل فض الوحدة. وتشاغلت جيوش العراق وسوريا. بطي النظام وراء النظام، وعمل الانقلاب والثورة في أعقاب الثورة. والجيش المصري مشغول بحماية ثورة اليمن من الرجعية. والأردن والسعودية تجدان في مصر خطرا أكبر من مخطر إسرائيل! والزعامة

١٧٦ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٩٣

الفلسطينية ترتدي الكاكي وتهدد بإلقاء إسرائيل في البحر. كيف؟ كيف؟"[١٧٧]

وهذا الفقرة السابقة تقدّم وضع العالم العربي برمته بصراحة كاملة عبر الأسئلة التي تثير التفكير العميق وتفيد أهمية الوحدة وخطر التفتّت والتشتّت في العالم العربي. ومن خلال تلك العبارات ينادي الكاتب ساسة العالم العربي ويطلبهم بالوحدة والاتحاد تجاه قضايا الأمة والقضايا الإنسانية. ومن تناول الكاتب لقضية فلسطين، يتضح رأي السباعي في القضايا المحورية وعلى رأسها قضية فلسطين – ذلك – وحدة العرب أوّلا ثم مجابهة إسرائيل، وليس الإسراع إلى المعركة مع التشتت الشاسع الوبائي. ويعبر الروائي عن هذا بصراحة حيث يقول "ولكي نواجه إسرائيل – يجب كما قلت – أن نوحد صفوفنا. ولكي نوحد صفوفنا، يجب أن نصفي المعركة بين القوتين، حتى يمكن مجابهة إسرائيل قوة واحدة. والمسألة الآن – فيما يبدو – هي تأجيل المواجهة مع إسرائيل حتى تصفى المعركة الداخلية وتوحد الصفوف."[١٧٨] ويتم بعد ذلك قراءة القضية الفلسطينية من جوانب مختلفة.

يوسف السباعي والتخصيص والتعميم

يمكن أن نلاحظ أن الأديب يوسف السباعي كان على رأي الانتقال من التعميم إلى التخصيص ومن التخصيص إلى التعميم. ولهذا نجد عددا من شخصياته يتابعون الشعب ويستمعون إلى شكواهم. وبهذا الصدد، قراءة السباعي للعالم المحيط به صحيحة إلى حدّ كبير، وقد تركت تجاربه في خدمة الجيش بصمات مشرقة على شخصيته أوّلا وعلى ملاحظته ومراقبته ثانيا. ولهذا تصبح إضافاته

---

١٧٧ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ١٤

١٧٨ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٤٧

الجندية مكتملة. وهنا في رواية "العمر لحظة"، نرى نعمت بطلة الرواية تخصص وقتا كافيا لاستماع إلى شكوى بعد أخرى عما خلفه الجنود في الجبهة وراءهم من مشاكل تقلقلهم، لعلها تستطيع عند عودتها أن تحل لهم بعضها. يقول صبحي أحد المواطنين "كان أبي فيما مضى ينتظر موسم القطن ليكسب ويسدد القرشين اللي استدانهم ويمشي أموره ... والآن أصبح موسم القطن يحل كالقضاء المستعجل ... نقبض باليمن وندفع بالشمال ... ديون متلتلة: مقاومة وتطهير وخلافه ... الجمعيات التعاونية أصبحت كالمرابي لا يحل الموسم إلا وقد خربت بيتنا"[١٧٩]

ونسمع أيضا شخصا آخر اسمه صلاح شاكيا لها مشكلة أبيه الذي خرج حديثا من السجن بل لا يسمح له بفتح كشك سجاير وقد فقدت أسرته معاشهم وهو يقول "مشاكلنا هنا بسيطة ... لا يبقى أمامنا سوى إشارة ونتحرك لنؤدي واجبنا ... ولا يبقى لدينا ما نقدمه سوى أرواحنا ..... فمصيرها يحدده مسار طلقة أو شظية يحولها القدر أنملة، يمنة أو يسرة لتخطف الروح أو تبقيها، ويصبح عمرنا لحظة، وهي أوج العمر أو نهايته"[١٨٠] ولا يخفى علينا أن هذه الشكاوى في صورة الكلمات البائسة المؤلمة شكاوى يتقدّم بها الأديب يوسف السباعي نفسه ضد السلطات السياسية والحكومية غير المنتظمة.

---

١٧٩ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ١٠١

١٨٠ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ١٤١

المبحث الثالث:

الوطنية والقومية في روايات السباعي

ومن أهم القضايا التي عالجها الروائي يوسف السباعي في رواياته قضية الوطنية والقومية. فالكاتب يبقى دوما على شعوره بأنه مواطن مصري له حقوق والتزامات. ومشاعره الوطنية يتمّ الإعراب عنها عبر قصّه في الروايات وعن طريق تقديم أفكاره الوطنية على ألسنة شخصياته. وهذه الفكرة الوطنية منتشرة في أعماله الأدبية بكم كبير. ومن العبارات الروائية التي تتناول الأفكار الوطنية همس نعمت لمعشوقها المقدم محمود عبد الله "عمرك لن يذهب سدى، أنت أعز الناس على هذا البلد. أنت ذخيرة مصر الجريحة، أنت سند وأنت الخلاص"[١٨١]

وهذه الكلمات تزيد قيمة وقوّة حين تنطلق من لسان خادم مخلص في الجيش المصري – هو الروائي يوسف السباعي. ومن هذا المنطلق، ندرك أن الكاتب يوظف في رواية "العمر لحظة" الإطار العاطفي لتقديم الأفكار القومية والوطنية بشكل رائع جذّاب، لأن القارئ عندما يتابع قصة الحبّ بين نعمت ومحمود، يتحرك تلقائيا مع النقاشات والحوارات التي تجري بينهما خلال علاقتهما العاطفية. أما تلك النقاشات والحوارات فهي مكثفة بالأفكار الوطنية والقومية بوصف محمود جنديا وبوصفها ممرضة في مستشفى القوات المسلحة. فالقارئ يتطرق إلى تلك الأفكار مباشرة مع الشعور أو بدونه وبالتالي يتأثر بها ويتفكر فيها.

---

١٨١ يوسف السباعي، العمر لحظة، ص ١٢٤

وعلاوة على ذلك، أن الروائي قدّم في شخصية نعمت بطلة الرواية صورة امرأة تشجع معشوقها على الإقدام على القتال والنضال للدفاع عن الوطن وعن الشعب. وهذه المتابعة توصل القارئ نهاية إلى أن يرى الأفراد وأدوا رغباتهم العاطفية في سبيل سلامة التنظيمات الاجتماعية، حين تترك نعمة خدمتها في مستشفى القوات المسلحة وتعود إلى عملها السابق بالمجلة التي يترأس تحريرها زوجها عبد القادر. تعود نعمت إلى زوجها كما عاد عبد الله إلى زوجته. وبالإجمال، تصبح روح النضال محورا رئيسيا في رواية "العمر لحظة" وقد لاحظ هذا، الكاتب يوسف الشاروني حين يقول "فروح القتال التي تشيع في الرواية من أولها إلى آخرها ليست في النهاية إلا تضحية – ليس بمجرّد الرغبات الفردية – بل بالحياة نفسها في سبيل سلامة المجتمع والوطن"[١٨٢] وبالجملة أن تجاربه الواسعة في ميادين المعركة كفرد من أفراد الجيش المصري وحضوره ثورة يونيو ومشاهدته المباشرة لعديد من الأحداث في تلك الفترة شحذت أفكار السباعي الوطنية والقومية.

ومن منظور رواية "العمر لحظة"، نقتنع بأن الحياة تصبح بدون قيمة وتصبح الروح بدون ثمن وقت المعركة أو الحرب في قلوب المناضلين وإلا يجب أن تكون فكرتهم كذلك. فالأهم والأسمى هو الموت في سبيل الوطن ولصالح الآخرين بحيث يصبح صديقا حميما لأنفسهم.

وكان من هموم الأديب يوسف السباعي الاستعمار وما خلفه من الآلام والأحزان والمآسي ففي مقدمة رواية "ابتسامة على شفتيه" نجده يعرب عن تلك الهموم الثابتة في قلبه الحنون وهو يلاحظ ما حققنا من الحرية والتقدم الاجتماعي والبناء الاقتصادي ويعلن

١٨٢ يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ٢١.

بأنه كانت مصر أصل الحضارة في حين كانت شعوب العالم تعيش في ظلمات الجهل ويقر بأن المستعمرين نهبوا موارد مصر واستعبدوا شعوبها بدون شفقة ولا رفق. وهذه العبارات تثير في قلوب المواطنين المصريين روح القومية والوطنية على نطاق واسع.

وفي رواية "ابتسامة على شفتيه" نجد الكاتب يعرض الأفكار الوطنية والقومية عبر خلق شخصيتين محوريتين هما مي وعاشقها عمار وكلمات الكاتب في هذا الصدد تحمل في طياته القضية المحورية – قضية فلسطين. تقول مي في شأن أفكار الآخرين عن عمار بصوت تنطلق فيه الانفعال القوية والأفكار الثورية ملتهبة:

"- إنكم تظلمونه جميعا، إنه يحمل هموم جيله الضائع، جيله اللاجئ يا خالتي. ولكنه يعيش حياة مستقرة. ولقد استطاع أبوه أن يستعيد مركزه من جديد. وأن يكتسب ثقة التجار والناس. ومتجره يسير من حسن إلى أحسن.

ليس مركز أبيه وتجارته هي التي تشغله، ولكن مركز بلده ومصيبة وطنه هي التي تملأ ذهنه"[١٨٣]

وهذه الكلمات تدل دلالا واضحا على أن مي بطلة الرواية ليست بمجرّد عاشقة لعمار بل هي مناضلة تؤيد المناضل في سبيل الوطن هو عمار فآلامها وأحزانها في أمر الوطن تطابق آلام عمار وأحزانه في أمره.

إن روح الثورة والمقاومة والوطنية بالخصوص تجعل الشيخ عبد السلام شخصية من شخصيات رواية "ابتسامة على شفتيه" يفضّل وجود معسكرات التدريب على وجود معسكرات اللاجئين وهو يتمتم قائلا "رعاكم الله ... كان يجب أن يبدأ هذا منذ مدة ... دائما كنت أشعر أن معسكرات التدريب خير لنا من معسكرات

١٨٣ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٦٦

اللاجئين ... "[١٨٤] وفكرة القصة المحورية تتطور في كلمات شخصياتها وحركاتها تدريجيا، كما نرى يحيى يقول لعمار عن مي "دعها ترسمك ... فقد تستشهد غدا ... وتصبح للصورة قيمة ..."[١٨٥] ويحيى الفدائي هو الذي يقول "إن واجبنا هو أن نمسك السلاح ونضرب ... حتى نموت ... أليس ذلك حق وطننا علينا"[١٨٦]

وروح القومية والمقاومة تجعل خالدا يرسم البندقية بدلا من شجرة الزيتون التي أمر برسمها وهو يقول قالت لي ارسم شجرة زيتون فرسمت بندقية. وخالد، على الرغم من أنه صغير سنا إلا أنه يعلن روح المقاومة مخاطبا لعمار "اسمع يا عمار... أحضر بندقيتين ... واحدة لي وواحدة لك ... ودعنا نذهب ونضرب اليهود مع يحيى ... ونستعيد بيتها بيتنا الذي أخذوه ... وأرضنا التي سرقوها ... والتي لا تفتأ أمي تتحدث عنها كل ساعة"[١٨٧]

بالرغم من أن المهتمين الهنود بالأدب العربي لم ينتبهوا إلى الأديب المصري يوسف السباعي قدر ما يستحق هو وأعماله إلا أن نهايات النصف الأوّل وبدايات النصف الثاني من القرن العشرين الذي تلألأ فيه الأدب العربي قد سجلت إسهاماته الرائعة بكل جلاء وثناء. فلا نخطأ إذا استنتجنا أنه كان يوسف السباعي كاتبا غزير الإنتاج، كما كان له نفوذ كبير فيما بين الجاليات الأدبية والسياسية من خلال احتلاله العديد من المناصب العليا والمراكز مثل منصب وزير الثقافة لجمهورية مصر. وكان يراهن على قدرته حين ضحى بروحه للكتابة، على إبداع أعمال تخلد اسمه.

وهذا الباب يعرض أمامنا جملة كبيرة من الموضوعات التي تعرّض لها

١٨٤ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٧٦
١٨٥ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٢٧
١٨٦ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٥٧
١٨٧ يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، ص ٤٨

قلم يوسف السباعي الروائي وعلى رأسها قضية فلسطين والمقاومة ووقوف السباعي ضد الاستغلالات الاجتماعية مثل الحيف والظلم والفساد والرشوة والاستبداد ونداؤه للاتحاد والوحدة بين الشعوب الإنسانية والعربية بالخصوص ولا يخفى علينا أن الوضع السياسي الذي شهدته مصر في حياة السباعي ترك بصمات جلية على قالب إبداعه ومنهج معالجته للقضايا الاجتماعية والسياسية وقد لجأ هذا الأديب كثيرا إلى الموضوع الجاهز المهمّ ألا هو الثورة فكتاباته الروائية مليئة بالأفكار والأحلام والتيّارات والاتجاهات الثورية وتتجلى على رحلته الطويلة الإبداعية مباهجها وغبارها ولكن للأسف الشديد، قضت الرصاصات التي تزعم أنها فلسطينية على هذه الشخصية الأدبية البارزة.

خاتمة

وصلنا الآن بتوفيق الله المنان إلى نهاية الدراسة، بغض النظر عن كون البحث في المرحلة الأولى يجري بتأنٍ وبطء. ولكن السرعة بدأت تزداد يوما بعد يوم. وفي البداية بدت لي هذه الدراسة صعبة جدا لأن المصادر الثانوية لم تكن متوفرة لدي. أما المساعدات من قبل عديد من الأشخاص فأصبحت نقلة نوعية في ميدان هذه الدرسة. ويوسف السباعي - لا ينكر إلا جاحد أهميته لدى الأوساط الأدبية والثقافية حيث تَقدَّم إلى العالم الأدبي بأعمال أدبية رائعة وأنشطة ثقافية متنوّعة وعلى رأسها رواياته الجلية مثل "أرض النفاق" و"طريق العودة" و"ابتسامة على شفتيه" و"نحن لا نزرع الشوك" و"لست وحدك".

ولا أخجل أن أفاتحكم بالحيرة التي شعرت بها حين خطوت إلى عتبة هذا البحث لأن عالم هذا الأديب الكبير يوسف السباعي كان ولم يزل واسعا جدا إلى حد أنه لا يمكن لأحد أن يحيط به بسهولة. ومنذ أن بدأت أتصفح روايات السباعي، لاحظت أن يوسف السباعي يستحق مزيدا مزيدا من الدراسات.

لم يلبث هذا الباحث أن ينتقل من رواية إلى رواية أخرى حتى اكتشف موضوعات متميزة وجوانب متلونة تتجلى في جوهرها. وهذا هو الدافع الحقيقي الذي تسبّب لاستمراري في هذا البحث الجاد. وكانت معالجة الموضوعات في الروايات السباعية ذات رونق عجيب حين مزج الكاتب أسلوبه بالسخرية والفكاهة. والباحث لم يشعر بالتعب والملل أبدا. بل السؤال الذي بقي في ذاكرته دوما هل

تمكنه ملامسة جميع جوانب هذا الأديب المصري وتياره الفكري وأدبه الشعبي ووجوده الثقافي وجوهره الوطني والقومي؟. ولم يزل السؤال يثير في الباحث روح الشوق إلى المعرفة الحقيقية وشغفه بيوسف السباعي. فمضى الباحث يمرّ بالعالم الروائي المصري ليتفحّص فيه ألوانا من القضايا الاجتماعية والسياسية ووقف أمام شخصية السباعي لمدة تكفيه للفهم الكافي لهذه الكينونة الأدبية الخالصة، بينما كان اهتمام الباحث في المرحلة الثالثة من الدراسة بالخصائص الأدبية والفنية المتواجدة في سطور روايات السباعي فلم يكن لنا البد من تقديم القضايا الاجتماعية والسياسية المبعثرة بشكل جميل واضح في رواياته. وعن طريق هذا المرور العلمي والبحثي الذي شهد عملية الأخذ والطرد، انتهينا إلى ما نحن الآن هنا:

نخصص السطور التالية لعرض الأمور التي استنتجناها من خلال هذه الدراسة العلمية الأدبية عن الأديب يوسف السباعي ورواياته.

استطعنا قراءة الأديب يوسف السباعي من جانب خاص عن طريق هذا البحث الأدبي.

أدركنا عبر هذه القراءة الواسعة، أن يوسف السباعي أديب كبير تابع المجتع في كل لحظاته.

لاحظنا أن أدب يوسف السباعي، على رغم استحقاقه دراسات نقدية جادة ومستقلة، إلا أن القلائل من النقاد انتبهوا إليه وقدّر أعماله.

تلقت أعماله الأدبية - على الإطلاق – حفاوة كبيرة من الجمهور في صورة السينما والأفلام أكثر منها في صورة الكتب والمجلدات.

إن وجود يوسف السباعي في فترة سيطرت فيها على عالمها الأدبي أعمال نجيب محفوظ تسبب في نقص شعبيته بشكل أو بآخر.

يعدّ يوسف السباعي من الأدباء الكبار العشرة في عصره كما أشار إليه هو نفسه وتقنعنا به هذه الدراسة.

لا تتخلى لغته من الأخطاء اللغوية والتحريرية كما لاحظتها الكاتبة الشهيرة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ. ولا يخفى علينا أن تلك الأخطاء لم تكن تهمه.

إن روايات يوسف السباعي حافلة بالقضايا الاجتماعية والسياسية مثل قضية النفاق وقضية الفساد والرشوة والمكافحة ضد الحيف والظلم والاستبداد للحكام والزعامة والساسة.

قد وجدت قضية المرأة مكانة مرموقة في صفحات رواياته الرائعة مثل "لست وحدك" و"إني راحلة" و"نحن لا نزرع الشوك".

يعدّ يوسف السباعي من أفضل أدباء العرب والعجم الذين تناولوا في جميع الألوان الإبداعية من الرواية والقصة والمسرحية والمقالة قضية فلسطين.

كانت قضية فلسطين تنفخ روحا في سطور روايات يوسف السباعي إلى حد كبير مثلما نجد في رواية "ابتسامة على شفتيه" و"طريق العودة".

تكون عدة رواياته المهمة تاريخية القالب والبنية مثل "رد قلبي" و"نادية".

تتسلط الأفكار الإنسانية على الرواية المشهورة ليوسف السباعي "لست وحدك".

إن تعدد الزواج من مختلف القضايا الاجتماعية التي

تناولتها روايات السباعي.

ربما يكون يوسف السباعي هو الوحيد الذي عنون رواية بأرض النفاق وتناول فيها النفاق الحاكم المتواجد في جميع مجتمعات العالم.

يلعب القدر والموت دورا كبيرا في تطوّر حبكة الروايات ليوسف السباعي.

تلوح في رواياته روح الثورة الحقيقية مشرقة ومتألقة.

لم يضع يوسف السباعي أية لحظة إلا أن تحدث فيها عن قضية فلسطين وأهلها. وموقفه في قضية فلسطين - كما ندركه من رواياته – كان يؤيد فلسطين وأهله دوما.

كأن تواجده مع أنور سادات في زيارته إلى القدس تسبب للتردد من قبل الشعب الفلسطيني في موقفه تجاه قضية فلسطين وهذا انتهي باغتياله في قبرص.

قد ساعدت يوسف السباعي، متابعته المستمرة لمجتمع وما يعاني منه من السلبيات والمشاكل على التمرّد ضدها في كتاباته الروائية.

ومن المضامين المهمة في رواياته وحدة العرب ليقفوا متحدين أمام القضايا المحورية مثل قضية فلسطين.

يلتزم يوسف السباعي بعروبته وحضارته العربية الخالصة وهذا ما يلمح في أعماله الروائية بجلاء ووضوح.

فكرة الحب كانت تسيطر على أعماله الروائية المهمة مثل "إني راحلة" و"العمر لحظة".

كانت فلسفته في كتاباته الإبداعية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

قد استمد المواد لجميع رواياته مما يجري على أرض الواقع وقد تمرّد كثيرا على تكبر الإنسان وكبرياءه.

وهذه الدراسة – نتمنى ونرجو – ستلبّي متطلبات الباحثين حول هذه الشخصية البارزة من الأدباء المصريين الروائي يوسف السباعي. ونسأل الله أن يوفقنا لذلك وأن يجعل هذا العمل مفيدا لمن يهمهم هذا الجانب من الدراسة. وكلامنا في هذا الصدد، ينتهي بالحمد والشكر لله الواحد القهار.

المصادر والمراجع

المصادر الأوَّلية[١٨٨]

- يوسف السباعي، نائب عزرائيل، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، أرض النفاق، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، إني راحلة، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، السقّا مات، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، البحث عن جسد، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، فديتك يا ليلى، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، بين الأطلال، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، رُدّ قلبي (جزءان)، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، طريق العودة، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، نادية (جزءان)، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، جفت الدموع (جزءان)، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، ليل له آخر (جزءان)، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، نحن لا نزرع الشوك (جزءان)، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، لست وحدك، مكتبة مصر، القاهرة

١٨٨ اعتمدت الدراسة في جميع المصادر الأولية على طبعة مكتبة مصر، القاهرة، والتاريخ لم يذكر فيها

- يوسف السباعي، ابتسامة على شفتيه، مكتبة مصر، القاهرة
- يوسف السباعي، العمر لحظة، مكتبة مصر، القاهرة
- المصادر الثانوية والمراجع
- إبراهيم أصلان، مالك الحزين، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥
- إبراهيم العريس، "السقا مات" ليوسف السباعي: الحوار المدهش بين الحياة والموت، الحياة، الأربعاء، ١ نوفمبر ٢٠١٧
- أبو المعاطي أبو النجا، قراءة في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨
- أحمد إبراهيم الهواري، نقد الرواية في الأدب العربي الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣
- أحمد زياط محبك، متعة الرواية ... دراسة نقدية منوعة، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط ١، ٢٠٠٥
- د. أحمد السيد عوضين، المازني ساخر العصر الحديث، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٨
- إحسان عبد القدوس، لا تطفئ الشمس، مكتبة مصر، ج ١
- أحمد عبد الكريم، أضواء على تجربة الوحدة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ٢، ١٩٩١
- أحمد عوين، أبعاد المكان الفنية في عصافير النيل لإبراهيم أصلان، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط ١، ٢٠٠٤
- أحمد محمد سعد، المشكلة الفلسطينية وموقف مصر حكومة وشعبا منها ١٩١٧-١٩٣٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧
- إدوار الخرّاط، الزمن الآخر، الهيئة العامة للكتاب، ط١ ١٩٨٥
- إدوار الخرّاط، محطة السكة الحديد، الهيئة العامة للكتاب، ط ١ ١٩٨٥

- إدوار الخرّاط، يا بنات إسكندرية، دار الآداب، ١٩٩٠
- إدوار الخراط، طريق النسر، مركز الحضارة العربية، ط ١، ٢٠٠٢
- إزيد بيه ولد محمد البشير، تجديد الرواية العربية يوسف القعيد نموذجا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ١ ٢٠٠٦
- أنجل بطرس سمعان، دراسات في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧
- جمال الغيطاني، ملامح القاهرة في ألف سنة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٥، ٢٠٠٧
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠
- الدكتور حسن عليان، تقنيات السرد وبنية الفكر العربي في الرواية العربية، الآن ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠١٥
- حسين عيد، نجيب محفوظ سيرة ذاتية وأدبية، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٧
- حلمي بدير، الاتجاه الواقعي في الرواية الحديثة في مصر، دار المعارف، ط ١، ١٩٩٠
- حمدي حسين، الرؤية السياسية في الرواية الواقعية في مصر ١٩٦٥-١٩٧٥، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤
- حنان مفيد، يوسف السباعي . . . سبعة وجوه، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥
- خيري شلبي، وثالثنا الورق، دار الشروق، ط ٣، ٢٠١٠
- زينب جمعة، صورة المرأة في الرواية ... قراءة جديدة في رواية إملي نصر الله، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط ١، ٢٠٠٥

- شفيع سيد، اتجاهات الرواية المصرية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٨
- شوقي بدر، الرواية والروائيون دراسات في الرواية المصرية، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط ١، ٢٠٠٦
- طه وادي، دارسات في نقد الرواية، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٤
- د. طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف ١٩٨٤
- عباس خضر، كتابنا في طفولتهم، كتب ثقافية، رقم ٨٩، ١٩٦٠
- عبد الحميد جودة السحار، أذرع وسيقان، مكتبة مصر، ١٩٩٠
- عبد الرحمن أبو عوف، قراءة في الرواية العربية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥
- عبد الرحمن خضاري، بروليتاريا، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠١٥
- الدكتور عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٦
- الدكتور عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، ط ٩، ٢٠٠٧
- علاء الدين وحيد، عالم يوسف السباعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩
- علاء الدين وحيد، يوسف السباعي بين الأيام والليالي، الكتاب الذهبي، روز اليوسف ١٩٧٩
- علاء الأسواني، عمارة يعقوبيان، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢
- علاء الأسواني، شيكاجو، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧
- غالي شكري، الفكر والفن في أدب يوسف السباعي، دار الفكر
- د. فيصل دراج، رواية التقدم واغتراب المستقبل، دار الآداب للنشر

والتوزيع، ط ١، ٢٠١٠

لوسي يعقوب، يوسف السباعي فارس الرومانسية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧

الدكتور محمد الجوادي، في ظلال السياسة: نجيب محفوظ الروائي بين المثالية والواقع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧

محمود الربيعي، قراءة الرواية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧

الدكتور محمد رجب البيومي، محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ، دار القلم، دمشق، ط ١، ٢٠٠١

مرفة عبد الناصر، هموم المرأة ... تحليل شامل لمشاكل المرأة النفسية، مكتبة مدبولي، القاهرة

مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٤

الدكتور ماهر حسن فهمي، قضايا في الأدب والنقد رؤية عربية، وقفة خليجية، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٦

نبيل راغب، فن الرواية عند يوسف السباعي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠

نجيب محفوظ، بين القصرين، مكتبة مصر، ١٩٥٦

نجيب الكيلاني، امرأة عبد المتجلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧

نزيه أبو نضال والمؤلفون، دراسات في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٨

وائل علي فالح الصمادي، صورة المرأة في روايات سحر خليفة، دروب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية ٢٠١٠

وجيه يعقوب السيد، الرواية المصرية في ضوء المناهج النقدية الحديثة، مكتبة الآداب القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥

يحيى حقي، قنديل أم هاشم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، ٢٠٠٨

يوسف إدريس، رجال وثيران، مكتبة مصر

يوسف زيدان، النبطي، دار الشروق، القاهرة ٢٠١١، ط ٦

يوسف السباعي، مجموعة أطياف، قصة: خريف امرأة

يوسف الشاروني، الروائيون الثلاثة – نجيب محفوظ، يوسف السباعي، محمد عبد الحليم عبد الله، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣

يوسف الشاروني، دراسات في الرواية والقصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧